محمد عوده

ليبراليون وشموليون

وقصة الديمقراطية والحزبية في مصر



سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير مصطفى نبيل

سكرتير التحرير عادل عبد الصمد

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٨٠ - ذو الحجة - ابريل ١٩٩٩

No - 580 - AP - 1999

... قرش

١٥ فلس- السعودية ١٥ ريال -

سلطنة عمان ١.٥ ريال

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

ليبراليون وشموليون وقصة الديمقراطية والحزبية فى مصر

بقلم :

محمـــد عـــودة

●

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

الفصل الأول

الميلاد

تأسس أول حزب سياسى «عصرى» فى مصر فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ وكانت أول تجربة من نوعها فى «الشرق» .

وعقد المؤسسون الاجتماع الأول فى «حلوان» وكانت ضاحية بعيدة عن القاهرة ، وعن أعين الجواسيس ، سواء جواسيس الخديوى أو رئيس الوزراء رياض والذين كانوا ينتشرون فى كل مكان يرصدون نشاط وتحركات «الوطنيين» .

وكان على رأس المؤسسين «محمد شريف باشا» ذو المكانة الرفيعة والشهرة الواسعة والملقب باسم «أبو الوطنية والدستور»، وكان هناك «راغب باشا» أكفأ وزير مالية مصرى وصاحب المشروع الوطنى لسداد الديون وشاهين باشا وزير الجهادية والبحرية السابق ، وواضع استراتيجية الدفاع ضد التدخل .

واكتمل الاجتماع بحضور محمد سلطان باشا «أبو سلطان ملك الصعيد» كما كان يسمى لشعبيته فى الريف ودواوير الصعيد .

وكان اجتماع حلوان ، ذروة لاجتماعات طويلة تمت معظمها سرا بين كل من كان يعنيهم مصير البلاد ، بعد ما تولى خديوى جديد ونقض كل العهود وتنكر لكل مشاريع الإصلاح ، واختار رئيس وزراء كان أشهر الساسة رجعية وولاء للأجانب ! .

وانتهى الاجتماع فى حلوان إلى ضرورة تكوين حزب سياسى على نسق الاحزاب الأوروبية ، يرسم السياسات ويضع الخطط والمشاريع ، ويوقظ الأمة ويقود المواجهة ومعركة المصير .

وتقرر أيضا أن يعرف الناس بقيام الحزب فى منشور يطبع سرا باللغتين العربية والفرنسية ويوزع على أوسع نطاق بين المصريين والأجانب ، وفى الداخل والخارج .

وتم ذلك وطبع المنشور وشاع بين كل الطبقات والفئات وفوجئت الحكومة وفزعت ولكن لم تستطع شيئا .. قال المنشور :

«تأسس الحزب الوطنى المصرى وقام لينقذ البلاد من الهوة السحيقة التى تردت إليها تحت وطأة المرابين والسماسرة والمستبدين الذين استولوا على ماليتها ونهبوا ثروتها واختلسوا بغير حق مواردها» .

(وقام الحزب ليواجه الدول الاجنبية التى فرضت على مصر حكومة لا تمت إليها بصلة أو نسب ولا يرجى منها للبلاد أى خير بل على العكس لا يعنيها شئ سوى ضمان مصالح الاجانب) .

(إن الديون المصرية مشكلة مالية بحتة وينبغي أن تظل كذلك وأن تحل في هذا الإطار وأن لا تحولها الدول إلى قضية سياسية وتتخذها ذريعة للتدخل في صميم شئوننا وحتى تنتهي إلى بسط سيطرتها وهيمنتها كاملة على البلاد) .

(وقد أعد الحزب برنامجا مفصلا لتسوية الديون تسوية نهائية وتبدأ بتوحيدها في دين عام وتخفض فائدته إلى ٤٪ وتضمن الأمة كلها سداده) .

(لقد عقدت مصر العزم على الوفاء بهذه الديون حتى آخر قرش فيها وهي تثق ثقة تامة في قدرتها على ذلك ولكن بشرط واحد هو أن تتركها الدول الأجنبية حرة في إدارة شئونها وفي تنفيذ الاصلاحات التي ترى أن البلاد في حاجة إليها ولا تطلب شيئا آخر) .

وتقرر أن تكون الخطوة التالية : بعد إعلان الحزب هي بسط وجوده ونفوذه في الريف قاعدة البلاد .

وتألفت لجنة من سلطان باشا والشريعي باشا وسليمان أباظة باشا، للطواف ونشر الدعوة واستقطاب الريف بمديرية وعمده وأعيانه وانقاذ البلاد من هاوية تقف على حافتها .

وكانت سنة ١٨٧٩ سنة عصيبة أشد السنوات وطأة واضطرابا منذ بدأت الأزمة سنة ١٨٧٥ وتفاقمت بعدها وتعاقبت الكوارث والنكبات . فاض النيل فيضانا عاليا أغرق القرى والمحاصيل والمواشي ، وشرد مئات الآلاف ، وفي العام التالي ١٨٧٦ حدث العكس ونقص الفيضان

نقصا مهولا بحيث عم القحط وتفشت المجاعة ونفق الزرع والحرث وشهد عام ١٨٧٩ وباء الطاعون البقرى الذى أهلك المواشى ثم وباء الكوليرا الذى حصد الأهالى بالآلاف .

ولم تقف تلك النوائب والمصائب حائلا دون استيفاء الضرائب ودفع الأقساط والفوائد كاملة، وأصر القناصل وممثلو الدائنين وحملة السندات على استيفاء اقساطهم عن آخرها ، حتى صاح الخديو «اسماعيل» فى وجه القنصل الانجليزى «ماذا تريدون - لم تبقوا فى مصر شيئا سوى الجلد على العظم» .

ولهذا لم يجد وفد الحزب وعلى رأسه سلطان باشا عناء فى اجتذاب الريف إلى الحزب .

واتجه الاهتمام بعد الريف إلى القوة الأخرى الفتية والتى انبثقت فجأة على الساحة السياسية وهم ضباط الجيش .

وبالامتداد إلى الريف ثم إلى العسكريين تكون الهيكل الأساسى وامتلك الحزب القاعدة والطليعة الضاربة وكانت ولادة فريدة .

واتخذ المؤسسون قرارا جريئا «غير مسبوق» وذلك بإيفاد الصحفى السورى أديب اسحاق «إلى باريس» ليصدر جريدته التى كان يصدرها فى مصر ، ولتكون لسان حال الحزب وأن يعمل على تهريبها إلى مصر عبر الرقابة التى كانت مفروضة على الصحف والتى اشتدت وطأتها فى ظل حكومة رياض باشا .

وكان أديب اسحاق واحدا من أبرز رجال القافلة الثقافية التى وفدت إلى مصر فى عصر اسماعيل هربا من الاضطهاد العثمانى فى الشام .

وقد بدأ فى المسرح ثم تحول إلى الصحافة ثم تحولت حياته وتغيرت بعدما التقى «بالاستاذ» «جمال الدين الافغانى» ولازمه وأصبح أقرب مريديه وجعل من جريدته «القاهرة» لسان حال «الاستاذ» .

وسافر أديب اسحاق وصدرت الجريدة ووصلت إلى مصر «وكانت الايدى تتخاطفها وبلغ ثمن النسخة فى بعض الاحيان جنيه ذهب» .

وبدأ الحزب مسيرته

كتب مراسل التايمس البريطانية :

(يرسخ فى أذهان المصريين جميعا وعلى اختلاف طبقاتهم أن احتلال البلاد وشيك الوقوع وأنه إذا لم يسارعوا إلى تداركه سوف يفاجأون به واقعا محتوما ومن هذه الحقيقة ولد الحزب الوطنى) .

ويروى الشيخ محمد عبده فى مذكراته :

«تداول الناس منشور الحزب وكان أشد هجوم شن على رياض باشا ، ووزع من المنشور أكثر من عشرين ألف نسخة ، ولم تستطع الحكومة جمعه أو مصادرته أو الكشف عن أصحابه وتداولت الشائعات أنه صدر من جمعية سرية تكونت فى حلوان بقصد جمع صفوف المعارضة ضد رياض ، وأن على رأسهم شريف وراغب وسلطان

وشاهين وعمر لطفى وأنهم أرسلوا أديب اسحاق على نفقتهم ليصدر جريدة القاهرة فى باريس» .

وكانت صحيفة «الريفورم» الفرنسية التى تصدر فى الاسكندرية شديدة التعاطف مع الوطنيين .. وتخطت حاجز الإرهاب محتمية بالامتيازات الأجنبية ونشرت تعليقا مستفيضا بعنوان «أهم حدث ينتهى به هذا العام» .

قالت : .

(تداول الناس خلال الأيام الماضية كراسة صغيرة من بضع صفحات وزعت على أوسع نطاق فى القاهرة والاسكندرية. وجاء فيها أنه صدر من الحزب الوطنى المصرى الذى تكون لينذر الناس ويحذرهم من خطر داهم يزحف سريعا على البلاد ولن يتوقف حتى يحتلها) .

(وإن الحزب يؤمن بأن عليه واجباً مقدساً نحو الأمة التى يجب أن تتمسك بسيادتها واستقلالها وألاّ تستسلم أبدا لأى مستبد أو مستعبد وأن طريقها إلى الخلاص هو أن تعبئ قواها وتشحذ وعيها وأن يتعلم كل فرد فى الشعب كيف يحمى حقوقه ويؤدى واجباته) .

«ويقول الكراس: إن حكومة البلاد لابد من أن يتولاها رجال من أبناء الأمة والذين يختارهم الشعب بارادته الحرة ولا يمكن أن تقبل الأمة حكاماً تابعين لهذه الدولة أو تلك وأن أمثال هؤلاء لابد أن يزاحوا وأن لا يكون لهم مكان فى مصر . وأن الحزب وضع بالفعل «برنامج

اصلاح عام لسداد الديون عن آخرها ، لأن مصر تريد أن تكون أمينة في معاملاتها مهما تكن التضحية وأن مصر لا ترفض الاستعانة بخبرة الأجانب ولكن بشرط أن تقوم مصر بتحديد نطاقها وهى لهذا ترفض أى مراقبة مالية دولية وأى تدخل فى شئونها الداخلية يرمى إلى فرض نظم إدارية أو مالية» .

وتختم الريفورم تحليلها قائلة :

«يؤكد الحزب الوطنى أن مصر ترفض تماما أن تكون مجرد اصطلاح جغرافى وأنها مصممة أن تنفض عن نفسها أى قيد على ارادتها وأن تمارس حقوقها كاملة وأن تقف فى وجه كل المضاربين والمرابين والنصابين الذين يتربصون لها فى كل ركن» .

وهكذا ولد الحزب مناضلا وكان قيامه ذروة الأحداث الجسام التى تعاقبت على البلاد خلال عام ١٨٧٩ ومنذ اليوم الأول ..

وكان يوم ٢ يناير هو المحدد كل عام لبدء الدورة البرلمانية لمجلس شورى النواب .

وكان الاحتفال المهيب يقام فى القلعة يفتتحه الخديوى بحضور الأمراء والذوات والعلماء والرؤساء الروحانيين الثلاث وقناصل الدول الأجنبية.

وكانت المدافع تطلق ويصطف الجنود وتخرج الجماهير إلى الشوارع لتشهد الاحتفال وجرت التقاليد «الشورية» على أن يلقى

الجناب الخديوى «مقالة الافتتاح» ثم ينصرف وتنعقد بعد ذلك لجنة الرد على خطاب الجناب الأفخم وتتكون من عشرة نواب يختارهم المجلس ، وحينما تنتهى من إعداد الرد تذهب إلى السراى ، حيث يقام احتفال مماثل يستمع فيه الخديوى إلى الرد . ويعود الأعضاء بعد ذلك ليبدأ العمل.

وكان كل شئ يتم فى سلام منذ قيام المجلس سنة ١٨٦٦ ولكن اختلف الأمر هذه المرة إذ تولى القاء الرد العضو عبدالسلام بك المويلحى ، والذى برز إلى الساحة السياسية فى الدورة السابقة حتى اكتسب لقب «زعيم المعارضة» .

قال :

«الجناب الافخم»

نحن ممثلو الأمة المصرية والمدافعون عن حقوقها ومصالحها والتى هى فى الوقت نفسه أهداف الحكومة نشكر الجناب الافخم على عودة مجلس شورى النواب للانعقاد ونأمل أن يكون أول مهام المجلس مناقشة مشاكل المالية والاشغال العامة وكل المشاكل الأخرى التى تعنى المحافظة على مصالح الأمة وحقوقها . إن خطاب سموكم يتفق مع روح العصر الجديد ويبعث الأمل فى الأمة والتى تتطلع إلى أن تسترد مجدها الماضى وتصبح دولة قوية مهابة .

وكان الخطاب المركز موجها إلى الوزارة القائمة والتى يرأسها نوبار باشا ويتولى وزارة الداخلية رياض باشا والتى ضمت لأول مرة فى

تاريخ النظارات المصرية وزيرا بريطانيا للمالية ووزيرا فرنسيا للاشغال العامة والتي لم تكن تكترث بالمجلس .

وقد فاض السخط بأعضاء المجلس وعقدوا العزم على أن تكون الدورة حاسمة .

وعبرت عن ذلك صحيفة الوطن بقلم رئيس تحريرها ميخائيل عبدالسيد :

«تتطلع البلاد منذ زمن طويل إلى توطيد سلطات مجلس شورى النواب لأنه بغير ذلك لن تقوم أى حياة دستورية أو مسئولية وزارية ونحن نسأل أنفسنا إذا لم يكن الوزراء مسئولين مسئولية حقيقية أمام مجلس النواب فأين تكون مسئوليتهم هل تكون أمام بريطانيا وفرنسا وحملة السندات والدائنين» ؟ .

«إن أهم ما تحتاج إليه البلاد الآن هو برلمان حقيقى يوطد سيادة القانون ويقيم العدل ويسعى لترقية وتطوير النظم والمؤسسات ويوقظ وعى الناس وأن يدركوا أن الحكومة القائمة لا تمثلهم وأنها لا تخدم أحدا سوى أطماع الدول الأجنبية .

واستطاع مراسل «التايمس» أن يتنبأ بما تنذر به الدورة «الساخنة» وكتب :

«تدل كل الدلائل على أن دورة مجلس شورى النواب القادمة سوف تكون عاصفة وأن النواب مصممون على أن يؤكدوا حقهم فى مناقشة

المسائل المالية ومشكلة الديون خاصة . ويصرح قادة الرأى العام هنا بأنه لا يعقل أن تستهلك خدمة الديون سبعة ملايين جنيه سنويا فى بلد كل إيراده لا يتجاوز تسعة ملايين، وأن الوطأة تقع على أشد الاهالى فقرا وهم الفلاحون الذين لا يجدون القوت والموظفون الذين لا يتقاضون مرتباتهم لأشهر طويلة بينما يقبض الموظفون الأوروبيون والبريطانيون مرتباتهم العالية بانتظام» .

وكان مجلس شورى النواب قد تأسس سنة ١٨٦٦ وكان أحد الأركان الأساسية فى برنامج الخديوى اسماعيل« الطموح » للتحديث:

وقال مرسوم إنشائه :

«اقتضت إرادتنا العلية إنشاء مجلس شورى أهلية وطنية لما نعلم من أن جميع الآراء فى أمور العالمين والمداولة فى مصالح البلاد والرعية مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجبات كمال الالتئام وتمام راحة الأيام ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية كما هو مرعى من أكثر الجهات، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى : «وشاورهم فى الأمر» وقوله أيضا «وأمرهم شورى بينهم» .

واختتمت الدورة الأولى لمجلس شورى النواب فى يوم سعيد هو «عيد ميلاد سعادة أفندينا» الذى تتم فيه السرورية والفرح .

ولم يكن اسماعيل يريده مجرد «ديكور» ولكن أن يكون أداة فعالة في تدعيم «مشروعه الوطني» .

وفي حديث لرئيس الوزراء نوبار مع وزير خارجية فرنسا قال :

«إن مجلس شورى النواب المصرى يقف على أرض راسخة وقد تم اختيار النواب من مشايخ البلاد وبواسطة الشعب نفسه ولم تتدخل الحكومة سوى بالتصديق، وأصبح على نوى الشخصية والنفوذ أن يقدموا المشورة والتوصيات للمديرين حول المشاكل والمشاريع العامة» .

«إنه برلمان حقيقي ومدرسة يتعلم عن طريقها الشعب ويتدرب على ممارسة السلطة وعلى ترقية شئونه وتطوير حياته ، وهو في الوقت نفسه حلقة الاتصال والتفاعل بين الأهالي والحكومة» .

وكان المجلس دعامة لبرنامج التحديث الذى كان يحلم اسماعيل بتحقيقه وكان يطمح على المدى القريب أن يخلق فئات وطبقات مستنيرة يعتمد عليها .

ومرت مياه كثيرة تحت جسر مجلس شورى النواب ، وانزوى حينا واحتجب وصمت حينا ولكنه تشبث بالبقاء وحينما تفاقمت الأزمة وتعثرت الحلول عادت الروح واسترد اعتباره وهب ينفض الصدأ .

وعبرت جريدة الوطن عن عودة الروح قائلة :

«إن مجلس شورى النواب الذى ينعقد منذ سنين طويلة لم يحدث أن ناقش أى مسألة مالية أو داخلية مهمة وقد ضاق معظم النواب ذرعا

بذلك وهم يتساءلون كيف يمكن أن تدعى حكومة أنها مسئولة إذا لم تعترف لأعضاء مجلس النواب بحق مناقشتها ومحاسبتها، إن أعضاء المجلس جميعا يشكون مر الشكوى من موقف النظار إزاءهم ومن ازدرائهم للمجلس ، ويصرحون بأنهم طلبوا مرارا إلى المستر «ريفرز ويلسون» وزير المالية أن يحضر إلى المجلس ليناقش معهم المشاكل المالية ولكن كان يرفض فى كل مرة ولم يكن الوزير الفرنسى المسيو دى بلنير أفضل حالا ، وقد أرسل ذات يوم تقريرا إلى المجلس كانت بعض فقراته غير واضحة وحينما طلب المجلس حضوره لمناقشته اعتذر وطلب مهلة ثم ما لبث أن أرسل إلى ناظر الداخلية يقول : إنه يتمسك برأيه الوارد فى التقرير ولن يحضر وهذا أمر لا يمكن أن يحدث فى أى برلمان فى أوروبا» .

وبينما كان الجدل على أشده في أروقة المجلس وقاعاته والحوار ملتهب على صفحات الجرائد فوجئت البلاد بحدث طغى على كل شئ وفزعت له الحكومة والقناصل .

وشهدت شوارع القاهرة صباح يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٩ مظاهرة عسكرية حاشدة تضم ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش بأسلحتهم يتقدمهم عدد من أعضاء مجلس شورى النواب يشقون الطريق إلى ميدان لاظوغلى مقر الحكومة .

واجتمع المتظاهرون فى فناء المبنى وانتدبوا وفدا منهم ليقابل رئيس الوزراء ويشرح له تظلمهم من قرار صدر قبل أيام ويقضى بفصلهم

جميعا من خدمة الجيش بعد ما أمضوا ما بين ثمان واثنى عشر شهرا لا يتقاضون مرتباتهم .

وعاد الوفد ليبلغهم أن رئيس الوزراء ووزير المالية يرفضان مقابلتهم وأنهم يرون فى مظاهرتهم خروجا على النظام العام ويأمرونهم بالانصراف على الفور .

وثارت ثائرة الضباط واندفعت جموعهم إلى الداخل واقتحموا مكتب رئيس الوزراء وانهالوا عليه لكما وركلا ، وانطلق البعض يبحثون عن وزير المالية الإنجليزى لينال نفس الجزاء .

وتعالت الهتافات بسقوط الوزارة الأجنبية وسقوط رئيس الوزراء «نوبارستون» .

وسارع البعض إلى قصر عابدين القريب لابلاغ الخديوى الذى انطلق على الفور فى عربة مكشوفة وكتيبة من الحرس ثم صعد أعزلا إلى حيث كان الضباط على وشك الاجهاز على رئيس الوزراء ووزير المالية وانقذهما . ثم هدأ ثائرة الضباط ووقف فى الشرفة وألقى خطابا تعهد فيه ببحث المشكلة وتسوية المطالب . وطلب إليهم إجلاء المبنى والانصراف .

وتلكأ بعض الضباط فى تنفيذ الأمر وكانوا يحملون «طبنجات فى أيديهم» فعاد الخديوى إلى الشرفة وصاح فيهم :

– هل أنتم ضباطى .

وأجابوا جميعا :

- نعم .

- اذن انصرفوا إن الطاعة أول واجب على الضابط .

وأطاعوه .. وحسم الموقف : «وبدا وكأنه استرد كل سلطته وهيبته» .

وما أن عاد إلى القصر حتى أمر باستدعاء كل القناصل فورا ليعلن لهم أنه لن يستطيع أن يضمن الأمن والنظام فى البلاد طالما بقيت هذه الوزارة فى السلطة وأنه قرر إقالتها وعهد إلى ولى العهد الأمير محمد توفيق باشا بتولى الوزارة الجديدة .

ووصف القنصل الحادث بأنه أسوأ وأخطر ما حدث فى مصر فى القرن التاسع عشر .

وكان رئيس أركان حرب الجيش المصرى هو الجنرال ستون باشا الأمريكى الذى عقب على الحادث قائلا : «لم يكن فصل الضباط يهدف إلى توفير فى الميزانية كما ادعى ريفرز ويلسون ولكن هدفه كان تجريد الخديوى من أى قوة يمكن أن يحتمى بها أو بدافع عن استقلال مصر - وكانت مجرد بداية لتصفية الجيش عامة ثم الأسطول ثم إغلاق المدارس والمعاهد العسكرية بنفس الحجة ، وأن يتحول الجيش إلى قوة بوليس لحفظ الأمن لأن مصر فى رأيهم لا تحتاج إلى جيش» .

واهتزت البلاد للواقعة وكان أهم نتائجها (كشف الحادث للجندية عن قوتها ومن ذلك الحين أصبحت هى ومجلس النواب يمثلان أعمدة المعارضة) .

وأوفى الخديوى بما تعهد وأعيد الضباط جميعا إلى الخدمة ولم يمس أحد منهم بأذى وسارع وزير المالية ريفرز ويلسون بعقد قرض عاجل من بنك روتشيلد سدد به كل رواتبهم ومتأخراتهم .

واحتفالا بما حدث أقام الخديوى حفلا فاخرا بالقصر دعا إليه كل ضباط الجيش المصرى من رتبة البكباشى وطاف بهم وصافحهم جميعا وتلطف معهم فى الحديث وأكد أنه «لن يهدأ حتى تتحقق كل مطالب الجندية» .

وعزز الخديوى حسن نواياه بأن رد اعتبار عدد من كبار الضباط «الفلاحين» الذين استبعدهم واضطهدهم من قبل وفى مقدمتهم القائمقام أحمد عرابى الذى عينه ياورا فى المعية وقائدا للفرقة الرابعة مشاه (٤ جى بيادة) ، واللواء على الروبى الذى عينه ياورا فى المعية ورئيس مجلس المنصورة، واللواء محمد النادى الذى عينه ياورا فى المعية مع قيادة الفرقة الثانية مشاة (٢ جى بيادة) .

وكان اسماعيل قد الصق بهم وصفا بأنهم (بتوع سعيد باشا) ورد عرابى بأنهم «بتوع مصر» ولم يغفر له من البداية حتى النهاية !!.

ولم تعترف الدولتان «العظميان» بكل ما حدث ونددت به وأعلنت فى مذكرة شديدة اللهجة (أن إقالة وزارة نوبار باشا تعنى العودة إلى السلطة المطلقة واسترداد الخديوى لطغيانه واستبداده القديم وإطاحته بأول حكومة مسئولة تتولى السلطة فى البلاد) .

واستفزت المذكرة القنصل الامريكى «فارمان» وبعث إلى واشنطن برسالة تعقيبا عليها (لاشئ يبعث على الهزؤ والزراية مثل هذه المذكرة وتباكيها على حكومة نوبار ووصفها بأنها كانت دستورية مسئولة وأول حكومة مسئولة تعرفها مصر، وأقل ما يسمى به ذلك هو ألفحش والفجور الصارخ كانت حكومة أقامها الأجانب بالأجانب وللأجانب ولم تكن تكترث بأحد سواهم ومع ذلك لم تتورع بريطانيا بأن تصفها «الماجناكارتا المصرية» وليس هناك زيف ونفاق وافتراء على الحقيقة يفوق ذلك .

ولم يكترث الخديوى بمذكرة الدولتين وقد أصبح واثقا أن هناك من يحتمى به فى المواجهة ولم تلبث أن أسعفته الظروف بالحدث الثالث .. والذى تجاوز كل الاحداث .

كانت الدورة البرلمانية تنفض عادة فى شهر مارس من كل عام . وكان وزير الداخلية أو رئيس الوزراء يذهب وفق طقوس تقليدية ليشكر النواب على ما قاموا به ويعلن فض الدورة وينصرف الجميع بسلام إلى قراهم ودوائرهم حتى يلتقوا فى الدورة القادمة .

وفى هذه المرة ذهب نائب رئيس الوزراء رياض باشا وتلا خطاب فض الدورة وشكر النواب على كل ما بذلوه من جهد وعناء، ولم يكمل خطابه لأن زعيم المعارضة فى المجلس هب خلافا للأصول واعترض معلنا «أن مجلس النواب خلال دورته الحالية لم يفعل شيئا ذا قيمة، ولم

يكن ذلك بسبب منه ولكن بسبب الحكومة وإصرار وزير المالية البريطانى ووزير الاشغال الفرنسى على رفض الحضور إلى المجلس والرد على أسئلة واستجوابات النواب، وهو الأمر الذى يبطل شرعية بقائهم فى السلطة باسم حكومة دستورية مسئولة» .

«ولهذه الأسباب فإن المجلس سوف يظل منعقدا حتى ينظر فى كل المسائل التى يرى أن من حقه النظر فيها» .

وتعاقب الاعضاء على المنبر يؤكد كل منهم ما أعلنه زعيم المعارضة فى جلسة عاصفة وارتبك نائب رئيس الوزراء الرجل الصارم، قوى الشكيمة الذى لم يكترث يوما بالمجلس أو «الشورى» .

وسرت الانباء فى الداخل والخارج وتناقلته الوكالات ، وطيره القناصل إلى حكوماتهم وعكف المراسلون الاجانب على تفسيره وتقييمه .

قال مراسل التايمس البريطانية :

«فوجىء الرأى العام فى مصر بتحول مجلس شورى النواب إلى برلمان حقيقى خلال هذه الدورة، وأنه يصر على أن يمارس حقوقه وسلطاته كاملة ويرفض أى قيد عليها أو تنازل عن مستحقاتها بل يتشبث بكونه الممثل الشرعى للشعب والمنوط به الدفاع عن حقوقه . وقد أثار ذلك أشد القلق لدى الحكومة ورأت تداركا للخطر قبل وقوعه أن تواجهه مبكرة واستصدرت مرسوما بفض الدورة، وذهب رياض باشا نائب رئيس النظار ورجل الحكومة القوى والذى لم يكن فى أى يوم من

الأيام من المتعاطفين مع المجلس يحمل المرسوم بفض الدورة .. وألقى خطابا رقيقا امتدح فيه المجلس وأشاد بخدماته وجهوده وأعلن للأعضاء أنهم أدوا واجبهم على الوجه الأكمل وأن الوقت حان لكى يستريحوا من عناء العمل .

«وفوجىء رياض ولا ريب أنه لم يصدق عينيه وأذنيه حين وقف عضو بالمجلس منفعلا ليعلن باسم الأعضاء جميعا رفض مرسوم فض الدورة، وأن الاعضاء على عكس ما يقول لم يفعلوا شيئا ولم يقوموا بأى عمل أو واجب مما يفترض أن يفعلوه، وأن مهمة المجلس الأولى والأخيرة هى محاسبة الحكومة والرقابة على أعمالها ولكن شيئا من ذلك لم يحدث على الإطلاق» .

«وتتابع الأعضاء على المنصة ليعلن كل منهم تلو الآخر إجماعهم على رفض القرار واستمرار المجلس، وضرورة أن يخضع كل النظار مصريين وأجانب لرقابة المجلس وأن يكونوا مسئولين أمامه مسئولية كاملة وأن على الحكومة أن تلتزم بأن تكون حكومة ديمقراطية حقيقية وليست مجرد شكل، وقال أحدهم: إن مهمة المجلس لم يتحقق منها شئ لسبب واحد هو أن الحكومة لا تعترف بالمجلس ولا تحترمه، ولهذا قرر الأعضاء أن يعتصموا فى المجلس وأن يظلوا فى حالة انعقاد حتى تتحقق كل مطالبهم» .

واختتم مراسل التايمس رسالته: «لم يستطع رياض باشا أن يقوم بدور كرومويل في مجلس العموم : وبذلك أمكن لزعيم المعارضة أن يقوم بدور ميرابو في ملعب التنس» .

وأدركت الدولتان مغزى ما يحدث - وأنه شرار يتطاير من بركان على وشك الانفجار.

وتسربت الأنباء بأن وزير المالية السير ريفرز ويلسون يعد في تكتم شديد مشروعا سوف يفاجئ به الحكومة ويضعها أمام الأمر الواقع ويحل به كل المشكلات وهو إعلان إفلاس مصر وسوف يهلل له الدائنون وحملة السندات الذين طالبوا به منذ البداية .

وسرى النبأ واستفز آخر قطرة دم في الجميع من الخديوى إلى أعضاء المجلس إلى «عموم أهل البلاد».

كانت ضربة موجعة تعني تقويض مكانة مصر وكل ما كافحت من أجله لتحتل مكاناً تحت الشمس ، وكان يعني الإجهاز على سيادتها وقطع الطريق على كل مشاريع الإصلاح . سوف توضع المالية المصرية كاملة تحت تصرف الدول والتي سوف تقوم بدور «السنديك» المصفي، سوف تتحول مصر إلى شركة مفلسة يتحكم في مصيرها الدائنون .

وهبت الصحف الوطنية تفضح المشروع وتندد به وكتبت «مرآة الشرق» :

«مهد فتح قناة السويس طريقا قويما للدول الأوروبية تسللت فيه إلى البلاد الأسيوية، وكان ذلك أقوى منبها لأنظارها ومحركاً لها إلى التطلع

لتملك تلك الاقطار، وهم يعلمون أن القطر المصرى ووادى النيل هو السبيل الوحيد للتغلغل فى كبد تلك البلاد، ولو قامت فيها حكومة وطنية وضعفت فيه الهيمنة الأجنبية لتعسر عليهم حينئذ نيل هذا القصد الذى لازال نصب أعينهم جميعاً بل ربما ساقهم أهل البلاد المصرية إلى نيله، ومن ثم رأت الدول أن لا فائدة من اللجاج فإن ذلك يمكن الحزب الوطنى من إجراء الاصلاحات فى البلاد ولم شعثها فعمدوا إلى مقاومة مشروعاتنا ومعارضة استقلالنا.

ونشر المستر دايسى أشهر دعاة الاستعمار كتاباً بعنوان «الطريق إلى الهند» قال فيه: «إن هذه هى أفضل الفرص التى يجب ألاّ نضيعها فى الاستيلاء على مصر ، وأن فرنسا والمانيا منشغلتان ببعضهما منذ حرب السبعين وفرنسا فى أضعف فترات حياتها ، ولا يمكن أن تقف أمامنا» .

وسرت دعوة تلقائية جماعية لإنقاذ الوطن بين كل الطبقات والفئات وانعقد يوم ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ أكبر اجتماع وطنى عقد حتى ذلك التاريخ ، وضم صفوة الساسة والقادة والعلماء والتجار وأهل الفكر والرأى ويتصدره الرؤساء الروحانيون الثلاثة الذين أصبحوا فى طليعة الحركة الوطنية رمزا لوحدة الأمة ، وتم الاجتماع فى منزل الشيخ البكرى شيخ الطرق الصوفية وتم استعراض الموقف وبحث المشكلات بحثا مستفيضا ، انتهى الرأى إلى برنامج انقاذ تقوم بوضعه ثلاث لجان مختارة .

لجنة سياسية:

برئاسة محمد شريف باشا لوضع دستور وقانون انتخاب جديد يؤكد سلطة الأمة وأهليتها وحقوقها المشروعة.

لجنة اقتصادية:

برئاسة راغب باشا لوضع مشروع وطنى لسداد الديون كاملة اعتمادا على الموارد الذاتية.

لجنة عسكرية:

برئاسة شاهين باشا لوضع خطة دفاع محكمة لإعلان التعبئة وإعداد البلاد لصد التدخل الأجنبى إذا ما وقع .

وتقرر أن يحمل مندوبون عن اجتماع ٥ ابريل المشاريع الثلاثة إلى الخديوى وأن يطلب إليه التصديق عليها والالتزام بها ، وأنه إذا ما رفض أو اعتذر يعلن عزله وتتولى «سلطة وطنية» وضعها موضع التنفيذ.

ووصلت الأخبار إلى الخديوى الذى لم يكن يفتقد العيون والارصاد وأراد أن يسبق ويأخذ المبادرة ، وسارع إلى إصدار بيان أعلن فيه :

« لقد سعيت دائماً لأن أحكم بواسطة حكومة دستورية ومجلس وزراء مسئول أمام برلمان منتخب ومازلت أرفض أى فكرة ترمى إلى العودة إلى الوراء وإلى نظام الحكم الفردى . وقد أقبل أن تكون هناك رقابة أوروبية على المالية المصرية ولكن بشرط أن تظل مالية البلاد فى أيد وطنية» .

وتأكيداً لعزم الأمة وتصميمها أعلن المجتمعون فى بيت السيد البكرى عن فتح اكتتاب لسداد قسط الديون والفوائد المستحقة فى مايو وقدره مليون ومائتا ألف جنيه استرلينى وتسابق الجميع على التبرع حتى استوفى المبلغ. وحدد الخديوى يوم ٧ ابريل لاستقبال الوفد «الوطنى» ووجد الأعضاء لدى وصولهم بأن الخديوى دعا حشدا ضخما من الامراء والذوات والاعيان وأعضاء مجلس شورى النواب ، كان أكبر حشد اجتمع من قبل فى القاعة الكبرى فى السراى ... كما فوجىء الوفد بأن الخديوى دعا كل القناصل أيضاً بلا استثناء.

وبعث القنصل البريطانى وصفا شاملا إلى وزير الخارجية فى لندن قال :

ذهبت فى الساعة الخامسة بعد الظهر إلى القصر استجابة لدعوة من سمو الخديوى وفوجئت لدى وصولى أن وجدت عدداً كبيراً من القناصل هناك ، وبعد أن رحب بى الخديوى تنحى بى جانباً ، وكانت علامات الجد والاهتمام الشديد بادية، وبدأ معى الحديث قائلاً: إن السخط يسود البلاد ويتعاظم كل يوم وإذا ما ترك وظلت الأمور على ماهى عليه سوف يؤدى إلى نتائج خطيرة، وطلب إلىّ أن اتحقق بنفسى من ذلك ومن كل ما يجرى ويدور وألاّ أكتفى بما يبلغ إلىّ من تقارير، وألح على ذلك حتى أتبين مدى مشاعر الناس وأتأكد بنفسى أنه لا يبالغ فى تقدير خطورة الموقف».

ولم يلبث عدد القناصل أن اكتمل وازدحمت القاعة ازدحاماً شديداً بالمدعوين، وحينئذ دعا الخديوى إلى الانتقال للقاعة الكبرى ووجدت فيها شريف باشا وراغب باشا وشاهين باشا والشيخ البكرى وجمع غفير ينتظر سموه.

ووقف الخديوى وألقى خطابا قال فيه :

إن السخط يعم البلاد ووصلت الأمور إلى الحد الذى أصبح يتعين علىّ أن أقوم بواجبى فى رفع الشدة عن الناس وذلك لا يتحقق إلا بإجراءات حاسمة . وقد تقدم لى مشروع أجمعت عليه الأمة بكل طبقاتها وفئاتها ويعبر عن المطالب الرئيسية للبلاد . وينص هذا المشروع فى أساسه وجوهره على الاحتجاج والرفض التام لإعلان إفلاس البلاد الذى تقدم به المستر ويلسون وزير المالية.

ولهذا قررت إعفاء الوزارة الحالية وأن تقوم وزارة مصرية بحتة تكون مسئولة مسئولية حقيقية أمام مجلس نواب ينتخب انتخابا حراً . وفق قانون انتخاب جديد ، وقد استجاب الأمير محمد توفيق وقدم إلىّ استقالته وعهدت إلى محمد شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة.

واختتم سمو الخديوى خطابه قائلاً : «طلبت إلى عدد كبير من أبرز الشخصيات فى البلاد أن يشهدوا هذا الاجتماع لكى يعطوا للقناصل أى معلومات يمكن أن يطلبوها منهم وليجيبوا عن أى استفسارات يريدون توجيهها حول حقيقة مشاعر الأمة الآن.

وساد صمت تام بعد أن انتهى الخديوى من خطابه ، وقطعه القنصل الألماني قائلاً :

لعل شريف باشا يرى أن يضيف شيئاً ووقف شريف باشا على الفور وقال:

لا محل للشك فى أن السخط يعم البلاد ويبلغ أقصى مداه لسبب أساسى هو المعاملة التى يلقاها أعضاء مجلس شورى النواب ، وآخرها فض دورة المجلس بغير استشارة الأعضاء والذى رأت فيه الأمة إهانة بالغة لا مثيل لها . وقد تعاظم السخط وبلغت وطأة الألم أقصى حد حينما تقدم المستر ويلسون بمشروعه لإعلان إفلاس البلاد، وهو ما تعده الأمة أقسى وصمة عار يمكن أن تلحق بها . وقد أجمعت الأمة وصممت على ألاّ يحدث ذلك مهما كانت التضحية والجهد، ولم يطلب المستر ويلسون إعلان إفلاس البلاد فحسب ولكنه طلب أيضاً إلغاء دين المقابلة مما يؤكد التحيز ضد الدين الوطني، ويضاعف بالطبع من أسباب السخط.

(وقد أصبح مستحيلا على سمو الخديوى أن يتجاهل مشاعر الأمة أو أن يقف فى وجه مشاريعها بل لم يعد لسموه أى خيار سوى الاستجابة لإرادة الشعب والعمل على رفع الغبن والمعاناة وإذا لم يتم ذلك فلابد وأن تنتهى البلاد إلى الكارثة) .

وحينما انتهى شريف باشا من خطابه وقف قنصل النمسا ووجه الحديث إلى الخديوى وسأله هل الموقعون على هذه المطالب على

استعداد لرهن ممتلكاتهم ووضعها فى خدمة المشروع ضماناً له؟ وأجاب سموه قائلاً ليس هناك ضرورة لذلك لأن هناك ضمانة أقوى وهى الأمة بأكملها، وقد أجمعت بدءا من الخديوى حتى أبسط فلاح على أن تبذل أى تضحية ولا تلوث شرف البلاد أو تهدر كرامتها بإعلان الافلاس .

وسأل قنصل روسيا الخديوى هل ينوى أن يعرض المشروع على لجنة التحقيق الدولية ؟ وأجاب سموه أنه سوف يرسل لهم نسخة منه وسأل قنصل إيطاليا : هل المشروع مجرد اقتراحات سوف ترسل للدول لكى تناقشها أم أنه مشروع بالفعل.

وأجاب الخديو بلا تردد :

- إن المشروع جاهز للتنفيذ فوراً .

وأنصرفت مع باقى القناصل ولم يختلف أى واحد منا حول خطورة ما حدث وأنه أخطر من أن يتم السكوت عليه .

وحاولت مع القنصل الفرنسى العثور على المستر ويلسون وزير المالية أو المستر دى بلنير وزير الاشغال الفرنسى فلم نستطع .. واتصلنا بالأمير محمد توفيق وفوجئنا أنه يفسر استقالته قائلاً إنه منذ تولى المنصب ظل مستبعداً معزولا تحجب عنه أهم المعلومات، وأنه كان فى ظلام تام حول كل الامور ولم يحدث أن استشاره أحد أو أخذ رأيه حول أى موضوع من المواضيع الهامة فى أى من الوزارات، وأنه قرر ألاّ يقبل أن يظل فى هذه المكانة المزرية .. وكان تفسيرا يختلف مع رأى والده .

وأخيراً عثرنا على المستر ويلسون والمسيو دى بلنير وسألتاهما عن رأيهما فيما حدث وعن موقفهما إزاءه، واتفقنا فى الرأى على أن ما حدث هو انقلاب صريح وأن الخديوى استعاد سلطاته المطلقة وسوف يعود لممارستها» .

وكانت أنباء مصر وأخبارها تتوالى وتحتل صفحات رئيسية فى صحف أوروبا ولكن فاق الخبر كل ما سبق ونشرت صحيفة التايمس فى صدر صفحاتها الأولى بعناوين ضخمة (انقلاب فى مصر الحزب الوطنى يستولى على السلطة).

وكان الخديوى يدرك تماماً أنه قد رمى القفاز فى وجه الدولتين وأن عليه أن يظل ممسكا بالمبادرة . وفى اليوم التالى أرسل خطاب التكليف إلى شريف باشا وقرر أن يكون وثيقة «للتاريخ» :

«صاحب الدولة شريف باشا .

بصفتى رئيساً للدولة وبصفتى مصرى أعتبر أنه واجبى المقدس أن أنزل على ارادة الشعب وأن أحقق أمانيه المشروعة ، وأمام المطالب الملحة التى تقدمتم بها إلىّ فإننى أعهد اليك بتشكيل الحكومة وأن تتألف من شخصيات مصرية وطنية بحتة ، وأن يكون رائدها الاصلاح الشامل الذى عبرت عنه الأمة ، وأن يتحقق كاملا وبكل دقة وعناية وأن تتوطد أركانه وتثبت دعائمه باقرار المسئولية الوزارية الحقيقية أمام المجلس النيابى الذى سوف يتم انتخابه، وتقرر حقوقه على النحو الذى يكفل مقتضيات الحالة الداخلية وتحقيق الامانى الوطنية وسيكون أول مهام

الحكومة الجديدة اصدار قوانين وتشريعات على نمط القوانين المماثلة والمعمول بها فى أوروبا مع مراعاة عادات الشعب وحاجاته .

ولاشك عندى أن دولتكم مع من يحيط بكم من الرجال المتمتعين مثلكم بثقة الأمة وتقديرها ستبلغون الغاية المنشودة من الاصلاح الاجتماعي الذى أرجو أن يقترن به اسمى .

وعكفت الحكومة على العمل واستبسلت فى الجهد.

وبعد اسبوعين كتبت التايمس البريطانية تحليلا وتقدير موقف قالت فيه :

لازال الحزب الوطنى الذى استولى على السلطة فى انقلاب ٧ ابريل يثير دهشة الجميع بحيويته وفعاليته، وفى البدء اعتقد كثيرون أن أيامه معدودة ولكن إزاء روح المسئولية والجهد المتصل الذى يبديه كل الوزراء فان تقدير الناس واحترامهم يتصاعد ويتضاعف وقد زاد منه السرعة الفائقة التى تم بها الاكتتاب لسداد قسط الدين» .

ونشرت صحيفة الوطن :

(بلغنا أن اللجنة الوطنية المشكلة تحت رئاسة سعادة إسماعيل باشا أبو جبل لجمع ما ينبغى من الأموال لتسوية الديون التى قد جمعت لذلك، مقدار لا يستهان به) .

(وقد استقر الرأى على أن تقوم الحكومة ببيع جميع السرايات التى لا حاجة لها وأن تجتمع النظارات والدواوين فى اثنين أو ثلاث منها

وكذلك بيع ما لا فائدة منه من البواخر والآلات البحرية فى السويس والأسكندرية وبولاق .

وتقدم إلى اللجنة العديد من البيت الخديوى مستعدين أن يجودوا بما بقى لهم من العقار وأسباب للزينة لتقوى الحكومة على وعودها) .

وعاد القنصل البريطانى اللورد فيفيان وكان معروفا بتعاطفه مع «الحزب الوطنى» وكتب فى أول رسائله :

«ليس من الحكمة فى شىء ولا من حسن السياسة الوقوف ضد هذه الحكومة أو الإصرار على عودة الوزيرين الأوروبيين، وأننى أؤكد ذلك وأصر عليه وأرى أن لا يحدث ضغط، ولابد من أن تترك الفرصة الكاملة والعادلة لهذه الحكومة لكى تعمل وتنشط ويمكن أن تكون لنا رقابة مالية ولكن بغير تدخل فى الشئون الداخلية وأن نكتفى بالترشيد والمشورة ونقد الأخطاء» .

(وقد أكد راغب باشا ما اشتهر عنه من الكفاءة والحيوية الخارقة وهو يؤدى عمله فى وزارة المالية بهمة وحماس ولا يؤجل أو يتهرب من أى مشكلة وذلك رغم مرضه وكبر سنه) .

***

تفانت الوزارة فى العمل وانتهى شريف باشا من إعداد الدستور وقانون الانتخاب واستكمل شاهين باشا خطط إعادة بناء الجيش والاسطول واستراتيجية للدفاع ووضع راغب باشا اللمسات الأخيرة للمشروع الوطنى لسداد الديون.

وعقد مجلس شورى النواب جلسة خاصة ١٧ يناير لمناقشة مشروع الدستور وقانون الانتخاب واختار المجلس لجنة برئاسة عبد السلام المويلحي لبحثها وإعادة المناقشة في جلسة تالية .

وقدم المويلحي ملاحظات اللجنة وتعديلاتها وكان معظمها خاص بتحديد حقوق الخديوى وسلطانه وأعيد طرح المشروعات وأعيدا إلى مجلس الوزراء لكي يصدق عليهما الخديو ويبدأ العمل بهما .

وعلقت جريدة التايمس مرة أخرى :

ترسى هذه التشريعات أساساً راسخاً وتقدم أفضل ما يمكن أن تتوطد به الحياة الدستورية وما يتحقق به كل ما تأمل منه البلاد من أمان ورخاء وقد أصبح على الخديوى الآن أن يواجه حزبا وطنيا في السلطة يدعمه إجماع من الباشوات والضباط والعلماء على هدف واحد هو أن مصر تستطيع أن تحكم نفسها وأن البرلمان يجب أن يكون السلطة العليا» .

وبعث القنصل لورد فيفان رسالة يقول فيها:

«لابد من أن نمنح أقصى قدر من الثقة لحكومة شريف التى أثبتت أنها تريد العمل بهمة وكفاءة للاصلاح العام وتسوية الديون وقد استطاعت بشجاعة ومقدرة فائقة أن توفى بكل التزاماتها المالية وفق الخطة التي وضعتها وقد وفرت كل المبالغ فى أقصر مدة وهو ما لم تستطع أن تفعله أى حكومة قبلها ويساعدها فى ذلك قدرتها على جمع الاكتتاب من أعضاء حزبها الوطنى» .

وفى يوم ١٧ مايو تقدم شاهين باشا بمشروعه الاستراتيجى ويتضمن زيادة الجيش إلى ستين ألفاً وإعادة كل الضباط الذين أحيلوا إلى الاستيداع وإعادة فتح كل المدارس العسكرية التى أغلقت وتضمنت خطة الدفاع إغلاق موانىء البحر الأبيض وردم قناة السويس وإغراق الأراضى وراء البحر الأبيض واستنفار الأمة للمقاومة كما تقرر أن تبدأ المناورات التى لم تحدث منذ حرب الحبشة.

وفى يوم ١٥ يونيه تم التصديق على مشروع الدستور وقانون الانتخاب .

واحتوى الدستور الجديد وقانون الانتخاب على أفضل قواعد الشورى وإحكام الحرية وقد قسمت البلاد إلى ١٢٠ دائرة انتخابية منها عشرون دائرة للسودان، وتقرر مبدأ الحصانة البرلمانية ومبدأ عدم تنفيذ القوانين واللوائح قبل التصديق عليها من النواب ومبدأ مسئولية الوزراء الكاملة أمام المجلس، واقترح بعض النواب قانون محاكمة النظار مع حق النواب فى مناقشة ومراقبة وإقرار الايرادات والمصروفات والضرائب وطرق جبايتها.

وفوجىء الخديوى بالقنصل الفرنسى يطلب مقابلة عاجلة ليسلمه رسالة باسم الدولتين .. جاء فيها :

«يجب ألاّ يخالجكم أى شك فى أن إقالة الوزارة وإقصاء الوزيرين الأوروبيين أمر مرفوض تماماً من قبل الدولتين وإذا ما أصررتم على ذلك

فإن النتيجة المحتومة سوف تكون عزلكم وخلعكم ونفيكم من مصر .. ولا مفر من أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه فوراً » .

ورفض الخديوى الرسالة والإنذار .

وتقرر أن يقوم القناصل بمظاهرة إرهاب ترغم الخديوى على إلغاء كل ما تم .

«اتفق القناصل على أن يطلبوا من الجناب العالى إعادة الوزيرين الاجنبيين أو يخرجوا من القطر مجاهرين بقطع العلائق ، وبعبارة ثانية إنهم أنذروا حكومتنا إنذاراً فجائيا، وأنبأنى من يوثق به ويعول عليه أنه سمع من فم الجناب الخديوى المعظم أن المشكل عظيم ولكنه لا يملك ابطال لائحة الأمة . وعلمت أن القناصل ينتظرون ورود الجواب إليهم ويعودون إلى بلادهم وقطع علائق المودة . ولذلك نرى على أوجه نبهائنا وعظمائنا علائم الكآبة ودلائل الحيرة والارتباك شأن من يشعر بالظلم واقعا عليه ولا يستطيع دفعه ، ولكن أملنا فى الجناب الخديوى ورجال حكومتنا السنية أن يوفقوا إلى قطع العقبات وإزالة المصاعب ليعود إلينا ما فقدناه من راحة البال» .كما كتب أديب اسحاق .

وأضاف :

«حينما فزعنا إلى الرفعة ونشطنا من عقال العبودية وتضافرنا على استرجاع ما سلبناه أنكر علينا ذلك سادتنا الأوروبيون ظنا منهم أننا لا ندرك معنى هذا الحق الظاهر وأننا من القصر وهم بمنزلة

الأوصياء وبعثوا إلينا برسلهم ينذرون بالعذاب ويتوعدون بالعقاب ، وكان أن أتى جناب المسيو تريكو قنصل فرنسا الجنرال برسالة تبين لنا نبأها العظيم وهو أن دولتى فرنسا وبريطانيا ترغبان إلي الجناب العالى أن يتنازل لولى عهده ، ولا نرى لهذا المطلب سببا ولا لحصوله من أثر نافع فإن ما ألم بالحكومة من النوازل والمشاكل لم ينشأ من صعوبة الأحوال وارتباك الأمور ولا يتعلق بشخص بالذات ليرجى تغير الحال بمجرد تغيره ، وإنما يؤمل ذلك بالسعي فى إقامة الامور على قواعد الانتظام والأخذ بأسباب الاصلاح وهو عين ما يهتم به الجناب الخديوى بل هو الأمر الذى يعز على غيره ويمتنع وبالتالى إن ذلك الأمر لم يطلب على صورة الرأى والنصيحة وانما على صيغة الأمر والحتم رجاء أن يؤخذ الباب العالى بالرهبة» .

ورد الخديوى على القنصل الفرنسى بأنه تابع للباب العالى لا يصدر إلا عن رأيه ولا يقوم إلا بأمره .

واختتم أديب اسحاق مقاله :

«نحن ننبه القنصلين إلى أن الدولتين لن تجعلا من أهل هذا البلد أرقاء تطلب منهم ولا تعترف لهم بالحقوق . إن شعلة الحرية إذا سرت فى خواطر الامم فلابد أن يمتد طريقها امتدادا لا سبيل إلى اطفائه» .

وتوالت الاجتماعات ويتوافد على السراى الذوات والوجهاء والعلماء والأعيان للمباحثة فى الأحوال الجارية . اجتمع النظار فى سراى عابدين حتى الرابعة صباحاً.

ولم يلبث «النبأ العظيم» أن جاء وكان له وقع الصاعقة .

وكتب أديب اسحاق :

«ختم شهر يونيه بنبأ عظيم وحادث خطير سيكون له فى التاريخ شأن مهم وفى حال القطر المصرى تأثير عظيم فقد أنبأنا تلغراف رويتر أن الأمير العظيم والملك السعيد والذى انشغلت بأنبائه ممالك الغرب ذما وثناء ولوما نحو سبعة عشر عاماً ، والذى جمع فى قطره الصغير ملوك العالم المتمدن المنير والذى قال فيه عظيم فى منتدى أولئك الملوك وحين فتح القناة «هذا هو الرجل العظيم الذى فاق كل من سلف من ملوك مصر، وإن كنتم فى شك مما أقول أنظروا إلى هذه القناة».

كتب جون تينيه :

«رأت الدولتان ضرورة التعجيل بالقضاء على التجربة بدلا من تشجيعها والوثوق بها ، واعتبرت الدولتان أن قيام اسماعيل بالاشتراك مع نواب الأمة فى وضع نظام دستورى صحيح وخطة مالية دقيقة تضمن سداد الديون ، اعتبرتا ذلك إهانة لا يمكن السكوت عليها لأنها سوف تقضى على نفوذها فى مصر وتجهض مشاريعها ».

وفى اسطنبول لم يجد فخامة اللورد وفرين السفير البريطانى عناء كبيرا فى استصدار فرمان من السلطان بعزل خديوى مصر إسماعيل وتولية ابنه توفيق .

كان النفوذ البريطانى فى الدولة العلية فى أوجه ذلك بعدما أوقف التدخل البريطانى الزحف الروسى نحو العاصمة الامبراطورية.

وكان السلطان قد بطش بمدحت باشا زعيم الاصلاح والدستور فى الامبراطورية .

ولم يكن ليسمح بقيام ثورة دستورية في مصر أهم الولايات وأعظمها تأثيراً فى العالم الإسلامى عامة .

واستقبل إسماعيل قرار العزل فى هدوء وسكينة . وهنأ ولى العهد وسلمه مقاليد السلطة.

وودعته مصر الوداع اللائق به، غفرت له كل أخطائه وذنوبه ، وذكرت كل أمجاده وانتصاراته .

(كان أمس من أيام مصرٍ المعدودات ازدحمت فى صبيحته العربات والاقدام على أبواب السراى للتوديع وتواردت مواكب الذوات والوجهاء والنبهاء والعلماء لوداع الأمير السابق ويحاولون تبريد الألم بما يبثون من عواطف الاسف ويظهرون من علائم الود .

ولما كانت الساعة العاشرة والنصف أقبل الجناب الخديوى لتوديع والده الكريم ، وعند الحادية عشرة خرج أميرنا السابق متوكأ على توفيقه العظيم وصعد إلى العربة وجلس خديونا السابق على يساره .

وركب من بعده الاميران الجليلان دولتلو حسن باشا ودولتلو حسين باشا ثم الوزراء والذوات والعلماء والوجوه والأعيان.

وكانت العساكر مصفوفة على الجانبين مسلمة على أميرها السابق والموسيقى العسكرية تصدح ألحان الوداع حتى وصل الموكب إلى المحطة ووقف الجناب العالى مودعا والده وعيناه مغرورقتان بالدموع

وضمه إليه متأثرا صدق عواطفه وصاح ذلك الموقف خاطره فوقف والقى خطابا بالتركية مودعا مؤثرا .

وكان من أشد المناظر حزنا منظر الخدم والجوارى مودعين سيدهم وسيداتهم بدموع مزجت بدماء القلوب ويرفعون بالبكاء حتى انقبضت الصدور حزنا وغما . وانكمدت النفوس أسفا) .

الفصل الثانى

الخديوى توفيق

تأخر وصول الفرمان بتولية الخديوى الجديد، وساد بعض القلق ولم يعرف أحد أن بقايا الدستوريين والاصلاحيين فى حاشية السلطان، استبسلوا فى معركة للعدول عن تولية توفيق، واستبداله بأمير آخر كان يعيش منفيا فى اسطنبول هو الأمير إبراهيم حليم.

وفشلت المساعى وتمسك اللورد دوفرين السفير البريطانى بولى العهد محمد توفيق ، وأيده السلطان الذى لم يكن يرفض له طلبا، وتمسك اللورد أيضا بأن يرث كل المزايا والمكاسب التى حصل عليها والده. ولم يستثن سوى مزية واحدة تتعلق بالجيش ، وأن يعود إلى ما نصت عليه معاهدة لندن ١٨٤٠ أى لايزيد عدده على ثمانية عشر ألفاً وقد استرعى هذا الاستثناء نظر الوطنيين فى مصر وأدركوا مغزاه.

ووصل الفرمان فى النهاية وأقيمت الافراح أربعين ليلة إلا ليلة كما تقضى التقاليد وكان الرأى السائد عن ولى العهد مغايرا.

أنه منحاز للوطنيين، وأنه صديق حميم لأبى الوطنية والدستور محمد شريف باشا، ويحتذى به ويتعلم منه ، كما كان تلميذا ملازما للاستاذ «جمال الدين الافغانى» .

وقد امتدحه الاستاذ وزكاه للقنصل الفرنسي «البارون دى ربنج» نصير الوطنيين وأنه يوم تؤول إليه السلطة سوف يكون خيرا على البلاد ولن يكرر أخطاء أبيه .. وأقنع شريف باشا أن يذهب خلال تفاقم الأزمة ليشير على الخديوى الاب بأن يتنازل طواعية عن العرش لابنه المخلص ويتفادى ارغام الدولتين له على التنازل .

وطمأن الخديوى الجديد الأمة ببيان مفصل نشره موجها إلى رئيس الوزراء شريف باشا جاء فيه :

إن العناية الألهية سلمت زمام الحكومة المصرية إلى يدنا فضلا منها وإحسانا وهذه نعمة لا يؤدى شكرها إلاّ بحسن القيام بأداء وظائف ذلك المقام.

إن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية وأن يكون نظارها مسئولين، وقد أتخذت هذه القاعدة مسلكا لا تحول عنه وعلينا تأييد مجلس شورى النواب وتوسيع لوائحه ليكون له الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الامور المتعلقة بها وبحسب مقتضيات الاحوال وإنى معتقد فى مأمورى الحكومة المصرية الصدق والاستقامة ومؤمل أن يسيروا فى المستقبل بالسيرة المرضية، ويعرفون أن معظم الغنى غنى النفس وأعلى الشرف شرف العفة وأثمن الحلى حلي الاستقامة وأقوم الطرق طريق الحق والعدالة.

وعكف رئيس الوزراء واثقا متفائلا على إجراء التعديلات الطفيفة على المشاريع التى كانت على وشك التصديق والنفاذ.

وعززت الصحافة تفاؤل الناس :

«علمنا علم اليقين أن اللائحة السياسية والانتخابية (الدستور وقانون الانتخاب) تقررتا فى مجلس النظار بعد تعديل لا يغير شيئا من مقاصدها النبيلة ، وأنها رفعت إلى الحضرة السنية ليتشرف بالتصديق عليها» .

ومضى بعض الوقت ولم يعلن شىء وخرجت «الريفورم» وكانت وثيقة المصادر ولا تنقصها الجرأة .

«يبدو أن اتجاه الحكومة إلى تحقيق الديمقراطية يثير الدوائر الأجنبية ولا يرضيها وأنها أخذت تدبر المؤامرات والمناورات لكى يبطل المشروع وتعرقل السير فيه.

وتكره هذه الدوائر كراهية التحريم ان يتحرر المصرى المستعبد وأن يصبح مواطنا مستقلا وأن يعرف حقوقه ويطالب بها ويدرك واجباته ويلتزم بها .. ولكننا لانزال نأمل فى همة الخديوى المعظم، وأنه لن يتراجع ولن يحرم البلاد من الحقوق التى تطالب بها ومن الأمانى الدستورية التى استكملت لوائحها والتى تحتمى بها أمة من مصائب ونواب تدخل الأجانب» .

وطال الانتظار ولم يوقع الخديوى المشاريع المقدمة وضاق رئيس الوزراء ذرعا بالموقف وطالبه بتفسير وإيضاح وفوجىء به يصارحه بلا

حرج أنه اكتشف «أن الأمة ليست مهيأة بعد للحياة الشورية، وأن ما تحتاج إليه البلاد هو يد قوية تحسم الأمور المعقدة والمشكلات العسيرة ولا تضيع الوقت فى الجدل والنقاش العقيم.

وأنه قرر لذلك تولى كل السلطات بنفسه لأن مجلس النواب والدستور والانتخاب ليست كلها سوى ديكور مسرحى يعجبك وتحب أن تتباهى به ولكنه لايصلح للبلاد» .

وكانت الصدمة شديدة لم يتوقعها رئيس النظار ، ولابد أنه تذكر ما قاله الخديوى الأب حينما ذهب يشير عليه بالتنازل لابنه «إن توفيق يتآمر ضدى مع القناصل» ولم يجد رئيس الوزراء ما يعبر عن غضبه ومرارته سوي ان يبعث برسالة لاذعة إلى القنصل البريطانى الذى لا شك كان وراء ما حدث . قال :

«إننى آسف أشد الأسف كمصري للعودة إلى نظام الحكم المطلق وربما كان هناك كثيرون داخل السراى وخارجها يفيضون طربا لما حدث ويرون فيه انتصارا لمبادئهم ومصالحهم الانانية، ولكننى احب أن أؤكد لكم أن عودة نظام الحكم المطلق فى مصر الآن لن تؤدى إلا لشىء واحد هو الكارثة» وبعث إلى الخديوى باستقالته .

واستقبل الخديوى فى اليوم التالى كل القناصل الأجانب الذين هنأوه على الخطوة الحاسمة التى قام بها وأكدوا له تأييدهم لتوليه السلطة كاملة .. وبدا الامر كما لو كان متفقا عليه من قبل.

وخرجت جريدة الريفورم تقول :

«ترفض الدول المتمدينة ان تطبق مصر نفس ما تطبقه فى بلادها وان يقوم مجلس نواب منتخب يشارك الحكم السلطة . وتفضل ان يسود مصر حكم فردى مطلق يستأثر فيه الحاكم بكل السلطة».

وكشف «جون نينه» الحقيقة عارية فى مجلة «السبيكل» «Siecle» فى الواقع وحقيقة الأمر لم ينتقل الحكم فى مصر إلى الفرد ولكن إلى القناصل ولن يعدو الخديوى ان يكون مخلب قط، ومجرد واجهة يمارسون السلطة وراءها ولن يصدر بعد الآن قرار صغير أو كبير قبل أن يصدق عليه قنصلا بريطانيا وفرنسا هذا ان لم يضعا القرار اولا» .

وهب الاستاذ «جمال الدين» ليندد بما فعله تلميذه الامين واعلن انه ارتد وتنكر لكل ما ادعاه وأصبح خارجا على الأمة.

وكان جمال الدين يتوسم الخير فى توفيق . لأنه كما وصفه «كان ميالا إلى الشورى وينتقد سياسات ابيه واسرافه ، وقد تعاهد معى على إقامة دعائم الشورى واعلن لى على مسمع من جمهور كبير «إنك انت موضع أملى فى مصر ايها السيد» وحينما ذهب جمال الدين ليهنئه بالعرش وجد من الترحيب والتمجيد ما شجعه على بذل التضحية وقال:

«إن قبلتم نصح هذا المخلص لكم لاسرعتم فى اشتراك الأمة فى حكم البلاد على طريق الشورى وتأمرون بإجراء انتخاب نواب لسن القوانين وتنفيذها باسمكم وارادتكم ويكون ذلك اثبت لعزتكم واقوم لسلطتكم» .

ولم يصغ للنصيحة وأصدر تعليماته إلى أعضاء النظارة الجديدة الذين اختارهم بأن يجتمع مجلس النظار تحت رئاستنا مرتين كل أسبوع.

وضعت الوزارة عددا من ألد أعداء «الحزب الوطني» و «الحركة الشورية» ومن أنصار التدخل الاجنبى وقد رشحهم القنصلين الإنجليزى والفرنسى .

وكان أول قرار اتخذه المجلس الجديد بعد أسبوع.من تأليفه قرار صدم العامة والخاصة وكان نفى جمال الدين الافغاني.

وكان التنفيذ غاية فى الغدر والتنكيل (إذ قبض عليه ليلة الاحد السادس من رمضان عام ١٢٩٦ - ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩) مع خادمه الامين عارف أبو تراب وحجز في الضبطية، ولم يتمكن حتى من استحضار ملابسه وحمل فى الصباح فى عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديد ومنها نقل تحت الحراسة الشديدة إلى السويس، وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى الهند) وألزمته الحكومة البريطانية هناك بالاقامة الجبرية.

وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة بيانا مقذعا الزمت كل الصحف بنشره قال :

(لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليهما تماما العمران فى الممالك والبلدان، ومن انجع الابواب واصح الأسباب التى

تحتاج إليها الممالك فى سلوكها فى اقوى الممالك قطع دابر المفسدين الساعين فيما يضر الدنيا والدين. ويكون ذرعة للطائشين المتظاهرين من الناس بمظهر الحرية بدون اساس ، البادين ذلك على غير شرع وأصل ثابت وفرع وإنما هو مجرد خزعبلات وترهات واشراك واصبولات نصبوها لاقتناص أمثالهم السفهاء والجهلاء) .

وكانت محاضرات جمال الدين ودروسه مهرجانات وأعياد ثقافية يهرع إليها الناس من كل الفئات والطبقات وتنشر أخبارها الصحف ويتداول ما جاء فيها العامة والخاصة فى كل مكان.

وكان القرار التالى للخديوى هو حل مجلس النواب (والامر إلى الأعضاء بأن يعود كل منهم إلى بلده) ووقف مشاريع الدستور وقانون الانتخاب نهائيا .

لم تكن إقالة شريف باشا ولم يكن إبعاد جمال الدين ولم يكن تسريح نواب المجلس وقادة الدورة الأخيرة، ولم يكن تعثر الخديوى فى ان يدير شئون البلاد وحده مع من يختاره من وزراء .. لم يكن ذلك ليمر سهلا يسيرا بلا نتائج ولا عواقب ولم تلبث ان تجدد السخط وثار القلق وخافت الدولتان ان تتفاقم الأمور . وطلب القنصل البريطانى أن يرسل فى استدعاء رياض باشا ليتولى رئاسة النظار.

وكانت تصفية الحركة الوطنية الدستورية بقيادة شريف وتصفية الثورة الروحية الفكرية بقيادة جمال الدين مقدمة لتصفية القوة الأشد خطرا أى الجيش . وكان ظهوره المفاجىء على الساحة السياسية «أسوأ

ما حدث في مصر في القرن التاسع عشر» كمال قال السير ريفرز ويلسون ووافقه كل البريطانيين . ولم يكن ليقدم على ذلك سوي الرجل القوي الصارم الذي يهابه ويرهبه الجميع والذي يحمل ثأرا دفينا ضد القوة التي أرغمته على الفرار والهرب.

ووصل عطوفتلو رياض باشا في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وفي اليوم التالي .

«وشكل رياض وزارة من رجال العهد القديم «معظمها من الباشوات الجراكسة المعادين للوطنيين والدستوريين وتميز من بينهم وزير الحربية عثمان رفقي «والذي كان قائدا في حرب الحبشة وعرف بكراهيته الشديدة للضباط الفلاحين وألقى تبعة الهزيمة عليهم وألح على محاكمتهم وفصلهم» .

وكان رئيس الوزراء الجديد كما وصفته جريدة الريفورم «كان فضلا عن انحيازه للاجانب على درجة كبيرة من الصلف ومن الكراهية والاحتقار للمصريين ، ويعتقد أن الكرباج أصلح أداة لحكم الفلاحين واستطاع في أقصر وقت وفي أدق الظروف وأخطرها أن يعيد البلاد إلى أسوأ تراث الماضي ، وجند جيشا من الجواسيس لتعقب زعماء المعارضة » .

وانتهى تفكير الوطنيين إلى ضرورة التنظيم والتعبئة وتحويل جماعة «انقلاب ٧ أبريل» إلى «حزب سياسي على نسق الأحزاب الأوروبية» أثارت أعمال النظارة السخط في نفوس المصريين جميعا الخاصة

والعامة وسادت روح المقاومة والبحث عن خلاص، وتألفت حلقات وجمعيات للمطالبة بالحرية وأجمع الكل على ضرورة الاتحاد ومواجهة الحكم الذى يسير بهم إلى الهاوية وتحددت المطالب الوطنية فى :

١ - عزل حكومة رياض

٢ - إعادة الحياة النيابية وانتخاب مجلس شورى النواب

٣ - إعادة الجيش إلى العدد المقرر له فى الفرمانات الأخيرة

وكان ميلاد الحزب فى اجتماع حلوان ، وكان اول حزب سياسى عصرى فى تاريخ الشرق . وبعد ست سنوات قام في الهند حزب المؤتمر وتكون بعده بقليل حزب الكومنتانج الصينى بقيادة صن يات صن ليكون حزب الثورة الصينية، وكانت هذه التجارب الثلاث هى التى بدأ منها تاريخ الشرق وكفاحه الوطنى الحديث.

وكان الحزب الوطنى المصرى متعدد الطبقات والفئات من الباشوات «الأحرار» مصريين وجراكسة وأتراك ومن الأعيان والعمد والمشايخ ومن العلماء والتجار والمثقفين ومن مسلمين ومسيحيين أقباط ويهود تلاميذ جمال الدين على أن أهم ما تميز به الحزب كان انضمام الضباط الفلاحين .

وبعد هزيمة الجيش فى أكبر كارثة عسكرية مصرية فى القرن التاسع عشر فى الحبشة ألقى الضباط المصريون التبعة على القائد الشركسى «راتب باشا» وأركان حزبه الامريكى (ستون) وبادلهم القائد التهمة وألقى المسئولية عليهم وحوكم أبرزهم القائمقام «أحمد عرابى»

وفصل من الجيش وتكون تنظيم سرى بين الضباط «الفلاحين» انتهوا إلى ضرورة العمل الثورى الحاسم باغتيال الخديوى وطرد أسرة محمد علي واعلان الجمهورية . ولكن نصحهم الافغانى بالتريث وحينما جاء العرض من جمعية حلوان كان التنظيم جاهزا . وبرز أحمد عرابى حتى أصبح بالاجماع زعيم الحزب بجناحيه المدنى والعسكرى.

بدأت الوزارة تحقيق ما قامت لأجله . وروى عرابى القصة .

كان عثمان رفقى باشا ناظرا للجهادية إذ ذاك متعصبا جاهلا بما ينتج من سياسته التفريق والاستخفاف بالعنصر الوطنى فخيلت له نفسه ان يمنع ترقي المصريين العاملين في الالايات تحت السلاح وقد شرع فعلا فى سن قانون يؤخذ من فحواه الحكم بعدم الترقى من تحت السلاح . وصدرت أوامره بذلك ليتمكن من النكاية بأبناء الوطن وحرمانهم من الرتب وجعلهم أنفارا تحت تسلط الأتراك والجراكسة ، ويكون لهؤلاء الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من الارتقاء إلى الدرجات السامية والرتب الشريفة.

ثم صدر أمر بإحالة عبدالعال بك حلمى امير الالاى السوداني على ديوان الجهادية ليكون معاونا فيه ، كان عمره اذا ذاك أربعين عاما ليس الا وجعل بدله خورشيد نعمان الجركسي وكانت سنه ٦٥ سنة وهو ضعيف لا يقدر على الحركات العسكرية واصدر امرا اخر بوقف احمد عبدالغفار قائمقام السوارى ورتب بدلا منه جركسيا أخر .

ولم أكن اعلم بذلك .. ودعيت إلى حفل بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من فريضة الحج وجلست بجوار محمد نجيب بك بما صار من طيش ناظر الجهادية وانه نصحه ان يعرض عن هذا الإجحاف الظاهر فلم يصغ إليه وإنه متأفف من عمله هذا . واخبرني محمد نجيب بما سمع همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل أحق هذا قال نعم وتسلمت الاوامر إلى الكتيبة للإجراء بمقتضاها فقلت له هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقي على هضمها .

وبعد تناول الطعام حضر لي ضابط كبير وأخبرني ان كثيرا من الضباط ينتظروني بمنزلي فتوجهت وكان من ضمنهم الاميرالاى عبدالعال حلمي حكمدار الاى السودان والبكباشي خضر أفندى خضر وعلي بك فهمي اميرالاى الحرس الخديوى، والبكباشي محمد افندى عبيد والبكباشي الفي افندى يوسف والقائمقام أحمد عبدالغفار من الاى السوارى وغيرهم، ووجدتهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل إرسالها اليهم.

وقالوا : إنا فوضنا إليك هذا الأمر وليس فينا من هو احق به واجدر عليه وقلت وهذا امر عصيب لا يسع الحكومة إلا قتل من يقوم به أو يدعو إليه ، وقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا وقلت لهم اقسموا على ذلك فأقسموا .

وفي الحال كتبت عريضة إلى رئيس النظار وطلبت فيها عزل ناظر الجهادية وترتيب غيره من ابناء الوطن ، ثم تشكيل مجلس نواب من

نبهاء الأمة وأعيانها تنفيذا للامر الخديوى الصادر حالة ارتقائه مسند الخديوية ثم ابلاغ الجيش إلى ١٨٠٠٠ تطبيقا للفرمانات السلطانية وتعديل القوانين العسكرية بحيث تكون حالة للمساواة والعدل بصرف النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب ثم تلوت العريضة على مسامع الحاضرين فوافقوا على ذلك وامضيتها بختمى.

وفى الغد ذهبت إلى ديوان الداخلية ومعى رفيقى عبدالعال حلمى وعلى بك فهمى وقدمنا العريضة المذكورة إلى وكيل الداخلية خليل باشا يكن وطلبنا عرضها على رئيس النظار رياض باشا.

وبعد اسبوع ذهبنا إلى بيت الرئيس وتمثلنا بين يديه بعد الاستئذان وسألناه عما تم فى امر عريضتنا فأجابنا بقوله : إن امر هذه العريضة مهلك.

وأجبناه بقولنا :

إننا لم نطلب إلاَّ حقا وعدلا وليس فى طلب الحق خطرا وانا نعتبرك أبا للمصريين فما هذا التعريض والتجويف، فقال ليس فى البلاد من هو اهل لان يكون عضوا فى مجلس النواب فقلت: إنك مصرى وباقى النظار مصريون والخديوى أيضا مصرى اتظن ان مصر ولدتكم ثم اعقمت لا .. بل فيها النبهاء والعلماء والبلغاء وعلى فرض ان ليس فيها من لايليق كما ذكرت أفلا يمكن تشكيل مجلس يستمد من معارفكم ويكون مدرسة ابتدائية وبعد خمسة اعوام يتخرج منه رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها .

فانبهر وكبر لديه ما سمعه ثم قال سننظر بدقة فى طلبكم هذا وانصرفنا على ذلك ثم بلغنا بعد ذلك انه انعقد مجلس تحت رئاسة الخديوى بعابدين حضره جميع الباشوات المستجدين والمتقاعدين من الترك والجراكسة وقرروا فيه اعتقال أمراء الالايات الثلاث الذين أمضوا على العريضة المذكورة ثم محاكمتهم فى مجلس فوق العادة . وأضاف رئيس النظار أنه اذا صار توقيف الميرالايات المذكورين يلزم توقيف ناظر الجهادية أيضا لأنى ارى فى عدم توقيفه خطرا عظيما بالنسبة لما رأيته من الجراءة فى أولئك الأمراء فلم يوافق الخديوى على ذلك بل قال: إن ناظر الجهادية يضمن حفظ النظام.

وانبرى ناظر الجهادية يقول: إنه ضامن لحفظ النظام والقبض عليهم بسهولة . ودعا أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وتلا بالمجلس أمرا عاليا قال : إن هؤلاء الاميرالايات الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبدالعال حلمى مفسدون وانه ليقتضى توقفهم عن الخدمة ومحاكمتهم على فسادهم، ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة ناظر الجهادية ، ويكون من أعضائه ستون باشا الاميركى ولارس باشا الفرنسى ناظر المدارس الحربية وسلمه إلى ناظر الجهادية عثمان باشا رفقى وانفض المجلس .

وفى المساء ارسل لنا ناظر الجهادية المذكور تذاكر يكلفنا فيها بالحضور فى ديوان الجهادية بقصر النيل للتنظيم للاحتفال بزفاف شقيقة الخديوى جميلة هانم.

وعلمنا بعد ذلك انه يريد ان يخدعنا ويبطش بنا اقتداء بعمل محمد على باشا مع أمراء المماليك لان زمن الزفاف الذى حكى عنه لم يحن بعد - ولذا فقد أخذنا حذرنا وهيأنا ما يلزم لنجاتنا ثم ذهبنا فى الوقت المعين إلى ديوان الجهادية بقصر النيل وبوصولنا إليه وجدنا الديوان غاصا بجميع الجراكسة من رتبة الملازم إلى رتبة الفريق ورأينا شبانهم وبأيديهم الطبنجات وهم فى فرح ومرح .

وانعقد المجلس المؤلف من الباشوات المذكورين وتلا علينا الأمر الخديوى بتوقيفنا ومحاكمتنا ثم نزعت منا سيوفنا وساقونى إلى السجن فى قاعة بقصر النيل ، وكان مرورنا بين صفين من الضباط الشراكسة المسلحين بالطبنجات ثم جاء خسرو باشا كبير الجراكسة ووقف خارج سجننا وأخذ يهيننا بقوله :

«أيه زميللى هارت لا» اى فلاحين حملة المقاطف احتقارا للمصريين وحين قفل علينا باب السجن قال على بك فهمى «لا نجاة لنا من الموت» وشجعته قائلا :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى

وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكان يظنها لا تفرج

فلا والله ما كان هنيهة حتى وصلت أورطتان من الحرس الخديوى وأحدقوا بديوان الجهادية واسرع بعض الضباط والعساكر واخرجونا من السجن.. وفر ناظر الجهادية وغيرهم من المجتمعين.

ولما فرج الله علينا أسرعت إلى العساكر وحذرتهم وانذرتهم وتوسلت اليهم فى خطاب أن لا يمسوا أحدا من الجراكسة أو غيرهم من الضباط فإنهم أخواننا مهما أستأثروا بأنفسهم علينا، ولا نريد الا المساواة معهم، ليس إلا ونظرت بجانبى فوجدت إسماعيل باشا كامل فعانقته أمام العساكر وقلت لهم مخاطبا هذا الباشا جركسى ولكنه أخى حرام علينا دمه وماله وعرضه وكذلك غيره من الجراكسة فانصرفوا على بركة الله تعالى.

وكان الشكر والفخر للبطل المقدام والشجاع الهمام محمد افندى عبيد الذى كان انقاذنا من الهلاك على يديه والبطل المقدام البكباشى على افندى عيسى والوطنى الغيور البكباشى احمد فرج وجميع ضباط الاى الحرس الجديد وعساكره، الذين خلدوا لهم ذكرا جميلا وبرهنوا على وطنيتهم وشهامتهم، أخص منهم بالذكر الملازم حفناوى افندى عثمان الذى كان اول من أخرجنا من السجن والملازم يوسف أفندى والملازم محمد افندى شامل مما امتازوا به من مروءة.. وكذلك فعل الشهم الهمام والبطل المقدام البكباشى خضر افندى خضر.

وكان واقع ما حدث ان ضباط الاى الحرس الخديوى لما علموا بما لحق بنا من الاهانة والسجن هاجوا وماجوا وثارت الحمية فى رؤوسهم وفى الحال امر محمد افندى عبيد البكباشى بضرب نوبة طابور للعساكر فاعترضه خورشيد بك يسمى قائمقام الالاى المذكور وهدد بقطع رأسه فلم يلتفت اليه، بل أمر بعض العساكر بوضعه فى محل

والتحفظ عليه ، وكانت الجنود قد اصطفت تحت السلاح فأخذهم مسرعا إلى قصر النيل واعترضه راشد باشا حسنى الفريق فلم يجد ذلك نفعا وكان الخديوى مشرفا على العسكر من شرفة السلاملك فأمر بروجى قرقول السراى بأن يضرب نوبة حضور الضباط عند الخديوى فلم يحضر أحد ، وبعد قراءة المحكمة توجه ناظر الجهادية عثمان رفقى وجميع افراد الجراكسة وأعضاء المجلس السابق الى سراى عابدين ليجتمعوا بالخديوى .

وفى اليوم التالى ذهب قناصل الدول إلى عابدين واشاروا على الخديوى بأجابة طلباتنا حسما للنزاع ومنعا للخطر حيث أن الحكومة عاجزة عن تنفيذ أغراضها .

وفى صباح اليوم التالى تقرر تعيين محمود باشا سامى وخيرت باشا رئيس الديوان الخديوى لمفاوضاتنا فيما يلزم من الإصلاح فحضرا وسألوا عما نريده، فأجبنا بأننا على الطاعة ولا نريد إلا الاصلاح وقال خيرى باشا: وما هو الاصلاح وكررنا طلباتنا .

وعاد وأخبرنا أن الخديوى قبل طلباتكم وعزل ناظر الجهادية فاختاروا ناظرا غيره فقلنا لا خيره لنا وانما نريد ناظرا وطنيا يعينه الخديوى، فقال خيرى باشا إن الخديوى فوض لكم اختيار الناظر حتى لا تشكو منه فيما بعد فقلنا إننا نرضى بتعيين محمود سامى باشا هذا ناظرا للجهادية، فذهب وبلغ ذلك للخديوى وصدرت الاوامر الخديوية بتعيين محمود سامى ناظرا للجهادية مع بقائه فى نظارة الاوقاف .

واستولى الذهول على الحزب الاجنبى ورأى القنصل الفرنسى البارون دى رنج الذى كان منحازا للحركة الوطنية منذ البداية أن يبذل النصح للخديوى حتى لا يقدم على عمل أخرق يزيد من الهوة ويستعصى على الحل، ونصحه بأن «يجب ألا ينساق الى رد عنيف أو مغامرة حمقاء وعليه بدلا من ذلك أن يستقصى الاسباب الحقيقية للمظاهرة وأن لا يعتبرها مجرد تمرد عسكرى يستوجب القمع، ولكن انعكاس للمشكلة الجوهرية للبلاد وأن الحل الصحيح لا يتحقق بمجرد تغير الوزير ولكن تغيير السياسة العامة وطريقة الحكم، وأن من مصلحته ومصلحة كل الاطراف أن يتراجع».

كانت الضربة اشد من أن يغفرها الخديوى بعد ما قوضت كل هيبته ولم يبق له سوى سلاح واحد تقليدى هو السلاح العثمانى أى الدس والوقيعة والغدر والتصفية الجسدية .

واقتبس الخديوى دروسا متبوعة وابتدع اساليب لم تطرق من قبل ونجا عرابى من ثلاث محاولات لاغتياله بواسطة الأشقياء من الجواسيس الذين بثتهم الحكومة فى الشوارع التى كان يمر بها ليلا ونهارا.

وانصب كل الحقد على عبدالعال حلمى قائد الالاى السودانى .

وأغرى غلام جركسى فى قصر الخديوى غلاما جركسيا آخر كانت ترعاه زوجة عبدالعال حلمى وقام بدس السم فى اللبن ولولا أن رأته

الخادمة وكشفت ذلك العمل الخسيس الفظيع لكانت النتيجة وبالا على الجميع وعوقب المجرم بالسجن.

واندس ضابط من طرف الخديوى وسط ضباط الالاى السوارى واستطاع أن يغرى ١٨ من صغار الضباط على أن يحرروا عريضة للخديوى فيها أنهم لا يوافقون على تشكيل مجلس نواب أو على زيادة الجيش أو على القوانين العسكرية الجديدة، وكشف أمرهم وصدر الأمر برفتهم من الجيش.

وأصدر الخديوى أمرا بإرسال الالاى السودانى بكامله الى السودان بحجة أن الامر هناك يحتاج الى ذلك.

ونظرا لانه كان معروفا ان القوة الموجودة هناك كانت كافية لحفظ الامن وأن الهدف هو تثبيت القوة العسكرية فقد رفضت قيادة الالاى هذا القرار.

وتذرع الخديوى بحادث وقع منه بعض الجنود وقرر فجأة عزل وزير الجهادية محمود سامى وعين بدلا منه صهره داود باشا يكن، كما أمر بعزل مأمور المحروسة احمد باشا الدرمللى لميله للوطنيين.

وأصدر وزير الجهادية الجديد منشورا اذاعه على كل الجهات يشدد فيه على :

عدم اجتماع الضباط بعضهم مع بعض سواء فى المنازل أو فى أى مكان فى المدينة وعدم تركهم مراكزهم فى الالايات ليلا ونهارا، وإذا

وجد اثنان منهم فاكثر في المدينة سوف يجرى ضبطهم بمعرفة رجال الضبطية وسجنهم.

وقام الوزير الجديد بنفسه ليلا والاشراف على تنفيذ أوامره ورفضت كل الالايات تنفيذ هذه الاوامر وأعلنت انها مخالفة للقوانين العسكرية ومهينة للشرف العسكرى «أعلنت الحكومة انها سوف تستخدم جميع فرق الجيش في حفر الرياح التوفيقى الذى كان مزمعاً انشاؤه وكان القيام بهذا العمل يعني تسليم السلاح الى مخازن الجهادية، وردت الالايات جميعا بأن حفر الترع ليس من شئون العسكرية وان الحكومة تستطيع أن تشهر مناقصة بين المقاولين لحفر الرياح».

ويروى عرابى:

«فكرنا في وضع حد للدسائس الدنيئة التى اشتغل بها الخديوى وذهبنا الى راغب باشا وزير المالية الذى عرف بحسن السياسة وكمال الاهداف، واوضحنا له الموقف بحذافيره، وسأل عما يمكننا جمعه من الاسلحة والذخائر الحربية ثم اشار علينا بإرسال بلوك من العساكر ليقتلوا الخديوى وسوف يقودنا بعد ذلك بما أوتيه من الحكمة واصالة الرأى واستعذنا بالله من شر رأيه.

وقررنا ان نبطل دسائس الحكومة المنكرة، وختلها وعزمها على اغتيالنا بأن نأخذ حذرنا ونسهر على احباطها وتقرر العمل.

وتم اعداد بيان يوزع في كل أرجاء البلاد الى ذوات الامة واعيانها وعلمائها وعمد البلاد ومشايخها ومشايخ العربان بأن يشاركوا في حفظ

الأمن والراحة العمومية حتى يمكن التفرغ للنظر فى مصالح البلاد والتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال وهاوية التلاشى التى سقطت فيها .. وان سكوتنا عجز وجبن فاضح، ومشاركة للحكومة فى التفريط فى وطننا العزيز وأن السبيل إلى ذلك لن يتم إلا بإسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيرا وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه فى الحصول على الحرية المنشودة وعلى كل أبناء البلاد أن يقدموا المساعدة والتأييد.

ويقول عرابى:

وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر وسلمتنا عرائض النيابة عنها وفوضت إلينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن الاستبداد معلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من نتائج» .

وعقدت سلسلة اجتماعات موسعة شارك فيها قادة الحزب واقطابه السياسيين والعسكريين وتم اختيار لجنة عليا من عرابى وشريف وسلطان والبارودى لوضع خطة عمل وانتهى الرأى الى أن لا مناص من إملاء المطالب على الخديوى وانتزاعها وعلى الملأ، وذلك فى مظاهرة شاملة من الجيش بقيادته وضباطه وجنوده ومن الشعب بنوابه ووفوده وتحت سمع وبصر القناصل والاجانب عامة.

وتحددت ساعة الصفر يوم ٩ سبتمبر بعد الظهر فى ميدان عابدين دون إخطار ناظر الجهادية.

وأذيع منشور على الأمة.

قال:

لما رأينا كثرة الدسائس وشدة الضغط من الحكومة وعدم التصديق على القوانين العسكرية التى تم إعدادها وعدم «الشروع» فى تشكيل مجلس النواب الذى وعدنا الخديوى بتشكيله أيقنا أن الحكومة تماطلنا فى تنفيذ الطلبات الوطنية وصممنا على تجديدها فى صورة مظاهرة وطنية شاملة للعسكرية والأهالى الذين أنابوهم عنهم فى محاولة نيل حقوقهم وتأمينهم على الانفس والاموال والاعراض

وتم إخطار جميع الالايات والسوارى للاستعداد للحضور إلى ميدان عابدين فى الساعة العاشرة عربى من ٩ سبتمبر سنه ١٨٨١لعرض طلبات الأمة العادلة على الحضرة الخديوية .

وتم اخطار ناظر الجهادية ليخطر الخديوى أن جميع الالايات ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة المذكورة.

الفصل الثالث

المواجـــهـــة

كان أول من حضر من القوات إلى ميدان عابدين « آلاى السوارى » بقيادة أحمد بك عبد الغفار ثم تلاه « الالاى الرابع » بيادة بقيادة عرابى ورافقه آلاى الطوبجية بقيادة إسماعيل صبرى وتتالى وصول القوات.

ويروى عرابى ما حدث:

«عند وصولى الى الساحة أخبرنى بعض الضباط أن آلاى الحرس الخديو حكمدارية على بك فهمى موزع فى داخل السراى وأنه على استعداد للدفاع إذا مست الحاجة ، وقد صرف له كمية وافرة من الجبخانة فأرسلت الملازم محمد أفندى على وهو بطل غيور لاستدعاء على بك ولما سألته قال إن السياسة خداع، ولكن لم أوافق على رأيه وطلبت إليه أن يجمع القوات خارج السراى ويأخذ محله فى الميدان وعلى الفور أمر بذلك وخرج الالاى بأكمله وأخذ محله فى الميدان وعرفت أن الخديوى أسرع الى القلعة ليمنع الالاى الثالث من النزول إلى عابدين، ولكن وجده مصطفا تحت السلاح ينتظر الامر، وطلب الخديوى الضباط وأخذ يوبخهم ثم أخذ بتلابيب البكباشى فوده حسن وقال له

مثلك يعارض أوامر الحكومة ويسعى فى عدم تنفيذ اجراءاتها. ولما رأى العساكر ذلك ضرب البروجيه نوبة «سونكى دبك» بأمر اليوزباشى محمد أفندى السيد واسرع العساكر إلى تركيب السونكى فى رؤوس البنادق وأحاطوا بالخديوى صارخين «اترك البكباشى» وفعل ذلك على الفور وصاح أؤمر العساكر أن ينفرجوا عنا يا بكباشى فأمر برجوع العساكر إلي حالهم وغادر الخديوى مسرعا قاصدا العباسية وهناك عرف أنى توجهت بالالاى وآلاى الطوبجية بالمدافع والجبخان الى عابدين فاسرع بالعودة.

وكان عبدالعال حلمى قد حضر بالآلاى السودانى من طره ولما وصل إلى ساحة المنشية أمر العساكر بالاستراحة وهناك بلغه خبر ذهاب الخديوى الى القلعة فأخذ بلوكين من العساكر وصعد ليستكشف الأمر ولما وصل واستعلم عن سبب ضجة الخديوى أخبروه بما حصل.

واكتمل الحضور بقدوم أورطة من المستحفظين «البوليس» بقيادة القائمقام ابراهيم فوزى لتشارك فى اليوم الوطنى .

واصطفت القوات فى الميدان على هيئة مربع ووقف خلفها اعضاء مجلس شورى النواب وخلفهم وفود من الأعيان والعمد والمشايخ حضروا من مديريات القطر وخلف الجميع احتشدت جماهير القاهرة بل وانضم أجانب كثيرون يشهدون الحدث.

وطلب الخديوى إلى عرابى الذى كان يعتلى صهوة جواده شاهرا سيفه ومحاطا بقادة الفرق ان ينزل من على الجواد وأن يغمد سيفه.. وفعل ذلك وبدأ الحديث قائلا:

- ماهى اسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟.

- جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة.

- وماهى هذه الطلبات ؟ .

- اسقاط الوزارة المستبدة وانتخاب مجلس نواب على النسق الأوربى وابلاغ الجيش العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها.

- كل هذه طلبات لا حق لكم فيها وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن أبائى واجدادى وما أنتم الا عبيد احساناتنا.

واستفز الرد عرابى وأجاب على الفور:

- إذن اعلم ان الله خلقنا أحرارا وأننا لن نستعبد بعد اليوم .

وتلعثم الخديوى وتطلع إلى القنصل البريطانى والمراقب المالى البريطانى اللذين صحباه.. واشارا عليه بالدخول إلى القصر .. وتدخل القنصل قائلا :

- إن اسقاط الوزارة وطلب تشكيل مجلس نواب من حقوق الامة وليس من حقوق العسكريين ولا لزوم بطلب زيادة بالجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك .

وأجابه عرابى :

- اعلم ياحضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها إلا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين

هم عبارة عن اخوانهم وأنهم القوة التي ينفذون بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة وانا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ

ورد القنصل :

– أفهم من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة . هذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم.

ورد عرابى:

– كيف يكون ذلك يا حضرة القنصل ومن ذا الذى يعارضنا فى اصلاح داخليتنا واعلم أننا سوف نقاوم من يتصدى إلى معارضتنا أشد المقاومة وإلى ان نفنى عن آخرنا

– وأين قوتكم هذه التى ستدافعون بها ؟ .

– عند الاقتضاء سوف نعرف كيف نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويلبون إشارتى .

وأسقط فى يد القنصل ، وانسحب من الميدان ولحق بالخديوى داخل القصر . وساد الصمت فى الميدان ثم جاء رسول من الخديوى يدعو عرابى الى الداخل ... ويروى ما حدث

وغادر عرابى واعلن الخبر ودوى الهتاف وفاض الفرح والحماس وبدأ الانصراف والكل مفعم بنشوة النصر وتلقى الآلاى السودانى دعوة من آلاى الحرس لقضاء الليلة والسهرة والاحتفال بالنصر .

وقف يرحب بى كأن شيئا لم يحدث وأخبرني أنه استجاب لطلباتنا واختار راغب باشا ليكون رئيس الوزراء بدلا من رياض، ولكن اعتذرت له عن القبول ورددت بأن الجميع يريدون شريف باشا ويرون أنه الوحيد الذى يكمل مسيرة الاصلاح . ووافق على ذلك .

كتب كرومر بعد ذلك ببعض الوقت « لم يغفر الخديوى لعرابى مظاهرة عابدين وكرس حياته كلها منذ ذلك اليوم للانتقام والثأر » ويكشف الوجه الآخر والذى ظل خافيا من الاحداث .

كان أول ما فعله الخديوى حين تسلم الخطاب ان لجأ إلى السير أوكلاند كولفن ، وكان خير ما فعل وكان كولفن من كبار رجال الخدمة المدنية فى الهند ، ويتمتع بالفضيلة التى يتميز بها البريطانى الاصيل وهى الثبات عند الخطر، ولما سأله الخديوى ماذا يفعل نصحه على الفور بأن يأخذ المبادرة ويستدعى الفرقتين المواليتين له من قوات القاهرة وان يسير الى ميدان عابدين وينتظر وبمجرد أن يصل عرابى يفاجئه ويقبض عليه بنفسه ويحسم الامر»

ويروى كولفن :

قال لى وهو مرتبك: إن عرابى يسيطر على المدفعية وعلى الخيالة وانهم قد يطلقون النار وقلت له اعتقد أنهم لن يجرؤوا على ذلك وإذا ما استجمعت شجاعتك وبادرت وتقدمت بشخصك نحوهم واذا لم تفعل بذلك فإنك ضائع لا محالة . فى تلك اللحظة وصل الجنرال ستون

الأمريكي وأيدني في كل ما قلته ثم وصل السير تشارلز كوكسن القنصل وصدق على آرائي ولكنه استأذن ليعود الى القنصلية ليخبر لندن بما يحدث .

وقرر الخديوى ان يطوف على الفرق ويحاول استمالتها وصحبته فى عربة أخرى ووصلنا إلى فرقة الحرس فى ثكنات عابدين ، وأكدت ولاءها له ، ثم ذهبنا إلى القلعة ووجدنا نفس التأييد، ولكن لم نلبث ان عرفنا ان معظم الفرقة قد تحركت من قبل ، للاشتراك مع عرابى وقال الخديوى: إنه سوف يذهب إلى ثكنات العباسية ونصحته ان يعدل ويذهب رأسا الى عابدين فإن الساعة اقتربت ، ودخل القصر من باب خلفى وقفزت من عربتى وطلبت إليه أن يتقدم إلى الميدان مباشرة وأن لا يظل فى القصر بأى حال ووافقنى على ذلك، وصحبته أنا والجنرال ستون.

وكان الميدان مكتظا عن آخره بالقوات والجماهير حولهم.. ولكن تقدمنا وقلت للخديوى حينما يتقدم إليك عرابى لا تتردد وأصدر اليه الامر بأن يسلمك سيفه وأن يأمر القوات بأن تنصرف ولكن تقدم عرابى راكبا جواده وطلب إليه الخديوى أن ينزل ويغمد سيفه وفعل وتقدم نحوه عرابى وخلفه عدد من الضباط مشهرين السونكى، وهمست فى أذن الخديوى لقد حانت لحظتك ورد علىّ همسا نحن بين اربع نيران وقلت له تشجع. لا تخف ولكنه رد علىّ.. ماذا استطيع أن أفعل، نحن بين أربع نيران وسوف نقتل جميعا ولم يملك سوى ان يسأل عرابى ماذا يريد بكل هذا الذى يفعله .. ودار الحديث بينهما.

وبينما كانت المحاورة قائمة همس فى أننى ما رأيك فى كل هذا الذى يقوله ـ قلت له لا يليق بالخديوى ان يناقش ضباطا فى هذه الأمور وأن عليك ان تدخل الآن وتركنى معهم واستجاب لذلك، وبقيت فى الميدان أواجه عرابى لمدة ساعة حتى عاد السير تشارلز كوكسن وأكمل الحوار».

وتعجب كولفن «لم يظهر رئيس الحكومة ولا أحد من الوزراء ليساعد الخديوى فى ذلك الوقت العصيب.

وكان هناك انجليزى من طراز مختلف حضر إلى مصر وانغمس فى قضيتها واندمج مع قادتها واصبح واحدا منهم بل وزير خارجية الثورة. كما اطلق عليه ووصف ذلك اليوم قائلا: «لم أر شعبا بأكمله يفيض فرحا ونشوة كما رأيت ذلك اليوم».

ويكمل عرابى الرواية :

فى اليوم التالى توجهت إلى سراى شريف باشا وهنأته برياسة الوزارة الجديدة وطلبت منه ان يعتنى بانتخاب من يساعدونه فى سرعة تشكيل مجلس النواب ونشر الحرية فى البلاد.

ورغبت إليه فى تعيين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية ومصطفى فهمى ناظرا للخارجية لما اعلمه من ميلهما مع العدل والحرية فأبى وقال: إنى لا اقبل ان يكون فى وزارتى محمود سامى ولا مصطفى فهمى لأنهما لم يوفيا بالعهد الذى تعاهدنا عليه من قبل فقد اتفقنا على أنه إذا

رفض الخديوى الموافقة على تشكيل مجلس نواب استقالت وزارتنا ولا يشترك احد منا بعد ذلك ، ولكنهما نكثا بالعهد وقبلا الدخول فى وزارة رياض التى سقطت بالامس ـ لذلك لا استطيع ان اشتغل معهما وقلت له «ان لكل وقت حكمة وانى اثق بحبهما للحرية والعدل والمساواة فضلا عن ذلك فإن العسكرية لا تطمئن لغير محمود سامى باشا.

فقال «أفلا ترضون أن اكون ناظرا للجهادية وأنا قد تربيت معكم فى العسكرية فقلت «لقد اخترناك رئيسا للوزارة ولابد من مراعاة ميول رجال العسكرية فلما أصر على عدم قبولهما فى الوزارة تركته ورجعت إلى أشغالى من غير ان يتم شىء فى أمر الوزارة.

وفى يوم ١٤ سبتمبر قابلته مرة وقلت له إنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له: ان لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن ان ليس بالبلاد سواك ففيها بحمد الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز الخطير.

وفى اليوم التالى بعث ناظر زراعته البدراوى عاشور ليخبرنى بموافقته على ضم الوزيرين وتشكيل الوزارة وانتهت الازمة الصغيرة».

رد شريف باشا على خطاب تكليفه بالوزارة الجديدة قائلا:

مولاى الجناب الافخم

لم أقدم فى بادىء الأمر على قبول هذه المسئولية الجسيمة لاحتمال ان يحدث من الاحوال الحاضرة امور خطيرة ومكدرة ولكن حيث ان حضرتكم العلية قد استشارت من يوثق به من ذوى المكانة والاحتشام

ورأت بالاتحاد معهم ان اشتراكى فى ادارة الحكومة يعود بالنفع على البلاد وأصررت على تكليفى بذلك فلم يكن لى حق بعد ذلك فى التردد وسأمزج الجهد وابذل الهمة فى وضع قوانين متناسقة متضمنة النظام صريحة الاحكام ، وفى تحديد القوى العمومية والسلطات المكلفة بوضع القوانين والقوة القضائية والقوة التنفيذية وتعيين خصائص كل قوة منها وحدودها.

ووفد على شريف باشا كثير من وجوه البلاد وأعيانها منهم سليمان باشا اباظة وشريعى باشا وسلطان باشا وامين الشمسى ومنشاوى بك والشيخ على الليثى وعبد السلام بك المويلحى والشيخ احمد محمد والشيخ الصباحى وابراهيم افندى الوكيل.

وقدموا لدولته تقريرين، أولهما :

نحن الواضعون اسماءنا ادناه علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى و القبلى لاعتقادنا التام بحسن صفات وغيرة مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولتكم بالحكومة المصرية وإظهارا لصداقتنا التامة ولخلوص الجيش نحن ضامنون ومتكلفون بصدقه وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لاوامر دولتلو شريف باشا.

لما كان لا ينتظم نظام العالم ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل إنسان آمنا على نفسه وماله، حرا فى افكاره بما فيه سعادته وحسن حاله وهذا لا يتأتى إلا بإيجاد حكومة

شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ولا تطرق إليها طوارق الفساد اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس نيابية من نبهاء أممها يقومون عنها فى حفظ حقوقها تجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الأحكام العادلة، وعلى هذه الفوائد ولأجل هذه المقاصد كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق وبما أن مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرته لحفظ بلادنا من بوائق الدهر، تجاسرنا بعرض هذا راجين صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب الأمة المصرية يكون له ما لمجالس الامم المتمدنة من الحكومة ، وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعدلها نعم وتصير حكومتها العادلة نموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم واننا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقا لارادة ولى النعم.

وتوجه عرابى مع بعض الضباط الكبار لمقابلة شريف باشا وتهنئته برياسة الوزارة نيابة عن الجيش وألقى عرابى كلمة قال فيها:

أعرض لدولتكم اننا جميعا واثقون بصداقتكم وخلوص طويتكم المحبة للوطن وأهله وجازمون بان الصفات التى تحليتم بها ستكون سببا فى وقاية بلادنا باستتباب الراحة العمومية، وأننا لنعلم واجباتنا والفروض التى توجبها علينا وظائفنا العسكرية واعظمها حفظ البلاد ومن فيها ولذلك فإننا نعترف بإننا القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر التى تكون إن شاء الله فى خير البلاد وصلاح العباد إلا ان لنا حقوقا

معلومة حددها لنا القانون فنرجو من الله سبحانه وتعالى ان يحسن إلينا بنوالها بمساعدتكم ونسأله سبحانه ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح أمين.

ثم أمن الحاضرون

ورد شريف:

فى علمكم ما قاله الأقدمون أفة الرياسة ضعف السياسة ولا حكومة إلا بالقوة ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقيادا تاما وامتثا'هم امتثالا مطلقا.

وترددى أولا فى قبول الرياسة ما كان تجافيا ، تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ويزيد بها الاشكال و حصل عندى اليقين بانقيادكم فقد زال الاضطراب من القلوب ف ـسيكم بملاحظة الدقة والضبط والربط لأنهما من اخص شئون اله كرية واساس قواها.

واعرفوا انكم مقلدون اشرف وظيفة باداء واجباتها الشريفة وعلى القيام بأداء كل ما يزيدكم فخرا وسؤددا فى مواجهة الذين يقفون على الابواب والاسوار.

الفصل الرابع

الصدام

صدر الامر السامي الكريم بإجراء انتخابات مجلس شورى النواب الجديد يوم ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، وتضمن «تكليف ناظر الداخلية باتخاذ كافة الوسائل ليتم انتخاب النواب على حسب النصوص والشروط المدونة فى لائحة مجلس شورى النواب (لائحة سنة ١٨٦٦)، وأن يكون يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨١ يوم اجتماع الناخبين لانتخاب النواب، ويكون ذلك بالمديريات والمحافظات» . وأكد الامر السامى على ناظر الداخلية «أن يكون معلوم لحضرتكم ان الواجب عليكم انما هو تسهيل انتخابات النواب المومأ إليهم، ومراعاة نصوص اللائحة بحيث يكون ذلك على حسب آراء أهل القطر ورغبتهم، وبدون أن تتدخلوا فى الانتخابات لمساعدة أى شخص كان . اذ أن المشايخ هم نائبون عن الاهالى ولهم دون غيرهم أن ينتخبوا من يعتمدون عليه ومن يثقون به ليكون نائبا عنهم فى المجلس المذكور » .

وقد احتدم الحوار حول قانون الانتخاب وضرورة تعديله لتغير الظروف ، ولكن أصر شريف باشا على استمرار العمل به ولم ير عرابى مناصا من القبول .

وبعد يومين من صدور الامر باجراء الانتخابات قررت القيادة العسكرية الوفاء بما وعدت به رئيس الوزراء وأن تغادر القوات العاصمة لتمارس السلطة السياسية حريتها . وكان الجيش هو الذى أنزل الدستور فى الميدان ، وهو الذى سوف يحميه ويحفظه ، ولكن شريف أصر على «الوهم» الذى ابتدعه . واستجابوا له .

وكان أول المغادرين الالاى السودانى بقيادة عبد العال حلمى والذى كان بطل اليوم المشهود ، وكان يثير أشد الحنق والغيظ عند الخديوى وتقرر أن يسافر ويرابط فى دمياط . وخرجت القاهرة كلها لتودعه .

وبعد يومين أعلن أن الالاى الرابع والذى يتولى قيادته عرابى سوف يغادر القاهرة واستعدت العاصمة لتجعل منه يوما «يذكره الجميع ولا ينسونه» .

ومنذ الصباح الباكر احتشدت الجماهير بطول الشوارع وفى كل الميادين واصطفوا فى نظام ، حتى باب الحديد ، وتوافد على المحطة جميع قادة الجيش وضباطه وجمع غفير من الذوات والاعيان والعلماء وكبار التجار .

ووقف عرابى وسط ذلك الفيض من الحماس ، وارتجل خطابا قال فيه «سادتى واخوانى :

قمنا بكم ولكم وطلبنا حرية البلاد وقطعنا عرش الاستبداد، حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العريقة لما رأينا أننا بقينا فى اذلال واستعباد

ولا يتمتع فى بلادنا الا الغرباء ، وانتزعنا مجلساً للشورى لتنظر الامة فى شئونها بنفسها ولتعرف حقوقها كباقى الامم المتمدينة .

واختتم خطابه المرتجل :

«لقد فتحنا باب الحرية فى الشرق وليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين » .

وقد توجه القطار وركابه الى الزقازيق ، عاصمة الشرقية مسقط رأس الزعيم . وعند وصوله كانت الآلاف منتظرة . الاعيان والتجار وجماهير الفلاحين .

وتعالت الهتافات وارتفع الدعاء للجيش.

ونثـرت الورود والازهار العطرية على الجنود ووزعت الاشـربة السكرية وفاضت علامات السرور على كل الوجوه .

وقرر عرابى أن يقوم بجولة فى أرجاء المديرية يلتقى بالاهالى ويخطب ويشرح وتقاطرت الجموع والتفت الحشود، وتطلع إليه الكل المنقذ والمخلص «الوحيد» كما أصبح لقبه واستخلص رئيس الوزراء العظة والعبرة ، وأدرك مكانة عرابى من الناس ، وخفف من غلوائه واعلن فى تصريحات له «إن مشاورة أهل الرأى والسداد من وجوه البلاد هو الواسطة الوحيدة للحصول على المقصود وبعد ما يجتمع مجلس شورى النواب فان هيئة النظار ستمد معه فى البحث فيما يجب تعديله وتنصحه من قانون الانتخاب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وسوف يكون التعديل بمعنى التقريب من الحرية والتبعد عن حد التقييد.

وبدأت الحملة الانتخابية وشهدت البلاد ما لم تشهده من قبل حملة توعية وتعبئة ، قامت بها الصحافة الوطنية والكتاب والمثقفون وتحولت منابر المساجد والكنائس أيضا الى منابر للوطنية والحرية .(والوحدة المقدسة بين ابناء الوطن وأهل الكتاب) وعكفت الصحف والمنابر على (نصح أرباب الانتخاب بأن ينتخبوا نوابا وكلاء عنهم فى كل ما يقولون ويفعلون ، وينتقوا من كانوا مصلحين يضيفون لبلادهم نظامات وقوانين تكون بعد التقرير مرعية الاجراء ، ويختاروا خير من يضرب عليهم الضرائب ويعدل لهم الرسوم وينظر فى امر الواقع، وان ينظروا الى المنتخب من حيث ما يترتب على انتخابه من الاثر فى خير البلاد .

وتعززت الثقة حينما وصلت رسالة من بريطانيا بعث بها وزير الخارجية اللورد «جرانفيل» كانت الاولى والفريدة من نوعها موجهة الى القنصل البريطانى فى القاهرة لكى يبلغها المسئولين ويذيعها على الرأى العام . وتقول :

«علمت من رسالتكم التى بعثتم بها بعد عودتكم الى مقر عملكم ان كثيرا من المصريين يشككون فى سياسة بريطانيا نحو بلادهم ويرونها على وجه مغاير تماما للحقيقة ، ولذلك فاننى أحرص على تبديد هذه الظنون الخاطئة وعلى دفع كل ما يمكن أن تؤدى اليه من سوء فهم يتنافى مع آرائنا وأهدافنا الحقيقية .

وأود أن أؤكد أن سياسة حكومة بريطانيا نحو مصر لا تهدف إلا لشىء واحد هو أن تنجح فى تحقيق الحرية الشاملة التى تسعى إليها

وتعمل جاهدة من أجلها، وتؤمن بريطانية أن نجاح مصر بل ونجاح كل الافكار انما ليتوقف على قدرتها على تحسين مستوى حياة الاهالى وعلى تنمية ثروات البلاد وتدعيم روح الوطنية .

وقد انتهزت بريطانيا كل الفرص لاقناع الخديوى وحكومته بسلوك السياسات المؤدية الى ذلك ورفع الظلم والعسف وتحقيق الأمن والاستقرار .

وقد علمت من رسائلكم ان الرأى السائد بين المصريين هو ان بريطانيا تنحاز الى رياض باشا وانه يتمتع بحظوة خاصة لديها، وان الخديوى كان يفضله ارضاء لحكومة جلالة الملكة وحتى لا يثير غضبها ولذا لابد وان تقنعهم تماما ولا تترك لديهم أى شك فى ان حكومة جلالة الملكة لا تسعى بأى حال من الاحوال لان تفرض على مصر حكومة تعمل بوحى منها ، لاننا نؤمن ايمانا قاطعا أن أى حكومة تستند الى تأييد دولة أجنبية أو تخضع لضغط دولة خارج حدودها هى حكومة محكوم عليها ، وان تحقق أى شىء سواء لمصلحتها أو مصلحة من يتصورون انها سوف تخدم مصالحهم ... إن مثل هذه الحكومة لن تفعل سوى القضاء على ثقة الامة فى حكامها وعلى إثارة الدسائس والمؤامرات ضدها .

ولا أظن أننى فى حاجة لأن أؤكد لكل المصريين حرصنا على أن تظل بلدهم متمتعة بما لها من استقلال فى اطار الفرمانات السلطانية

وان بريطانيا لا تفكر قط فى المساس به، بل انه يتنافى تماما مع كل تاريخ بريطانيا ومنهجها وتقاليدها فى علاقاتها الدولية» .

وطرب الجميع بما لم يتوقعه أشد الناس تفاؤلا وبدا لهم أن بريطانيا انصاعت الى الحق وبدأت صفحة جديدة تكفر عن تاريخها الاليم مع مصر .

وقرر الحزب قرارا حكيما بأن يعدل برنامجه ويحدده بما يتفق والتغيرات التى تلاحقت والتى تجاوزت البرنامج الاول . أصبح فى السلطة وعليه ان يواجه مشكلات وتحديات ، تطلب شحذ كل ما يملك من حكمة .

وتألفت لجنة ضمت عددا من الساسة والقادة وأهل الرأى والفكر وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده ، والمستر ويلفريد سكاون بلنت الذى اندمج فى الحركة الوطنية . وانتهت اللجنة الى صيغة متكاملة متوازنة قالت:

١ – يرى الحزب الوطنى محافظته على العلاقات الودية القائمة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله ، ويعتقد الحزب ان جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم خليفة الله فى أرضه وإمام المسلمين، ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود، وهو يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذ من الخراج، وما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا ما طرأت حرب

أجنبية وهذا بمقتضى القوانين والفرمانات الشاهانية ، كما يعتقد الحزب انه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية .

٢ - يجعل الحزب للجناب الخديوى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية على قانون العدل والشريعة بحسب ما وعد به المصريين فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقد قرن هذا الخضوع بالعزم الاكيد على عدم العودة الى الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل وبالالحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم الشورى واطلاق عنان الحرية للمصريين ، ويطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك فى جميع الامور ، وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما انهم يحذرون من الاصغاء الى الذين يحسنون اليه للاستبداد والاجحاف بحقوق الأمة.

٣ - يعلم رجال هذا الحزب ان استمرار المراقبة الاوروبية المالية هى الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة ، وان كانت تلك الاموال لم تصرف فى مصلحة مصر بل صرفت فى مصلحة حاكم ظالم كان لا يسأل عما يفعل .

وهم يرون ان النظام الحالى لم يكن الا وقتيا وهم يؤملون ان يستخلصوا ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتى يوم تكون مصر فيه بيد المصريين، وهم لا يخفى عليهم شىء من الخلل الحاصل فى المراقبة ومستعدون للكشف عنه وهم يعلمون ان كثيرا من

المستخدمين فى المراقبة لا يقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة .

٤ - رجال الحزب الوطنى يبتعدون عن الاخلاط الذين شأنهم إحداث القلاقل فى البلاد، اما لمصلحة شخصية تحسن بها أحوالهم أو خدمة للاجانب الذين يسوؤهم استقلال البلاد وهؤلاء الاخلاط كثيرون فى البلاد ، والمصريون يعلمون ان الصمت على حقوقهم لا يخولهم الحرية فى بلاد ألف حكامها الاستبداد وكره الحرية، وان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين . وقد عرفنا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه السنين الاخيرة، وعقدوا خاصرهم على توسيع نطاق التهذيب، وان يكون ذلك بواسطة مجلس الشورى وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الامة .

٥ - الحزب الوطنى حزب سياسى وليس حزبا دينيا وهو مؤلف من رجال مختلفى الاعتقاد والمذاهب وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها ينضم لهذا الحزب .

٦ - آمال هذا الحزب محصورة فى اصلاح حال البلاد ماديا وأدبيا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين .

واكتملت الاجراءات وتمت الانتخابات وحل «اليوم الذى تعلقت به آمال النبهاء واتجهت اليه رغبات النجباء وتشوقت إليه عيون العقلاء

ولهجت به ألسنة الاذكياء» ، وكان ذلك يوم افتتاح المجلس كما وصفته صحيفة الوطن «اليوم الذى يحسب عزة فى جيد تاريخنا يوم الاثنين المبارك من شهر صفر ١٢٩٩ هجرية و ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ميلادية والذى يفتتح فى صباحه مجلس شورى النواب .

وأقيمت الافراح فى كل أرجاء المدينة .

«احتفل الناس فى المساجد والكنائس والمعابد وزينوا المآذن الشهيرة بأنواع المصابيح وأقاموا فيها الشعائر الدينية، تم تلاوة القرآن وترتيل الاذكار شكرا لله على ما أولاهم من نعمة الشورى التى تزيد فى بهاء البلاد ورفعة شأنها وسرورا بالايام الشورية التى كثيرا ما حنوا اليها وتشوقوا لبلوغها .

وقام جمع من النواب والوجهاء والنوات ووجوه العاصمة بزيارة المقام الحسينى رضى الله عن صاحبه، وظلوا به ما بين أنوار تتلألأ مصابيحها وبركات يلتمسونها وقلوبهم فرحة بما أوتوا من الفضل وما بلغوا من منازل الكمال . وبعد أن أدوا سنن الزيارة واستمعوا الى ما تيسر من القرآن الشريف وتبادلوا عبارات التهانى وجعل الاستبشار قصدوا مقام السيدة زينب عليها رضوان الله، ودعوا الله معا بالتوفيق الى صالح الاعمال ومنافع العباد ثم طافوا وزاروا مساجد كثيرة بما اتخذت من الزينة وأقيم فيها الاحتفال .

ثم توجهوا الى بطركخانة الاقباط حيث كانت مزدانة بالانوار مهيأة بأبهى الهيئات فمكثوا فيها غير قليل من الزمان، وقد تعارفت النفوس وتواردت القلوب واتحدت وخرجوا منها وعلى الوجوه تلوح سمات السرور وبالجملة فقد كانت ليلة زاهية باهية . أحيتها النفوس بتلاوة الكتاب العزيز والاذكار القدسية ما بين تهاني وعبارات محبة ووداد وتهنئة البلاد بما أتاها الله من الفضل وما أنعم عليها من وسائل العدل.

وأفردت الصحف مكانا خاصا أبرزت فيه .

«الاحتفال الذى أقامه جناب غبطة بطريرك الطائفة القبطية وكان احتفالا مقدسا فى الكنيسة الكبرى ، بافتتاح مجلس الشورى وشكر الله على هذه النعمة التى «أسداها اليهم» .

وقد حضر جمع من أبناء الطائفة واعظمها وأدوا فرائض الشكر وواجبات الحمد على تلك المنحة العليا، ورفعوا أكف الضراعة داعين للجناب الخديوى بدوام العز مؤيدا بوزرائه معززا بهذا المجلس المبارك الميمون الذى سيكون مطلعاً للمنابع ومجلبة لخير البلاد المصرية وينعيم بال ابنائها وتنظيم حالها .

وبعد أن أتموا الاحتفال على ذلك الوجه المليح أمر جناب غبطة البطريرك بأن يعد احتفال ليلة الثلاثاء أى مساء اليوم الذى أقيمت فيه رايات الشورى وتهيأ الأكليروس والمرتلون وأرباب الطائفة لإقامة هذا

الاحتفال وزينت الكنيسة بالاضواء والمصابيح، وغصت بوجوه الملة وعظمائها ونبهائها والمرتلون يرتلون آيات كتابهم ويدعون بأدعيتهم القبطية ويقرأون ادعية باللغة العربية، وفى غضون ذلك حضر حضرة سلطان باشا رئيس مجلس الشورى ومعه حضرة محمود بك العطار وحضرة عبد السلام بك المويلحى وغيرهم من نبهاء النواب وجلسوا يستمعون لهذه التراتيل والقرارات، ثم اشار جناب البطريرك على الاغوماسى فيلوثاؤس رئيس الكنيسة فقام مقالا «تبارك الله الملك العزيز الآمر فى كتبه على لسان انبيائه بالتمسك بالقوة والتحلى بصفات الكمال أن هذا اليوم بحول الله يوم ميمون بزغت فيه شمس الشورى على أبناء هذه الديار فهنيئا لهم وقد وانتهم وهم على شوق إليها وتلهف عليها وعلم بفوائدها وما تدرج اليه الكمال فلابد اذا امتلأت القلوب سرورا بقوم رفعت فيه أياتها يوم يفتخر به التاريخ المصرى ويتباهى به المصريون جميعا يوم يحسب من مفاخر خديويتنا التوفيقية ووزارتنا التشريعية جعل الله مهمة اعضائه الكرام مجلسا مباركا على البلاد وأهلها تنبعث به منافعهم وتنشأ عنه مصالحهم .

وحيث اننا معاشر أبناء الطائفة القبطية مصريون أصلا فإن خير مصر خيرنا وسعادتها سعادتنا وتعم جميعنا فعلينا ان نشكر الله على أولانا هذا اليوم السعيد» وأمن عليه المرتلون تأمينا صادرا عن مزيد

الاخلاص وبعد أن انتهوا انصرف الجميع فرحين يهنىء بعضهم بعضا على هذه النعمة العظمى »

وأقام الجيش حفلة كبرى حضرها جمع هائل من الضباط والذوات والاعيان والعلماء وأهل الرأى . وألقى الصاغقول أغاسى محمد منيب كلمة قال فيها :

«لقد كنا على شفا حفرة من النار انقذنا منها، ولا يغرب عن أحد أن أحوالنا فى الزمن القديم كانت لا تسر الغائب ولا الحاضر لأننا كنا جميعا فريسة للظالمين ولا نجد سبيلا لرفع أى ظلم أو جور ، كانت ثروتنا منهوبة وأمتنا مغلوبة والحمد لله نلنا الآن ما نتمناه وحصلنا على ما طلبناه وما تحقق ذلك الا بالاجماع فيما بيننا وأننا أصبحنا جسداً واحداً قوى العضد والساعد .

ودامت الحفلة حتى آخر الليل فى كل لهجة وسرور .

كانت مصر كلها فى عرس وفرح كبير كتب ويلفريد سكاون بليت : «كانت سعادة الناس جميعا غامرة وبلا حدود، البلاد جميعا تفيض بالفرح وبالنشوة لنجاح الثورة الديمقراطية السلمية ولم يخالج أحد الشك أنها تحمل لهم جميعا الخلاص مما عانوه خلال الحقب الماضية .

ولا أظن أننى شهدت فى حياتى مثل السعادة الجماعية التى عمت أهل القاهرة خلال الأشهر الثلاثة الماضية والتى نفذت الى كل ركن فيها كان كل شبر يفيض بالسعادة وكانت الثقة واليقين تسود الجميع وأنهم

على أبواب مشروع وطنى عظيم سوف يشاركون جميعا فى تحقيقه ولا أظن أن ضفاف النيل قد سبق لها أن عاشت مثل هذه الايام .

« كان الناس يتعانقون فى الشوارع وكانت المقاهى توزع المشروبات مجانا على المارة والزبائن » .

لم يقدر لهذه الفرحة الغامرة أن تدوم أكثر من عدة أيام وفوجئت البلاد برياح السموم تهب من حيث اعتادت أن تفعل دائما .

فجأة تقدم القنصلان البريطانى والفرنسى بمذكرة انجلو فرنسية مشتركة الى الخديوى ومجلس الوزراء قالت : «ترى الحكومتان البريطانية والفرنسية ان بقاء سمو الخديوى على العرش بالشروط التى حددتها الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسميا هى الضمان الوحيد فى الحاضر والمستقبل لاستقرار النظام فى مصر ولتحقيق الرخاء المضطرد وهما المسألتان اللتان تهمان كلا الدولتين فى المقام الاول.»

وتتفق الدولتان فيما بينهما اتفاقا تاما وتصممان على القضاء على كل اسباب الاضطراب الداخلى والخارجى مما يمكن ان يهدد النظام فى مصر .

ولا يداخل الدولتان أى شك فى أن سمو الخديو سوف يستمد من هذه المذكرة كل الثقة التامة .

وصعقت البلاد لهذا التحريض والاستفزاز السافر وردت الحكومة بالعنف الواجب .

(ليس لهذه المذكرة أدنى مبرر وهى ليست اكثر من دعوة صريحة للدس والوقيعة بين الحكومة ومجلس النواب ، وهى تحريض صارخ لتقويض سلطة برلمان منتخب انتخابا صحيحا واغراء للخديوى بالاعتماد على القوة الاجنبية ضد مصلحة شعبه وهو الأمر الذى ترفضه الحكومة رفضا باتا) .

وكتب جون لشعبه فى مجلة «السبيكل» : «إن المذكرة تعنى فى ترجمتها الصحيحة أن الدولتين ينذران المصريين بأن يذكروا دائما ولا ينسوا قط وأن يجعلوا نصب أعينهم ان مصيرهم محتوم وأن الدولتين هما اللتان تقرران وقد اتفقتا على ذلك وهما ينتظران اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية .

ولم يكن قد مضى اكثر من اسابيع على مذكرة جرانتيل التى طمأنت المصريين على موقف بريطانيا من قضيتهم ووقع القنصل ماليت فى أشد الحرج وحاول ان يفسرها بحجة أنها موجهة أساساً الى السلطان العثمانى حتى لا يتدخل فى شئون مصر وتارة أنها صدرت بضغط رئيس وزراء فرنسا غمبتا » .

وسخر عرابى من التفاسير وصرح «أرجو ان لا يعاملنا السير ماليت كالاطفال » .

وبعث السير ادوارد ماليت الى رؤسائه فى لندن يقول «إن كل ما فعلته المذكرة أنها وحدت صفوف الجميع، ولم يعد هناك معتدلون أو متطرفون ولا مدنيون أو عسكريون ويقف الجميع فى صف واحد المجلس والجيش والنظار» .

واهتدى رئيس وزراء فرنسا الى حل أيدته بريطانيا للتخريب من الداخل و أعلن فى مجلس النواب الفرنسى :

«لابد أن يدرك مجلس النواب المصرى الجديد أنه لا يمكن ان يملك حق مناقشة أى من المسائل المالية التى تظل وقفا على المراقبين البريطانى والفرنسى، وعليه أن يقصر اختصاصه على المشاكل الادارية، والقضايا الثانوية ، وهذا ما يتفق مع طبيعته وقدرته ومع نشأته المتواضعة .

ولم يتأخر الرقيبان الماليان السير «أوكلاند كولفن» البريطانى والمسيو «دى بلنير» الفرنسى، وتقدما بمذكرة حازمة صارمة تطلب الى الحكومة ان تحذف من الدستور كل المواد المتعلقة بالمالية المصرية وان ينص على عدم مناقشتها فى المجلس .

كان تجريد المجلس من أول حقوقه ، وإفراغ الدستور من أهم نصوصه ، وقد كان استرداد السيادة على مالية البلاد والحل الوطنى لقصة الديون هو أول الاهداف ، ولم يخف على أحد أن ذلك بداية سلسلة من الاستفزازات لابد من قمعها فى المهد ؟ .

وثار الجدل والنقاش العام واحتدم وانتهى بأن خرج رئيس الوزراء ينصح بضرورة التنازل وكانت الميزانية تنقسم الى قسمين أحدهما يتعلق بالتزامات مصر الدولية ، الجزية العثمانية ونفقات خدمة الدين بفوائده وكوبوناته وأقساطه وقانون التصفية العامة. والثانى يتضمن الميزانية العادية للدولة .

واقترح النواب الفصل بين الجزءين وبحيث يخضع الاول لاختصاص الرقابة الاجنبية ويظل الجزء الثانى من اختصاص المجلس ، ولم يحدث أن تنازلت دولة لدولة أخرى عن اختصاصها بمناقشة ميزانية بلدها .

وعرض الامر على الدولتين ولكن أصرتا على الرفض البات وتجديد الانذار، ولكن كانت المفاجئة موقف رئيس الوزراء «أبو الوطنية والدستور» الذى ارسل مذكرة الى المجلس ، لم يستطع أن يتلوها مباشرة وطلب الموافقة على طلب الدولتين حتى تنقشع الغيوم.

وثارت ثائرة المجلس ورد المجلس بمذكرة مضادة .

«تمسك مجلس شورى النواب بحقه الطبيعى فى ان يراقب باسم الأمة أعمال الحكومة فى مجموعها ، وخاصة كيفية التصرف فى موارد البلاد وماليتها طالما أنه يحترم جميع الاتفاقيات الخاصة بالديون وبالموظفين الاجانب، يصر المجلس على ان يحتفظ بحق النظر والفصل فى الايرادات والمصروفات، وذلك حتى يستطيع أن يصل الى تسوية شاملة للديون فى أسرع وقت ممكن » .

وتنديدا بموقف الدولتين ، وكشفا لخفايا «المؤامرة» نشرت لجنة المالية بالمجلس ، تقريرا مسهبا ... كشف الفضائح التي ارتكبتها الرقابة الثنائية والتي حرصت على اخفائها بأحط الوسائل، وكشفت عن مدى استئثار الموظفين الاجانب بالمناصب الرئيسية في كل المرافق، وعن مدى فسادهم الصارخ في تزوير حسابات الفوائد والكوبونات واقساط الديون .. وكان لنشر التقرير دوى كبير في الداخل والخارج .

وكتب تيودور روتشين في كتابه «دمار مصر» :

انصب كفاح المصريين على تأكيد حقهم في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يكونوا يستطيعون ذلك اذا ما حرموا من حقهم في مناقشة وتقرير مالية بلادهم وميزانيتها ، وقد كان البرلمان الروسي «الدوما» أبعد ما يكون عن الديمقراطية ولكنه كان يكفل لاعضائه هذا الحق ولا يصرف روبل واحداً من الميزانية بغير موافقته .

ولم يجد المراقب البريطاني أوكلاند كولفن ، و كان من غلاة الاستعماريين حرجا في أن يصرح :

«قد تكون الحركة الوطنية المصرية حقيقة وتسعى للاصلاح ولكن هذا لا يعطيها بأي حال الحق في أن يكون لمجلس نوابها أي اختصاص بالشئون المالية أو مراقبة أي ادارة في الحكومة يرأسها أوروبيون لأن مثل هذه الادارات هي ركائز الاصلاح » .

وحينما بدأ المجلس نظر الميزانية ولم يعبأ بانذارات الدولتين ، تقدمت الدولتان بمذكرة أشد لهجة أذيعت على الرأى العام وقالت :

« لقد تغير ميزان السلطة فى مصر وانتقلت كل السلطات فيها الى مجلس النواب والى القادة العسكريين الذين يفرضون نفوذهم عليه . وهذا انقلاب خطر وتغيير جوهرى زعزع سلطة الخديوى وسلطة النظار واضطرد التدهور نتيجة له ، ويتعاظم كل يوم ، وقد أصبح مجلس النواب الذى كان مجرد دمية واداة طيعة فى عهد اسماعيل ويوافق على كل ما يعرض عليه مهما كان ظالما ، أصبح قوة ويصر على التمسك بحقوق تناقض كل ما نصت عليه المواثيق والاتفاقات الدولية . »

وكانت إهانة للمجلس وللأمة عامة ، وزادت من صلابة الاعضاء وصمودهم ولكنهم فوجئوا وصدموا بمجلس النظار كله يطلب الى النواب قبول مطالب الدولتين لان الموقف دخل دائرة الخطر .

ودعا المجلس الاعضاء الى جلسة طارئة لمناقشة هذا الموقف العصيب وشهدت الجلسة اجتماعا ملتهبا انتهى الى اختيار لجنة فرعية من ١٥ نائبا ، يتولون دراسة الموقف والفصل فيه .

ولم تستغرق اللجنة طويلا فى البحث وانتهت بمذكرة مضادة الى مجلس النظار تؤكد فيها اصرار النواب على رفض مطالب الدولتين، وأن على رئيس مجلس النظار وفقا «للدستور» أن يستجيب لهذا القرار أو أن يقدم استقالته .

ورفض رئيس الوزراء الاستجابة للدستور الذى أشرف على وضعه وأعلن أن حق إقالته لا يملكه سوى الخديوى، وعلى الفور ردت اللجنة بمقابلة الخديوى، وشرحت الموقف وطالبته رسميا بأن يقيل الوزارة قبل

أن يسحب المجلس ثقته بها ويسقطها ، وطلب الخديوى مهلة من الوقت استدعى خلالها شريف باشا وطلب اليه أن يستقيل .. ولم يملك سوى الاستجابة .

ولم ينتظر رئيس وزراء فرنسا «جميتا» الذى بدا أنه فجع بالنبأ وأعلن فى تصريح فى البرلمان الفرنسى «لابد أن نتشبث بموقفنا وأن لا نتراجع وأن لا يفت فى عضدنا ما حدث، لابد أن نواصل أقصى جهد حتى نمنع مجلس النواب من أن يمس ما له علاقة بالميزانية واى تراجع منا سوف يشجعهم على بسط سلطتهم على كل شىء وسوف يكون ذلك نهاية المراقبة الثنائية وانهيار مصر وماليتها عامة » .

وكانت استقالة شريف تدشينا للديمقراطية وتعميدا «صحيا» للمجلس ولكنها كانت فى نفس الوقت انتكاسة للمسيرة وأول شرخ للجبهة الوطنية !! .

خرج شريف باشا من الوزارة مفعما بالمرارة معلنا ان ما حدث كان جحودا وانقلابا موجها الى شخصه وتهورا سوف يسوق الى الكارثة .. وعاودته عقدة «العسكريين» الذين أتوا الى الحكم ، وقدموا له كل الضمانات والترضيات والى آخر مدى ، وانتهى إلى إهانة الجميع . حين صرح الى ويلفريد سكاون بليت بعد استقالته :

«انهم اطفال وقد حاولت أن أعلمهم الديموقراطية ولكنهم يريدون جرعات أكثر مما يستطيعون هضمها» .

وكتب الشيخ محمد عبده :

«كان شريف من أقدر عوامل النهضة وكان من الداعين الى أن النفوذ الاجنبى قد بلغ حدا لم يكن ممكنا أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا ويسلم للاجانب بكل ما طلبوه، وكان شريف يقنع جلساءه بأنه اذا ملك زمام السلطة سوف يوقف الاجانب عند حدهم ، ولكنه كان على نزاهته ضعيف الشخصية وكان من المعتدلين الذين يسلمون بالامر الواقع ويعملون على الاستفادة منه جهد الطاقة حرصا على مصالح البلاد» .

وكان يمكن ان يظل الخلاف فى الاطار الوطنى ، ونواة تعددية أو تنوعا فى الاراء على نسق الاحزاب والبرلمانات الاوروبية ولكن استبدت به المرارة والنقمة ودفعته للانزلاق خارج الاطار .. وصرح للقنصل البريطانى ماليت :

لم تعد هناك أى جدوى أو فائدة ، ولا مناص من التدخل على أن يكون ذلك بواسطة قوات تركية» .

وقد اعترف شريف باشا فى نهاية حياته بما حدث للمحامى البريطانى برودلى :

«اعترف لى شريف باشا بأنه راضٍ عن نفسه تماما وأنه مقتنع بالطريق الذى اختاره وبكل التنازلات التى قدمها وصرح لى فى تفصيل طويل قصة الحركة الوطنية المصرية وأنه مؤسسها. وأن عرابى عمل

على إزاحته ليحتكر الدور لنفسه ولكنه لم يدرك انه كان من المستحيل عليه أن ينجح لأنه كان وظل مجرد فلاح لا أقل ولا أكثر» .

وعبرت المسيرة الشرخ كتب السير ويليام جريجورى متعاطفا مع مصر كتب في التايمس :

«هناك حزب وطنى في مصر يضم كل من تفتح وعيهم واستقطبت وطنيتهم من المصريين، ولم يعد ممكنا أن يتنازل أحد منهم عن أى مطلب بمحقق لهم منذ ثورة سبتمبر» .

ولم يضل «الاطفال» ويتشتتوا وتطلعت كل الأنظار الى رجل واحد لم يختلف أحد أنه كان «رجل الساعة» «البارودى» .

وحينما ذهبت لجنة الخمسة عشر الى الخديوى لتبحث معه مسألة رئيس الوزراء الجديد طلب اليهم ان يختاروا الرئيس الذى يفضلونه ولكن «لانهم كانوا يعرفون مقاصد سموه وأنه يريد أن يبدو مكرها مرغما أمام القناصل والاجانب فقد اعتذروا وقالوا أن هذا من حقوق سموه بمقتضى الاصول والاعراف الدستورية .

وأصر الخديوى على أن يختاروا وأصروا بدورهم على ان ذلك من حقه وحده وبعد أخذ ورد طويل انتهى الامر الى اختيار محمود سامى البارودى وعم البلاد فرح عظيم .

كان أعرق حسبا ونسبا وأعمق جذورا في الأرض من شريف لقد كان جده من الامراء المماليك الذين قضى عليهم محمد على في مذبحة

القلعة ، وكانت اسرته تنتمى الى السلطان المملوكى الاشرف برسباى، ولم يدفعه ذلك الي الحقد ولكن الي البحث عن الحرية والعدل .

وقد كان أحد تلاميذ ومريدى الافغانى وقال عنه ذات يوم «محمود سامى أفضل من عرفت من المسلمين» .

وقد تدرج في كل المناصب العليا السياسية والعسكرية والادارية وتميز عن الجميع بثقافته العميقة سواء العربية والتركية والاوربية ، والتى جعلت منه أعظم شعراء العربية فى القرن الماضى. وكان المجدد الذى حرر الشعر العربى من الجمود والصنعة وجعله تعبيرا عن هموم الامة وعن الثورة، وقد انحاز للوطنيين منذ البداية وهو الذى انقذ الثورة من مؤامرة رياض وعثمان رفقي لاستدراج القادة الى قشلاق قصر النيل والقضاء عليهم ، وحذرهم منها .

وقد انتهت به ثقافته ووطنيته الى الايمان بالنظام الجمهورى وان تكون مصر جمهورية وديمقراطية على النسق السويسرى ، ثم الى الايمان بالفكرة العربية ، وان تكون مصر دعامة جمع شمل الامة العربية ، وكان أول من يعنيهم الخديوى فى خطابه الى السلطان يحذره من «عروبة» الحركة .

وكان محمود سامى رجل الدولة بقدر ما كان عرابى الزعيم ، وكانا متكاملين يؤمن كل منهما بالآخر .ويروى عرابى :

«جاءنى محمود سامى باشا ذات يوم وأطنب فى الثناء على قيامى بنشر راية الحرية فى مصر بعد خمسة آلاف سنة على المصريين، وهم

يرسفون فى قيود الاستبداد والاضطهاد، ثم اقسم أنه مستعد لان يضحى بحياته ويجرد سيفه ويجود بأخر أنفاسه وآخر نقطة من دمه، وينادى بى خديويا على مصر اذا ما أردت ذلك، وقلت له يا محمود باشا إنى لا أريد سوى تحرير البلاد ولا أرى سبيلا لذلك الا بالمحافظة على الخديوى كما صرحت مرارا وتكرارا، وليس لى أصلا أى طمع فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ولا أريد انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر. وقال محمود باشا أنا لا أقول إلا حقا وانت أحق بهذا الامر منى ومن غيرى، وشكرته وانتهى الامر » .

لم يكن محمود سامى يعانى من عقدة شريف العنصرية والطبقية والتى انتهت به الى السقوط ، وكان أبعد نظرا من عرابى ولو تحقق ما أراد لما تأخر وصول «الفلاح» الى ذروة السلطة أكثر من سبعين عاما دامية !! .

وتولى عرابى وزارة الجهادية والبحرية وتألفت وزارة مواجهة قادرة على تعبئة الشعب والجيش والاستعداد لكل الاحتمالات .

كانت أفضل وزارة تعرفها مصر وبها اكتملت سيطرة الحزب الوطنى علي السلطة ، كما كتب جون نينه .

وبعث الخديوى بخطاب تكليف الى محمود سامى يفيض مدحا وتكريما لم يصدقه أحد قال :

عزيزى محمود باشا سامى

إن فى قبولكم تأليف هيئة نظارة جديدة مع ما فى ذلك من عظيم الاهمية دليلا قويا على حسن اخلاصكم وشدة غيرتكم، وانى لم اكلفكم باحتمال أعباء هذا المسند العظيم الا لعلمى بحميتكم ووثوقى بإخلاصكم التام بما أديتم من الخدمات السابقة الصادقة فيما تقلبتم فيه من المصالح المتنوعة، وانى موافق على احتواء تقريركم من المبادىء المهمة التى هى اساس العدل والحرية ورابطة للنظام وكافلة باستقرار الامن وشموله جميع سكان الديار المصرية» .

وبدأت النظارة العمل وكانت تدرك أنها تسابق الزمن وكان أول ما عجلت به هو اصدار الدستور وقانون الانتخاب فى الصيغة النهائية والتى أرادها وقررها النواب .

وفى يوم الاربعاء ٨ فبراير حضر رئيس النظار الى مجلس النواب ومعه اللوائح مقررة وقوبل بالتعظيم، وسر النواب لنفوذ رأيهم وشكروا النظارة الجديدة على ذلك، ثم وقف محمود باشا سامى وألقى خطابا قوبل بالموافقة والتأييد وقام سلطان باشا رئيس المجلس وأجاب على خطاب رئيس النظار وبين فوائد الاتحاد والالفة والغيرة والهمة وشكر الوزارة تلبيتها لمطالب مجلس الامة فى تقرير الدستور .

وتقرر يوم ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ يوما تاريخيا خالدا فى تاريخ مصر يوم التصديق على الدستور الذى اجتاز كل «العوائق والنوائب» منذ

صيغته الاولى فى يونيه سنة ١٨٧٩، واقيمت الاحتفالات فى أرجاء البلاد فرحا بالدستور، واحتفلت جمعية المقاصد الخيرية احتفالا عظيما اجتمع فيه النظار والامراء والعلماء وضباط الجهادية واعيان مصر وشبابها حتى ضاقت قاعة الحفلة بالحضور ، وقام السيد عبد الله افندى النديم وافتتح الخطابة، واقتدى به كل من أديب أفندى اسحاق اللبنانى وابراهيم افندى اللقانى ومصطفى افندى ماهر والشيخ محمد عبده والسيد حسن افندى الشمس وفتح الله صبرى واستمرت الخطب تتلى فى تلك الحفلة الى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل) .

وتتالت الوفود من جميع أنحاء القطر للشكر على تأليف نظارة وطنية حرة يتولى فيها محمود باشا سامى رئاسة النظارة ويتقلد عرابى نظارة الجهادية والبحرية .

وألقى رئيس الحكومة فى المجلس بيان الحكومة الشامل والذى جعل شعاره الحكمة والاعتدال وقال فيه :

(كان أول أعمال النظارة التصديق على القانون الاساسى الذى وضعه المجلس، والذى يكفل احترام العهود والمواثيق الدولية ورعاية جميع الحقوق والواجبات وعدم المساس بأى شرط يتعلق بالدين وتشديداته والتزاماته، ولكن يبقى لمجلس النواب حق مساءلة النظار وحق نظر الميزانية بوجه الحكمة والاعتدال) .

وتنص المادة الرابعة والثلاثين على أن جزية الباب العالى ونفقة الدين العام وكل ما له صلة بهذا الدين من نتائج قانون التصفية

والاتفاقات الدولية كل هذا لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال موضع مناقشة المجلس، أما باقي الميزانية فيبحثها ويقترح عليها لجنة مؤلفة من النظار ومن عدد يماثلهم من النواب الذين يعتد بهم المجلس .

وعلقت مجلة الريفويم الفرنسية المناصرة للوطنيين :

«هكذا أصبحت حقوق الدائنين مضمونة ضماناً كافيا في حين أن سلطة المجلس على الابواب الحرة من الميزانية قد ردت الى الحد الادنى وذهبت الحكومة الى أقصى مدى وابطلت كل ذرائع الدولتين» .

واستبشر الجميع وطربوا حينما وردت الاخبار بسقوط وزارة «غمبتا» في فرنسا سقوطا مشينا وتولي وزارة جديدة برئاسة المسيو فريسنيه أعلنت في أول بيان لها في مجلس النواب الفرنسي عن رفضها لموقف الوزارة السابقة ازاء مصر، وأن الحكومة في مصر، هي أفضل حكومة تولت السلطة وعلى أوروبا أن تتعاون معها وأن تكف عن التدخل في شئون مصر الداخلية وأن يعطى المصريون الفرصة ليقوموا بحل مشاكلهم بأنفسهم .

وعزز رئيس الوزراء الفرنسي الجديد سياسته بتعليمات واضحة الى القنصل الفرنسي بأن يكف عن التدخل في شئون مصر ويلزم الحذر والتحفظ ويحسن صلاته بالحكومة القائمة التي تحترم الاتفاقات الدولية وتحقق الامن والاستقرار .

وتلا ذلك قرار بسحب العضو الفرنسي في الرقابة الثنائية والذي كان ذات يوم وزيرا للاشغال العامة في وزارة نوبار باشا وأعتاد أن

يتدخل فى كل شىء واشتهر بانحيازه وعدائه المتطرف للوطنيين، وقال رئيس الوزراء الفرنسى :

إن الوقت حان لاستبدال المسيو دى بلنير برجل يكون أقل تدخلا فى الشئون الداخلية المصرية، وهو أمر طالما أدى الى مشاكل وأضرار بالغة بالمصالح الفرنسية .

وشد ذلك من عزيمة النظارة وتقدمت ببرنامجها الى المجلس، وكان برنامج انقاذ وطنى للاصلاح العام قام على دعائم ست هى :

١ – تثبيت أركان النظام الشورى.

٢ – اعادة بناء الجيش والاسطول.

٣ – الاصلاح الشامل للتعليم بكل درجاته.

٤ – القضاء التام على السخرة.

٥ – انشاء بنك وطنى.

٦ – سداد الدين بالموارد الداخلية.

كان النظام الشورى هو الاطار الافضل للبحث والتوصل الى أفضل الحلول ، وكانت القوات البرية والبحرية هى الدرع الذى يحمى النظام والوطن ويبطل التهديدات المتصلة بالتدخل . وكان التعليم هو السبيل لتعبئة الامة وايقاظ وعيها واطلاق قدراتها وكان القضاء على السخرة مطلبا وطنيا منذ بداية عصر اسماعيل ، وكان قضاء على الوصمة التى تقف امام أى اصلاح للريف والتى يتخذها الاجانب دائما حجة للتنديد

والتشويه ، وكان انشاء البنك الوطنى اساسا لترسيخ وتوطيد الاقتصاد ومواجهة غزوة البنوك الدولية والاجنبية وانتشال الفلاحين من براثن المرابين ، واذا ما تحققت هذه الاصلاحات، فان تحقيق الهدف الرئيسي وهو سداد الدين يصبح ممكنا ، اعتمادا على الموارد الوطنية ، ولا تبقى أى ذريعة للتهديد والتدخل .

وقد عنيت الوزارة بمشروع البنك والذى كان الاول من نوعه وأفاضت مذكرة المشروع فى شرحه للرأى العام ولمواجهة الرقابة المالية التي تقف بالمرصاد لكل محاولة وطنية لتحرير وتطوير الاقتصاد .

وبدأت مناقشة برنامج الحكومة فى المجلس بخطاب ألقاه سلطان باشا رئيس المجلس قال فيه :

إن كلاً منا يعتبر وكيلا عن عموم الامة وليس فقط عن الجهة التى انتخبته وإن مشروعات اللوائح والقوانين تقرر من جانب الحكومة ويقدمها مجلس النظار الى مجلس النواب لبحثها واعطاء القرار اللازم ولا يعتبر أى مشروع قانونا معمولا به قبل أن يناقش فى المجلس جملة وتفصيلا ، ثم يجرى التصديق عليه من جانب الخديوى - واذا ما ترامى للمجلس سن قانون وطلبه من مجلس الوزراء فلابد وان يجاب الى طلبه ولأعضاء مجلس النواب .

وأكد رئيس المجلس مرة أخرى أن للمجلس الحق فى نظر الميزانية ومناقشتها ولا تعتمد الميزانية الا بعد اقرار المجلس عليها وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية .

أما بالنسبة للجزية المقررة للباب العالى وكافة الالتزامات والعهود الدولية فقد تقرر عدم المساس بها .

وكانت دورة المجلس من ٦ فبراير الى ٢٦ مارس لسنة ١٨٨٢ حافلة حامية ودحضت كل الافتراءات حول أهلية الامة .. لان تحكم نفسها بنفسها .

ناقش الاعضاء كل المشاكل وأهمها وأعقدها، وطرحوا كل الحلول فى حوارات خصبة مستفيضة، نوقشت قضية التعليم مناقشة شاملة ومشكلة القضاء والمحاكم سواء الاهلية أو المختلطة وقانون الانتخاب الجديد وقانون تنظيم التجارة، ثم نوقش قانون إلغاء السخرة حجر الاساس فى تحرير الأرض والفلاح ، ونوقشت مشروعات الرى الكبرى واستصلاح وتوسيع رقعة الأرض المزروعة وتحسين انتاجها .. وطرحت نواة مشروع خزان أسوان وترشيد الرى ، ونوقش بالطبع مشروع البنك الوطنى .

طرح عبد السلام بك المويلحى قضية التعليم على اعتبار انه اساس المجتمع وقدم اقتراحا للنهوض بمستوى التعليم ويقضى بأن يقوم كل عضو من أعضاء المجلس القادرين بإقامة مدرسة ابتدائية على نفقته على أن تقوم نظارة المعارف بارسال المدرسين . واحتلت قصة السخرة

أكبر قدر من الاهتمام، وقدم محمد افندى الشاذلي قانون السخرة في الاشغال العامة مثل حفر الترع وتطهيرها، وان لا يقع أى حيف أو جور على الفلاحين خاصة فى أراضي الجفالك والابعاديات الواسعة وفى أراضى الحكومة .

وناقش المجلس قضية اصلاح القناطر الخيرية وانشاء قناطر جديدة حتى يمكن السيطرة على المياه عند الحاجة اليها، وناقش المجلس ضرورة ربط البلاد بعضها ببعض بشبكة من خطوط السكك الحديدية على أن تصل إلى مديريات اسنا وقنا وجرجا بما يؤدى الى توسيع العمران وتحقيق وسائل الاتصال ، وناقشوا قانون تنظيم التجارة حتى لا يضار الاهالي وتنهار البلاد .

واستدعى المجلس ناظر المعارف وناظر الاشغال للرد على أسئلة واستفسارات الاعضاء ومناقشة المقترحات التى تقدموا بها والاتفاق على وضع الحلول طبقا لاهميتها .

وطالب الاعضاء الحكومة بارسال صور المعاهدات التى تم إبرامها مع الدول الاجنبية حتى يكون المجلس على علم ودراية ببنودها .

وانصب جهد ناظر الجهادية والبحرية على إعادة تنظيم الجيش والاسطول، وكانت شخصيته وشعبيته كفيلة بأن تبعث روحا جديدة على استعداد لحماية ما تحقق من انجازات .

سادت الثقة والطمأنينة وبدا المستقبل متفائلا رغم كل التحديات .

كما قال جون نينيه ..

ولم تبارك الدولتان ما حدث وتتعايش معه ، ثار أشد القلق خاصة من الاصلاحات العسكرية في القوات المسلحة وتغيرت الادوار، وأصبح اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا هو الذى يمارس الضغط على فريسنيه رئيس وزراء فرنسا وارسل اليه مذكرة تقول :

«الموقف يتفاقم ويكاد يفلت ولا مناص من التدخل العاجل فى مصر.»

وبدأت الصحف البريطانية التمهيد لحملة محمومة تؤكد أن انقلابا خطيرا وقع في مصر وان العصابة العسكرية اغتصبت السلطة كاملة وتسيطر على كل شيء فى البلاد .

وكتب عضو الرقابة الثنائية البريطانية اوكلاند كولفن الى لندن يقول:

«وقع النظام بأسره في يد عسكريين تستبد بهم النشوة لممارسة السلطة المطلقة، ولم تعد الرقابة المالية تعنيهم فى شيء ولا يكترثون بها ولم يعد هناك معنى لبقائها لانها أصبحت مشلولة تماما .

وعزز القنصل البريطاني الذى تحول مع وزيره من النقيض الى النقيض .

«تكشف الآن كل ما كانوا يتشدقون به من الدعوة الى الحرية والعدالة وثبت أن كل ما يهدفون اليه هو السيطرة العسكرية على السلطة كاملة . وقد أصبح عرابى حاكما مطلقا يتصرف كما يشاء ويرفع ويفصل من يشاء .

وأضاف :

«وقد عادت الرشوة بأسوأ مما كانت من قبل ويساعد ذلك كثرة التغيير والتبديل في الموظفين والمحسوبية في التعيين .

وأدلى شريف باشا بدلوه . ولم يعد يتحرج أن يصرح لمراسل التايمس :

«لقد كان عرابى هو الذى عمل على إزاحتى من السلطة حتى يستولى عليها الحزب العسكرى، ولم يعد هناك أمل للخلاص من هذه الاوضاع إلا بالقوة .

وسخرت صحيفة الهيرالد المعارضة من التقارير فى الصحف الكبرى وقالت :

« يبذل كولفن وماليت كل ما فى وسعهما لافتعال أزمة أو تدبير حادثة للتعجيل بالتدخل الذى تسعى اليه حكومتنا الموقرة ، ولا يجدان مخرجا سوى لصق لافتة الحكم العسكرى بالوزارة التى تسعى الى الاصلاح ».

وبعث ماليت تحذيرا :

«اذا ما استمر هذا الحال طويلا فاننا سوف نفقد كل ما لدينا من نفوذ ولا أعتقد أنه يمكن لنا أن نستعيد ما فقدناه بغير تصفية الحكم العسكرى الذى ترزح مصر تحت وطأته الآن .

ووضع القنصل استراتيجية الخلاص وأضاف :

وفى اعتقادى ان لا مناص من أحداث مثيرة يبدأ منها الحل النهائى للمسألة ولابد وأن يتم ذلك عاجلا .

وعلق عرابي على ما يتم قائلا :

«لما رأت انجلتره نجاح الحزب الوطني في أعماله وتأليفه وزارة وطنية حرة وأن الوزارة صادقت على قانون الاساس «الدستور» ولائحة انتخاب أعضائه . وصدر الامر الخديوى بالتصديق عليها وسارت في نهج الاصلاح بعزيمة صادقة كبر عليها الامر، واستمالت إليها دولة فرنسا للاستعانة بها على اطفاء نور الحرية وطمس آيات العدالة التى ظهرت في وادي النيل الذى هو مطمح أنظار الدولتين منذ القدم» .

وفوجئت البلاد بوقوع ما كانت تخشاه وما استبسلت في دفعه.

وأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية بيانا مشتركا حمله القنصلان معا إلي الخديوى ورئيس مجلس النظار «يحيطهما علما» بأنه تقرر ارسال قوة بحرية مشتركة بريطانية فرنسية الى الاسكندرية وسوف تصل يوم ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ .

وكشفت جريدة «التايمس» هدف الزيارة قائلة :

«إن الهدف من ارسال البوارج الى مصر هو تعزيز مكانة الخديوى وتأييد سلطته وسوف يكون الهدف الأول هو حمل عرابي باشا على التنحي واقالة الوزارة القائمة، واذا لم يستجب فلن يكون هناك مناص من ارغامه على ذلك وتجنبا للمساس بسيادة الدولة العلية فسوف تكون القوة عثمانية، واذا قاومها المصريون سوف تعلن مصر متمردة على الدولة وتبحث الدول الاوروبية الامر وطرق مساعدتها» .

وانتفضت البلاد واستنفرت الامة عن بكرة أبيها بدأ إطفاء نور الحرية وطمس أيات الغد التى ظهرت فى وادى النيل «كما قال عرابى» ولم يكن قد مضى اسبوعان على تصريح ادلى به رئيس وزراء فرنسا المسيو فريسنيه يعلن فيه ان فرنسا تعارض أى تدخل فى شئون مصر .. وان المصريين قادرون على حل مشاكلهم بأنفسهم ، وكان اشتراك الاسطول الفرنسى صدمة مريرة .

وأعلنت التعبئة الوطنية العامة وان الوطن فى خطر ودعيت الامة للمقاومة واستجابت بحماس دهش له كل المراقبين ! .

وبعد أيام من وصول الاسطول المشترك وكان أقوى قوة بحرية منذ الاسطول الفرنسى فى حملة نابليون . تقدم القنصلان الى رئيس مجلس النظار بمذكرة كانت الأولى من نوعها فى تاريخ العلاقات الدولية قالت :

«يحيط قنصلا فرنسا وبريطانيا العظمى علما بأن عاطفة الوطنية دفعت سعادة محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب كما دفعتنا رغبة فى تأييد استقرار مصر ورفاهيتها لعرض الشروط التالية على عطوفتلو محمود باشا سامى رئيس مجلس الوزراء لوضع حد لحالة الاضطراب السائد فى مصر الآن :

١ - إبعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا من مصر مع بقاء رتبته ومرتباته ونياشينه .

٢ - إبعاد على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى الى داخل مصر مع بقاء مرتباتهما ونياشينهما .

٣ - تسريح العساكر ولا يبقى منها الا ما يحفظ الحدود .

وقد رأينا أن هذه الشروط لما فيها من روح الاعتدال تمنع المصائب التي تستهدف مصر .

وباسم حكومتيهما وبتفويض منهما ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولهما وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها ، وليس لحكومة فرنسا وانجلترة غاية من التدخل في شئون مصر سوى حفظ النظام الراهن، وبالتالي أن يستعيد الخديوى السلطة المختصة به . اذ بدونها يخشى على هذه الحالة القائمة وبما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفي فانهما سيبذلان الجهد في صدور عفو من الحضرة الخديوية وسيسهران على تنفيذ هذا العفو .

وانعقد مجلس النظار في نفس اليوم ، وقرر على الفور رفض المذكرة جملة وتفصيلا ، وكلف ناظر الخارجية مصطفى فهمي بتحرير رد يرسل في اليوم التالي مباشرة .

وتوجه رئيس النظار ووزير الخارجية لمقابلة الخديوى وبهت الاثنان حين أخبرهما الخديوى بأنه تلقى نسخة من الانذار كما سماه وأنه قبل ما جاء فيه ويرى أن لا مناص من القبول ! .

ورد رئيس الوزراء على الفور أن ذلك خلاف خطير وتعارض عظيم، وأن لابد من عرض الامر برمته على مجلس النواب واستدعائه على الفور لجلسة طارئة وهذا أمر يتعلق بمصير البلاد .

ورفض الخديوى ذلك ونصحهما بقبول الانذار وما جاء فيه أسوة بما فعل .

وعاد رئيس الوزراء ووزير الخارجية ليخبرا زملاءهما من النظار بما تم خلال المقابلة ، واستقرار رأى الجميع على تجاهله ودعوة المجلس الى الانعقاد بلا حاجة الى مرسوم خديوى كما قرر المجلس تقديم استقالة مسببة الى الخديوى احتجاجا على تقديم الانذار والتدخل السافر فى شئون مصر الداخلية والاعتداء على سيادتها .

ودهش رئيس الوزراء وعجب لان الخديوى لم يبال وقبلها على الفور وبفرح وسرور .

وانعقدت الجلسة الطارئة لمجلس النواب فى اليوم التالى ٢٧ مايو ١٨٨٢ بمنزل محمد سلطان باشا رئيس المجلس وكان أحد الايام التاريخية .

ازدحم المنزل وكان غاصاً بأعضاء المجلس وحضر قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن افندى والشيخ عبد الهادى الابيارى امام المعية وتم الاتفاق من الجميع مع ملازمة الراحة والسكون وان يطلب من الخديوى رفض الانذار ويأمر برجوع الحكومة وناظر الجهادية وألا يعزل عزلا وفى أثناء ذلك حضر الى حديقة المنزل جمع من الضباط ومن الاهالى وأخذوا يصيحون :

«أعزلوا الخديوى الذى دعا الاجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم » .

وعقب تيودور روتشين :

لو ان الجيش اعلن خلع توفيق يومها لوجد الامة كلها وراءه تؤيد ما فعل، ولكن ازاء الحملة الضارية على الحكم العسكرى المطلق تقرر عقد مجلس النواب ورفع الامر إليه.

وتدخل الشعب مباشرة وحسم الموقف.

وما ان طير البرق خبر استعفاء الوزارة احتجاجا على قبول الخديوى لانذار الدولتين كثر اللغط وزادت بواعث الخوف وتوافد على العاصمة جموع من أعيان البلاد وكبار مستخدمى الحكومة وقدموا مئات من العرائض محتجين على عمل الخديوى، وطالبين أحد امرين إما رفض المذكرة أو عزل الخديوى الذى قبل تدخل الاجانب فى احوال البلاد.

ولم يكترث الخديوى بكل ما كان ويضطرم حوله.. واعلن انه تولى بنفسه رئاسة مجلس النظار، وأذاع بيانا بذلك ودعا إلى اجتماع فى القصر لكل الذوات والاعيان والعلماء ، وقرأ على الذين ذهبوا بيانا مفصلا دعا فيه الجميع للمحافظة على الامن والنظام وحذر من مغبة الخروج عليهما ونبه على الجميع ان الاساطيل لم تأت للعدوان ولكن حضرت لكى «تساعد فى اقرار السلام والامان».

وما ان فرغ من الاجتماع حتى وجد سيلا من البرقيات انهالت من كل أرجاء البلاد تحمل آلاف التوقيعات تطالب بعودة الوزارة ورفض مطالب الدولتين ودفع العدوان على سيادة البلاد.

وتوقف عند برقية لم يستطع ان يتجاهلها وأثارت هلعه وكانت من ضباط الحاميات وضباط الامن فى الاسكندرية، وتقول «انه اذا لم يعد النظار إلى مناصبهم خلال اثنتى عشرة ساعة سوف يحدث من الامور ما لا يحمد عقباه» . ثم تلت برقية مماثلة من حاميات القاهرة، ثم جاء وفد كبير وطنى من ذوات القاهرة وأعيانهم ويتصدرهم رؤساء الاديان الثلاثة شيخ الاسلام والبطريرك والحاخام وطلبوا إلى الخديوى الرجوع عن قراراته.

وجاء محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يكاد يقتله الخوف وتوسل إلى الخديوى ان يرجع النظار إلى مناصبهم والا كانت حياته فى خطر.

ولم يملك الخديوى سوى الاذعان وارسلت الاوامر الى الاقاليم بالغاء ما سبق اعلانه .

وفى نفس الوقت عقد قناصل الدول اجتماعا لم يدع اليه قنصلا بريطانيا وفرنسا وقرر المجتمعون مقابلة كل من الخديوى ثم عرابى باشا.

وروى عرابى ما حدث بالنسبة له.

لما تعاظم الخوف جاء لمنزلى جميع قناصل الدول الاجنبية ماعدا قنصلى بريطانيا وفرنسا وطلبوا إلى ضرورة تأمين رعاياهم وأجبتهم اننى استخفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية العصيبة.

وقالوا لى ان الجيش لا يخالف ارادتك وانت زعيم الحركة الوطنية فلا نأمن على رعايانا وأنفسنا الا باعطائك الأمر وحتى تسكن روعهم ولاجل طمأنينتهم.

وقبلت وارسلت تلغرافات إلى جميع مراكز العسكرية ولكن بصفة انى رئيس الحزب الوطنى اطلب اليهم جميعا ان يلزموا الهدوء والسكينة وان يحافظوا على راحة الجميع خصوصا رعايا الدول الاجنبية وان يعاملوهم احسن معاملة .

وبعد قليل حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسن باشا الشريعى وسليمان باشا اباظة وسلمونى امر الخديوى يقضى برجوعى نظارة الجهادية واخبرونى انهم لما وفدوا على الخديوى وجدوا جميع قناصل الدول فى حضرته ما عدا قنصلى بريطانيا وفرنسا وطلبوا جميعا من الخديوى صدور امره برجوعى إلى نظارة الجهادية والبحرية لاجل اطمئنان الجميع وان الخديوى استجاب لذلك.

ولم يلبث ان صدر أمر خديوى إلى «عزيزى احمد عرابى باشا» وينص «ولو انكم استعفيتم ضمن.. هيئة النظار التى استعفت ولكن مراعاة لحفظ الامن والراحة استصوبنا بقاءكم فى نظارة الجهادية والبحرية، وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام وعى احوال العسكرية الكافلة لحفظ الامن العمومى على الوجه المرغوب فيه».

ولم يملك عرابى سوى القبول.

وكان الانتصار حاسما وانتقلت كل السلطات إلى عرابى وحده، وتربع زعيم فلاح على قمة السلطة بارادة الامة ثم بارادة الدول الاوربية جميعا ماعدا دولتان .

كان التأييد الذى يحظى به غير مسبوق فى تاريخ مصر وقد فوجئت البلاد بوفود من كل الولايات العربية فى الامبراطورية العثمانية بل ومن الهند والبلاد الاسلامية البعيدة. جاءت لتهنئة وتحية مصر ولكى تعبر عن تأييدها واعجابها.

كان عرابى باشا يستطيع أن يعلن خلع الخديوى وعزله وكان الرؤساء الروحانيون الثلاثة والقوى السياسية والعسكرية والثقافية على استعداد للتوقيع.

وكان فى استطاعة عرابى ان يؤلف وزارة جديدة يختار أعضاءها بنفسه، وان تقوم بتعديل الدستور وتطلب سحب الاساطيل وكانت روسيا والنمسا والمانيا وأيطاليا واليونان تؤيد عرابى حفظا لمصالح رعاياها وكانت تجمع فيما بينها على أن لا تسمح لبريطانيا ان تحقق مطمعها الرئيسي وهو الاستيلاء على مصر والاستئثار بحكمها.

كان فى استطاعة عرابى باشا ان يفعل كل ذلك فى تلك اللحظة التى لم تسنح من قبل فى تاريخ مصر .

ولم يفسر أحد من المؤرخين والمعلقين والباحثين لماذا لم يقدم وهو لم يفتقد الشجاعة قط.. ودفعت البلاد اغلى ثمن وتأخر صعود «فلاح» إلى قمة السلطة سبعين عاما كاملة .

الفصل الخامس

ثمن الحرية

اكتشف فخامة الاميرال السير «بوشامب سيمور» قائد عام الاسطول البريطاني في البحر الأبيض المتوسط ، بعد رسو أكثر من ستة أسابيع في المياه الاقليمية المصرية وعلى شاطىء ميناء الاسكندرية، أن الأسطول في خطر .

وكان الخطر الذى اكتشفه الاميرال فجأة هو القلاع والحصون القديمة الممتدة بطول سواحل المدينة والتي يراها القادم إلى الميناء كأول ما يرى ، وخاصة إذا كان على رأس أسطول عارم من المدرعات والبوارج والمدمرات الحديثة .

وكانت معظم القلاع والحصون إن لم تكن كلها قديمة مهملة متآكلة أقيم بعضها في عصر المماليك أو خلال سنوات الحملة الفرنسية وقد تجددت في عصر محمد على ثم اهملت ثانية بعد نهايته ، والقضاء على الاسطول المصرى ، وشمل الإصلاح بعضها خلال عصر اسماعيل ، ولكن في إطار محدود ، فقد كانت حروبه برية جنوبية نحو منابع النيل

وافريقيا .. ولهذا لم يكن ممكنا أو معقـولا أن تهدد أقوى اسطول فى الـعـالم والذى يحكم حـتـى أمـواج الـبـحـار وفق النشـيد القـومى البريطانى !

وقد كان على أى دولة تفاجأ بمثل تلك القوة تقتحم مياهها الإقليمية وترسو فى مينائها الرئيسى ثم تنذرها بضرورة تغيير نظام الحكم فيها، كان عليها التزامـا بواجبهـا الوطنى أن تبدأ فـى تقوية وترميم القلاع والحصون البحرية . تداركا لما قد يحدث .

وتذكرت الاسـتراتيجية البريطانية الاسطورة المشهورة فى قصص الأطفال حول الذئب والحمل ومياه النهر ، ووجدت فيها ذريعتها وأعلنت أن المصريين يعكرون المياه ويثيرون قلق الاسطول .

وكان الامـيرال بو شـامب سـيـمـور مـشـهـورا بين أمـراء الـبـحـر الـبـريطانيين بـأنه من «أكلة النار» وهم فـئـة من القـادة ، يمعنون فى التخريب والتدمير وينتشون بسفك الدماء واهدار أكبر قدر من الأرواح .

وحـدث بعـد أن وصل الاسطول بقليل أن قـابله صـحـفى أجنبى واسـترسل مـعه فى الحديث إلى أن قال له الامـيرال «هـل ترى كل هذه المدينة وقلاعها وحصونها المتداعية . سوف لا تستغرق منى أكثر من نصف ساعة لتتحـول إلى كومة رماد وبعدها لن يبقى أثر ، ولن تقوم لهؤلاء الزنوج من أهلها قائمة وقالها بالفرنسية «نيجر» .

ولم يكن يعرف أن الصحفى وثيق الصلة بالوطنيين وشديد التعاطف معهم ، وأنه نقل الحديث كاملا إليهم .

وقـد تـأكـد أن الاسطول جـاء مـبكرا وبأقـصى قـوته لكى يرهب «الزنوج» ويرغمـهم، ولما لم يستطع ألقى مراسيه وبدأ يعد العدة للضربة القاضية وبعد أن يهيىء الجبهة الداخلية بينما تعد الحكومة فى لندن الرأى العام الأوروبى .

وبعـد وصـول الاسطول بقليل وصلت شـخـصـيـة لا تقل خطرا واستدعت الحكومة البريطانية «الاستاذ بالمر» استاذ اللغة العربية فى جامعة كمبريدج وانتدبته للسفر إلى مصر فى خدمة العلم البريطانى أقصى ما يفخر به بريطانى .

وكان الاستاذ من نجوم القافلة الحافلة من المستشرقين الأوروبيين الذين ذخر بهم القرنان الثامن والتاسع عشر ، كانوا هم والمبشرون طلائع الفتح والغزو الاستعمارى .عكفوا على دراسة الشرق: تاريخه ولغاته وتراثه ، واكتشاف الثغرات التى ينفذ منها الغزاة . وظلوا مرشدين ومستشارين للعسكريين أو لحكام المستعمرات .

وتأسس فى الاسكندرية إلى جـوار قـيـادة الاسطول ، مكتب للمخابرات البريطانية يديره الاستاذ ويتولى تجنيد «العملاء» مصريين وأجانب وينظمهم حتى تحين ساعة الصفر .

وكما حدث للأميرال ذهب نفس الصحفى إلى الاستاذ المستشرق فى الفندق الذى كان يقيم به وفوجىء به يقول له بغير مقدمات :

- هل دبرت لنفسك مكانا تحتمى فيه .

- من ماذا ؟

– سـوف تدك هذه المدينة في وقت قـريب ولابد أن تهـيىء لنفسك مخبأ! .

ونقل «جون نينيه» الحديث الى من يعنيهم الأمر .

وبدأ العـمل والاستـفـزاز ببداية شـهـر يوليـو ، وبرسـالة بعث بهـا الاميرال إلى القيادة في لندن .

الاسكندرية أول يوليو

من الاميرال سيمور إلى الأميرالية

سيدى اللورد

شـوهـدت مـراكب مـحـملة بالذخـيـرة على مـسـافـة قليلة من مـيناء السـويس في هذا الموقع مـعسكر كـبير للبدو، وتلقى مـعسكر الزقـازيق أوامر بحشد عشرين ألف رجل مزودين بالفئوس والمقاطف مما يعنى أن النية متجهة إلى ردم قناة السويس ، وتلقى الأهالى تعليمات بأن يزودوا بالأسلحـة، وقـد وصل إلى الاسكندرية أكـثـر من عـشـرة آلاف جندى وتتوافد القوات الاحـتيـاطية والامـدادات باستـمرار، ويشـيع عرابى بين الناس أن النبى محـمد يزوره كل ليلة وأنه سـوف يوقـع الاسطول فى فخ ينصبه وذلك بأن يغرق مراكب محملة بالاحجار فى البوغاز .

«سيمور

وردت الاميرالية على الفور

لندن – ٣ يوليو

من الاميرالية إلى الاميرال سيمور

امنعوا كل محاولة يراد بها غلق البوغاز الموصل إلى الميناء وإذا باشروا العمل فى ترميم الحصون أو نصبت مدافع جديدة فإن عليكم ابلاغ القائد المصرى بأن لديكم أوامر لمنع ذلك ، وإذا لم يمتثل فى الحال فإن عليكم تدمير الحصون واسكات المدافع إذا أطلقت النيران ، وبالطبع يتم ذلك بعد أن تعطوا الأهالى والسفن التجارية أو الحربية الأجنبية مهلة كافية للابتعاد .

الاميرالية

اللورد السستر

ورد الاميرال فى اليوم التالى

إلاسكندرية - ٤ يوليو

إلى الاميرالية

نصب الليلة مدفعان جديدان فى قلعة قايتباى وتم تقوية جدارها المواجه للبحر ونصح القنصل بتأجيل تقديم الانذار إلى صباح يوم الخميس حتى يجد الأوروبيون المقيمون فى القاهرة فرصة للمجىء إلى الاسكندرية .

سيمور

ولجأت بريطانيا إلى جلالة السلطان لكى يتدخل لحماية الأسطول من تهديدات رعاياه «المصريين».

وفى ٥ يوليو جاء تلغراف من الصدر الأعظم إلى الخديوى يذكر أن باشكاتب السفارة البريطانية حضر إلى الباب العالى، وأخبره أن

الجهادية المصرية تهدد الاساطيل الانجليزية فى الاسكندرية ، وأنها إذا لم تكف عن تقوية الاستحكامات وتمسك عن تعزيز حصونها من غير إبطاء سوف يضطر الاميرال سيمور إلى إطلاق مدافعه على الاسكندرية ليدكها ويهدمها عن آخرها .

وحول الخديوى التلغراف إلى عرابى ليتولى الرد وكتب :

«إن مصر لم تعتد على أحد ولم تهدد أساطيلها الحربية الانجليز بل على العكس تماما هى التى تفعل ذلك ، وكل ما فى الأمر إننا نقوم بترميم الاستحكامات وهذا ما نفعله كل عام. وإذا كانت المراكب الحربية الانجليزية متخوفة من استحكاماتنا ولا تريد شرا بنا فإن ما عليها إلا أن تقلع من مياهنا وأن تعود بسلام إلى بلادها، وإنه ليدهشنى احجام الباب العالى عن مجاوبة السفارة الانجليزية بذلك .

عرابى

ولم يثنى ذلك الاميرال عن إصراره وبعث بهذه الرسالة إلى طلبة باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية فى ٧ يوليو .

صاحب السعادة

أتشرف باخباركم إنى علمت من طريق رسمى أن مدفعين جديدين نصبا أمس فى خطوط الدفاع المشرفة على البحر، وأن بعض استعدادات حربية على وشك التمام فى واجهة الاسكندرية الشمالية، وأن الغرض منها تهديد الاسطول تحت قيادتى ، وأجد من واجبى أن

أحيطكم علما والحال هكذا بأنه إذا لم تأمروا بوقف هذه الأعمال سوف يصبح من واجبي ضرب الحصون التي يجرى فيها الترميم .

الاميرال

بوشامب سيمور

ورد القائد المصرى على الفور وفي نفس اليوم

عزيزى الاميرال الانجليزى

أتشرف باحاطتكم علما بوصول خطابكم الذى تذكرون فيه أنه اتصل بكم تركيب مدفعين، وأن أعمالا أخرى على وشك أن تقام على شاطىء البحر وردا على ذلك أود أن أؤكد لكم إن هذه الاخبار عارية عن الصحة تماما ، وهى مثل التهديد بسد البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه .

وإنى واثق بشريف عواطفكم المشبعة بروح الإنسانية .

طلبة عصمت

ولم يجد الاميرال ما يبرر به موقفه وضاق ذرعا بتبادل الرسائل ، وأن لا جدوى منها وبعث إلى الرؤساء فى لندن .

الاسكندرية ٩ يوليو

من الاميرال سيمور إلى الاميرالية

إشارة إلى برقيتى السابقة أخطركم أنه ليس هناك أدنى شك فيما يتعلق بالتسليح وسوف أخطر قناصل الدول الأجنبية غدا أنى سوف

أضرب بعد ٢٤ ساعة إذا لم تسلم إليّ الحصون القائمة على البوغاز والتى تشرف على مدخل الميناء .

سيمور

عزز القنصل رأى الاميرال وبعث إلى وزارة الخارجية البريطانية فى نفس اليوم

سيدى اللورد جرانفيل

أتشرف باحاطتكم علما بأنه اتصل بالاميرال بوشامب سيمور نبأ نصب مدفعين جديدين بحصن السلسلة القائم تجاه المدينة الجديدة ولا يستطيع الاميرال أن يلازم الصمت حيال هذا العمل العدائى ولهذا قرر أن يبدأ إطلاق النار عند شروق الشمس يوم الثلاثاء ١١ الجارى .

وقد أخطرت القناصل ودرويش باشا مبعوث السلطان وسأقوم بالترتيبات اللازمة لترحيل جميع الرعايا البريطانيين إلى البواخر هذا المساء أو غدا صباحا .

كارت رايت

وردت وزارة الخارجية على الفور بالموافقة وأضافت شرطا جديدا إلى كارت رايت

من لورد جرانفيل وزير الخارجية تصدق حكومة صاحبة الجلالة البريطانية على ما أخبرتمونا به فى برقيتكم وعليكم فى حالة ضرب

الحصون أن تلقوا على عاتق درويش باشا مسئولية أمن الخديوى وسلامته .

جرانفيل

ولم تقف الجبهة المصرية ساكنة وانعقد مجلس «عرفى» فوق العادة تحت رئاسة الخديوى وبحضور درويش باشا .

«ولما تلى كتاب الاميرال سيمور إلى طلبة باشا عصمت تقرر أنه لا يمكن إجابة طلب الأميرال سيمور لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد، وأن الاستحكامات والطوابى ما أنشئت إلا لحفظ الثغور والعساكر، ما وجدت إلا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم إلى نفس من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن ، ولكن قفلا لباب الشر وقطعا لاحتجاجات الاميرال سيمور يرسل له وفد يتلطف معه فى المقابلة، ويوضح له أن المصريين ليسوا أعداء للانجليز وأن لا يمكن سد البوغاز بالاحجار وأنه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالاحجار عند شروعها فى العمل إن وجدت .

«وأما إنزال المدافع فهذا أمر لا يمكن قبوله لما فيه من مخالفة قوانين البحرية ولما يتبع ذلك من الإهانة والمذلة ، وإنما يمكن إجابة طلبه ومنعا للإشكال تنزيل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى وأن يكتفى بذلك وردا لشرف الاسطول ».

وذهب الوفد وعاد خائب الأمل وأن الاميرال رفض كل ما عرض عليه وصمم على وجوب انزال المدافع وتسليم الحصون ، وقال إن التنازل الوحيد الذى سوف يقدمه هو أن يسمح بأن يقوم الجنود المصريون بذلك أى أن يسلموا أسلحتهم ويخربوا معاقلهم بدلا من أن تقوم العساكر الانجليزية بذلك .

وكرر مرة أخرى ضرورة تسليمه طابية المكس وما وراءها وطابية العجمي وطابية باب العرب لكي يتخذها معسكرات للقوات الانجليزية وختم بأن قال «أنه إذا لم يجاب إلى طلباته سوف يباشر القتال عند طلوع الشمس يوم ١١» .

واستقر رأى المجتمعين «على» أن طلبات الاميرال الانجليزى غير شرعية ولا يمكن قبولها بوجه من الوجوه وإذا فهى مرفوضة ، ولابد من التهيؤ للحرب ، على أن لا تبدأ من جهتنا إلا بعد ثلاث طلقات من العدو وفى الحال تعلن الاحكام العرفية فى البلاد .

وبعث الاميرال برسالته النهائية إلى طلبة باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية .

من الاميرال سيمور إلى طلبة باشا عصمت ١٠ يوليو - البارجة انفنيسبيل

صاحب السعادة

أتشرف باحاطة سعادتكم علما بأنه نظرا لتجدد استعدادات حربية تتزايد منذ أمس فى حصون السلسلة وقايتباى وصالح وهى استعدادات

موجهة بالطبع إلى الأسطول الذى تحت قيادتى فقد عقدت العزم على أن أنفذ غدا «١١ يوليو» عند شروق الشمس ، العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ يوم ٦ الجارى إلا إذا تسلمت على الفور وقبل هذه الساعة كل البطاريات المنصوبة على برزخ رأس التين وعلى طول شاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى .

ورد القائد المصرى على الفور .

ومن طلبة عصمت إلى الاميرال الانجليزى «١١ يوليو»

لم تفعل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الاساطيل المحتشدة فى مياهها، ولم تقم السلطات المدنية أو السلطات العسكرية بأى عمل يبرر مطالب الاميرال إلا بعض اصلاحات ضرورية فى منشآت قديمة والطوابى التى ورد ذكرها هى على الحال التى كانت عليها عند وصول الأساطيل، ثم نحن هنا فى بيتنا وفى وطننا ومن حقنا بل من الواجب علينا أن نعد عدتنا من كل عدو يباغتنا ويقدم على قطع العلاقات السلمية التى تقول الحكومة البريطانية أنها قائمة بيننا .

وأن مصر الحريصة على حقوقها والساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بقوة السلاح .

ونحن لذلك نحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتلقى مسئولية جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم من هجوم الاسطول واطلاق المدافع على الأمة التى تقذف القنبلة الأولى على الاسكندرية

المدينة المسالمة الهادئة مخالفة بذلك لقوانين الحرب ومواثيق حقوق الإنسان .

طلبة عصمت

وبعث رئيس الوزراء راغب باشا إلى الاميرال برد مماثل

حضرة الاميرال

يؤسفنى أن أحيطكم علما أن حكومة سمو الخديوى تعتبر طلباتكم غير مقبولة وهى لا ترغب فى تكدير صفو العلاقات بينها وبين بريطانيا العظمى، ولكنها لا تستطيع أن تعترف بأنها اتخذت أى اجراءات تعتبر تهديدا للأسطول الانجليزى سواء كان ذلك من جهة القيام بأعمال فى الحصون أو من جهة تركيب مدافع واستعدادات .

وقد تقدمنا باستعدادنا لانزال ثلاثة مدافع من البطاريات التى أشرتم إليها لنعبر على نوايانا السلمية ورغبتنا فى الاستجابة لطلباتكم بقدر الإمكان .

وما دمتم تصرون رغم هذه التقدمة على اطلاق النار فإن الحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق فى إلقاء مسئولية هذا العمل العدوانى على عاتقكم .

راغب

ورد الاميرال فى الساعة السادسة صباحا من يوم ١١ يوليو

يا صاحب السعادة

أتشرف بابلاغكم وأنا آسف أن ليس فى استطاعتى أن أقبل شيئا مما عرضتموه .

سيمور

واستفز الموقف البريطاني نائبا بريطانيا من حزب الحكومة - حزب الاحرار - وانتفض صائحا فى مجلس العموم :

«أى منطق هذا وأى سياسة فى أن رجلا يحوم حول منزلى وكل دلائل الاجرام بادية على وجهه وأبادر باحضار الأقفال والمتاريس وأحكم أغلاق النوافذ ، وإذا به يصيح ويثور ويدعى أن ما أفعله تهديد بل إهانة موجهة إلى شخصه وأنه لا مناص من أن يهدم المنزل على من فيه دفاعا عن النفس هل هذا معقول .

ووقف وزير فى الحكومة المستر برايت ، وأعلن أن أى هجوم على الاسكندرية سوف يكون إهداراً لكل ما يبقى عليه حزب الأحرار من المبادئ» ، وإذا ما تم ذلك فسوف يستقيل محتجا من الحكومة .

وضاعت الأصوات فى البرية وكتبت مجلة فرنسية «الدبلوماسية الأوروبية »

«هل يعقل أن يصل الافتراء وتزييف الحقائق إلى هذا الحد ويمثل هذه الجرأة ومن الذى يملك حق الدفاع الاسطول القادم من بلد بعيد والذى يرسو عنوة واقتدارا فى المياه الاقليمية لبلد آمن ويظل على مدى شهرين مصوبا مدافعه وأضواءه الكهربائية كل ليلة على حصون البلد ثم يكتشف أخيرا أنها تهدده ولابد له أن يهدمها تأمينا لاسطوله ورجاله» .

وعلق محامى بريطانى يعمل فى الاسكندرية ساخرا على الموقف :

«إذا كان الخط الذى يهدد الاميرال داهما وحقيقيا فليس عليه سوى أن يبتعد قليلا عن المياه الاقليمية ويضمن بذلك الحماية» .

وقبلت مصر التحدى وأن تدفع ثمن الحرية مهما بدا جسيما وعقد فى قصر الخديوى أكبر اجتماع شهدته البلاد، وضم أكبر حشد من كل النظار ورؤساء النظارات السابقين ومن النواب والضباط والعلماء والأعيان وتصدره الرؤساء الروحانيون الثلاث وشهده أيضا درويش باشا مبعوث السلطان .

وانتهى رأى الجميع أن لا مناص من المقاومة واشتد الحماس بالخديوى وأعلن أنه سوف يقود المعركة بنفسه ، بل وأنه أمر باعداد قطار خاص ينقله فورا إلى العاصمة لتعبئة البلاد كلها من هناك» .

وأذاع راغب باشا رئيس الوزراء بيانا إلى «كافة الدواوين والأقاليم والضبطيات والمحافظات يعلمهم فيه بوقوع الحرب بين الدولة الانجليزية والحكومة المصرية وأن الأدارة صارت تحت الأحكام العسكرية وقد تشكل مجلس عرفى يقوم بكل الأعباء خلال الحرب» .

وعند شروق الشمس صباح يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ فى الساعة السابعة صباحا أصدر الاميرال أوامره باطلاق النار وانصب الجحيم على المدينة عامة وأهلها ..

وأصدر عرابى باشا بيانا إلى الشعب .

«أطلق الاميرال الانجليزى النار غير مبال بأى شرعية أو حقوق للشعوب ، وهو أمر يكسو الحكومة التى وافقت على سفك دماء الابرياء

ثياب العار ويسجل في تاريخها صحائف سوداء لا يمحوها مرور الأزمان والأعوام .

وفوجيء الاميرال وضباطه بل وفوجيء العالم كله بأن نصف الساعة التى حددها الأميرال لنهاية المعركة ولتحويل المدينة إلى كومة رماد مرت ، ولم ترتفع أى راية بيضاء أو تكف المدافع عن الدفاع .

كتب القومندان هنث - رئيس الأركان فى الأسطول :

كانت الحصون أقوى مما كنا نظن من قبل وكان جنود المدفعية المصرية .. لا يستهان بهم وكانوا يحكمون الضرب ولتلافى نيرانهم . غيرت الموقع لكى أحصل على الساحة الملائمة .

وكان يقود المدرعة سلطان - أقوى المدرعات .

ووصف الكولونيل جودريتس الامريكى قائد المدرعة لنكستر التى أرسلتها الحكومة الأمريكية لاجلاء رعاياها .

«رد جنود المدفعية المصرية على نيران جهنم التى انطلقت من مدافع الاسطول ردا أثار الدهشة والعجب، وكما لم يكن منتظرا وأثبت جنود مدفعية السواحل المصرية شجاعة خارقة وبطولية بالنسبة للتفاوت الجسيم الذى كان بينها وبين العدو من حيث الاستعداد والتسليح .»

وكانت البارجة انفليلسييل تطلق قنابل زنة الواحدة ١٧٠٠ رطل على حصن الفنار ، واصطدمت واحدة بساتره وأثارت عاصفة من الغبار والشظايا ارتفعت حتى قمة الفنار نفسه، وتصورت بعد ما رأيت هذا المشهد المخيف أن لن يكون هناك أحياء بعد هذا الوابل من النيران

والركام ، ولكن لم ألبث حينما انقشع الغبار أن رأيت الجنود قابعين فى مواقعهم يواصلون اطلاق النار على خصم رهيب .

وقال الكابتن «وولتر جودسال» الانجليزى قومندان السفينة تشيلترن

«فى منتصف الساعة الواحدة والنصف اتجهت المدرعات الثلاث سلطان وسوبرب والكسندرا نحو حصن «الأطة» ويبدو أنها قررت أن قوتها لن تكفى للقضاء عليه ولذا طلبت من المدرعتين انفكسبل وتمارير أن ينضما إليهم والاشتراك فى الهجوم .

وصوبت المدرعات الخمس سيلا من نيرانها دفعة واحدة على الحصن سيىء الحظ ولكن فوجئوا بأنه دافع مستميتا بما يبعث على العجب ضد أقوى خمس سفن فى الاسطول البريطانى .

وقد ذهلت أمام هذه البطولة الاسطورية التى لم أصدقها ولم أعرف كيف أفسرها - وزاد من عجبى ودهشتى موقف قائد ذلك الحصن ، اذ وقف بجوار العلم بمفرده والمنظار فى يده يوجه الضرب غير مبالٍ بتساقط القذائف حوله .

كان خارق الشجاعة رجلا بلا مثيل لا يأبه للجحيم ينهال عليه ويرد ثابتا فى كل مرة وفى منتصف الساعة الثانية سددت الانفكسبل قذيفة إلى مستودع الذخيرة نفذت إلى داخله، ولكنها انفجرت فى منتصف الساعة الثالثة وبالطبع قتل عدد كبير من الجنود تطايرت أشلاؤهم فى

الفضاء ولم يلبث أن لحق بهم قائدهم البطل الذى وقف كالأسد فى عرينه متشبثا بالعلم حتى طار الاثنان فى الهواء .

وبدا أن كل شىء قد انتهى ولكن بعد أن هدأت النيران كان هنا عدد من الجنود مازالوا على قيد الحياة . تسللوا وغادروا الحصن» .

ويستطرد التقرير

وتحولت المدرعات الخمس بعد تدمير حصن «الاطة» نحو قلعة قايتباى وأصيبت القلعة بأضرار كبيرة وظلت النيران تنصب عليها حتى آخر لحظة ولم تكف عن الإجابة واطلاق مدافعها حتى صدر الأمر بوقف اطلاق النار فى الساعة الخامسة .

وكان الميجور «تولوك» ضابط المخابرات على ظهر المدرعة انفنسيل وشهد المعركة أمام حصن المكس وقال فى مذكراته :

«من أعجب ما شهدت فى حياتى جنود حصن المكس فى الاسكندرية وقد شهدت عجائب كثيرة ولكن هذه كانت من الخوارق «رأيتهم يقفون ثابتين ملازمين مدافعهم لا يتخلون ولا يتزحزحون عنها رغم سيل نيران جهنم التى كانت تنهمر عليهم ، ورأيت أكثر من قذيفة تدخل فوهة مدافعهم ، وكنت أقطع بأنها قضت على المدفع وطاقمه تماما ولكن لا ألبث حتى أجد نفسى صائحا . لا يمكن .. لا يمكن ، لأن المدفع عاد يرد ويطلق قذائفه .. وفى إحدى هذه المرات ، كان الرد سريعا بحيث قفزت إلى حافة السفينة ورفعت يدى أحييهم وأصيح أحسنتم أيها الجنود المصريين» ! .

وكتب البارون دى كيورك وكيل مصلحة الجمارك والذى حمل أموال
إصلحة ولجأ إلى الأسطول كما فعل معظم كبار الموظفين الأجانب .

«نفذ المصريون بدقة كل ما ألتزموا به وعند الطلقة الخامسة من
الأسطول جاوبت البطاريات المصرية ، وانطلقت قذائفها متدفقة وباحكام
دهش له البريطانيون .

وكانت المدرعات تصوب نيران مدافعها فى وقت واحد وبتركيز فى
لقذف وكانت تهيىء لمن يراها أنها دكت الحصون ودمرتها عن آخرها
حطمت كل مدافعها ولكن لا تلبث أن تستأنف الرد مهما انقلبت المدافع
و نسفت مخازن البارود .

وبعد ايقاف اطلاق النار غادرت ونزلت إلى البر وأخذت أطوف
بالبطاريات القريبة من رأس التين وكانت مناظر البعض منها تدمى
لقلب .

وجدت خمسة ضباط وستة جنود شجعان متشبثين بمدفعهم الذى
انقلب وقضى عليهم .

وتأكدت بعد الجولة أن قليل من البشر كانوا يستطيعون أن يؤدوا
واجبهم مثلما أداها أولئك الجنود الذين كانوا فى الحصن فى ذلك اليوم،
ولا يمكن أن يخفى أحد عجبه واعجابه بلا حدود بالجنود الذين صمدوا
وردوا على النيران الجهنمية التى كانت تنهال عليهم من كل جانب .

لقد رأيت جنود يستميتون فى رفع مدفع انقلب بهم ويعيدونه
ويستأنفون الضرب وكثيرا ما تكرر هذا المنظر أمامى .. وابل من
النيران ومدفع يسقط وينجح طاقمه فى اعادته واستئناف الضرب .

وقال عرابى فى بيان أذاعه :

«كانت حامية الحصون مكونة من «الالاى» واحد مجموع قواته ١٧٦٢ ضابطاً وجندياً وهذا الالاى هو الذى قاتل فى ذلك اليوم الرهيب رغم كل عيوب الحصون ، ونقضها رغم التفاوت بين القوتين المتحاربتين وضآلة معداته وظل يدافع بروحه ودمه عن شرف الجيش والعلم المصرى بشجاعة تعلى قدره وترفع رأسه .

حيا الله أولئك الذين راحوا ضحية الدفاع عن الأوطان وتغمدهم بواسع رحمته ورضوانه .

«ولم يقاتل الجنود والضباط فقط بل انضم الأهالى، وفى اثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر واعطائهم الماء وحمل الجرحى منهم وتضميد جراحهم ونقلهم إلى المستشفيات، وقد استشهد فى ذلك اليوم من جميع الطوابى مائتى رجل وامرأتان من اللواتى كن يضمدن الجرحى» .

وكانت الشهادة الأخيرة للأميرال سيمور نفسه الذى اختتم تقريره إلى الاميرالية قائلا :

«قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة وكانوا يردون على النيران الشديدة التى تصبها مواقعنا على حصونهم بحنكة وشجاعة ، وقتل عدد كبير منهم » .

وفى الساعة الخامسة توقف اطلاق النار بعد إحدى أعنف المعارك وأطولها فى تاريخ البحرية البريطانية .

ولم يخالج الأميرال أى شك أن معركة مصر قد انتهت وأن عرابى سوف يطلب موعدا لكى يسلم سيفه .

وبعث الاميرال بالرسالة التالية إلى لندن فى يوم ١٩ يوليو

الاسكندرية

من الاميرال إلى الاميرالية - لندن

سيدى

زارنى أحمد توفيق افندى يارو سعادة درويش باشا وبمعيته الاميرالاى زهران بك ياور سمو الخديوى . وكانا قادمين من سراى الرمل الواقعة على بعد أربعة أميال من الاسكندرية وسألونى إذا كنت مستعدا أن آخذ على عاتقى قبول الخديوى لأن الحالة تدعو إلى الخوف على سلامته بسبب القوات المتمردة التى تحيط به وأظهرت فى الحال استعدادى للقيام بكل ما يطلبه سموه ، وقبل الساعة الرابعة مساء تشرفت باستقبال سموه عند باب السراى التى لم تصب لحسن الحظ إلا بأضرار طفيفة وقد خصصت لحمايته قوة من سبعمائة بحار .

سيمور

وظل الاميرال ينتظر مندوب القيادة المصرية ليحدد موعدا لاستقبال عرابى ! .

«وتولى اللورد تشارلز برستفورد القائد الثانى للأسطول مهمة إعادة النظام فى المدينة ووضعت تحت إمرته قوة من البحارة المنر .

واتخذ اللورد تشارلز بريفورد مقره فى سراى الحقانية مقر محكمة الاستئناف المختلطة بميدان المنشية وكان يعقد المحاكمات على منضدة صغيرة فى الميدان ومعه ياوره الملازم براد فورد ويتوليان المحاكمات الميدانية المستعجلة .

وكنت أساعدهما فى الترجمة عند محاكمة المتهمين المقبوض عليهم متلبسين بقتل المسيحيين أو نهب المنازل أو حرقها ، وكانت الاحكام تنفذ فورا وعلنا فى المحكوم عليهم بعد ربطهم إلى شجرة فى وسط الميدان وبعد أن يحفروا قبورهم أمامهم .

وقد أثارت هذه الطريقة الفظيعة عددا من الضباط ولكننى رددت بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لمعاملة المجرمين وأن العطف هو آفة حضارتنا الحديثة ولابد وأن نتخلص منها فى أقل مدة إذا أردنا أن نحافظ على بقائنا كأمة عظيمة، وأكدت أن الاحكام كانت عادلة وتنفيذها كان مشروعا وأنها الوسيلة الوحيدة لاقرار الأمن .

وذلك كما روى وكيل مصلحة الجمارك الذى حمل أموال المصلحة إلى الاسطول وخبأ الباقى منها فى مكان أمين حتى ينتهى القتال والذى قال أيضا :

وبعد انتهاء الحرب أنعم على الخديوى توفيق بلقب بك كما أخبرنى الاميرال سيمور أنه ذكر اسمى بين من أدوا خدمات جليلة لحكومة جلالة الملكة والامبراطورية .

وتوجهت مع بحارة أحد الزوارق الحربية حيث خبأت الخزانة ووحدتها سليمة لم يستول عليها عرابى ، وتم نقلها إلى السفينة تانجور.

وكتبت صحيفة كريستورج الألمانية

«ما من جندى فى العالم كان يستطيع أن يقف فى موقعه رابط الجأش صامدا امام نيران ٢٨ سفينة حربية بريطانية تنصب الجحيم لمدة عشر ساعات . »

وقال القنصل الامريكى فارمان والذى شهد القتال على ظهر المدرعة الامريكية التى انتقل إليها مع موظفى القنصلية .

«أذهلتنا شجاعة المصريين وهم يصوبون مدافعهم ، وبعد أن ينقشع الغبار والدخان المتصاعد من القنابل التى كانت تترك كل ما حولها حطاما كنا لا نلبث أن نرى سحابات من الدخان تتصاعد من فوهة مدفع قريب يدل على أن الأحياء من الجنود مازالوا متشبثين بمراكزهم .

وتذكرت حديثا دار بينى وبين الجنرال ستون وسألته عن الوقت اللازم للأسطول لاسكات مدافع القلاع وبعد تفكير دام بضع لحظات أجاب قائلا « حوالى ثلاثين دقيقة » ولا ريب أن الجميع اصيبوا بخيبة أمل .

وعلى الرغم من أن الجنود المصريين كانوا قد أخلوا المدينة قبل ظهر يوم الأربعاء إلا أن الانجليز لم يدخلوها حتى يوم السبت ، وقد قمنا بزيارة القلاع بعد الضرب وظهرت لنا مدى المحنة التى تعرض لها الجنود المصريون ولا يمكن لأى كلمات أن تصف منظر المدافع الملقاه والجدران المهشمة والاحجار المبعثرة، وكانت فى حالة تدل على انه كان يستحيل على أى شخص أن يفلت من هذه المجزرة البشرية.

واعترف كثير من الضباط الانجليز بعدئذ أن تدمير الاسكندرية وبالطريقة التى تم بها كان عملا غير مقبول ولم يكن ضروريا وأن المسئول عنه هو الاميرال وطموحه وشهرته بالتعطش للدماء والدمار فى أن يقرن اسمه بحدث من الأحداث التاريخية الكبرى.

الفصل السادس

الحرب الشعبية

وثيقة رقم ١

قامت الحرب وليس فى خزانة الحكومة درهم واحد لأن المراقب المالى الانجليزى كولفن أخذ الأموال من خزانة المالية وانزلها فى الاسطول الانجليزى قبل اعلان الحرب بأيام، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين فقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

ولهذا طلب المجلس العام تحصيل الأموال من الاهالى بواقع عشرة قروش عن كل فدان ومن شاء أن يتبرع بشىء إعانة للجيش وللمجاهدين فى سبيل الدفاع عن الوطن وحفظ الكرامة والشرف يقبل منه ذلك مع اعلان الشكر .

وقد جادت الأمة على اختلاف طبقاتها ومذاهبها وسجلها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجاموس والاغنام والفاكهة عن طيب خاطر، ومن الاهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن

الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه وبالجملة فإن الامة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والعبرة ما لم يسبق له عهد في القرون الماضية .

إن جميع النفقات التي لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت من تبرعات الامة المصرية بغير تمييز بين العقائد، ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الدولة .

«أحمد عرابى»

***

وثيقة (٢)

قدمت أرملة سعيد باشا خيمته الفخيمة هدية قومية مشفوعة بأصدق أمانيها أن يؤيد الله بنصره عرابي باشا وأقامها عند كتج عثمان . مركز قيادته .

***

(٣)

هل يقدر أحد أن يشك في جهادنا بعد أن أيده وأزره رجال من جميع الاجناس والاديان، وبعد أن تكالب المسلمون والاقباط والاسرائيليون على نجدته بحماس وبكل ما أوتوا من حول وقوة ، لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانجليز .

وقد تبرع الافراد والاعيان والعلماء حتى افراد الحاشية الخديوية حتى النساء بالحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش .

الشيخ محمد عبده

(٤)

استجابت الامة لهذا الفلاح من أهلها الذى وقف موقف الشرف والكرامة وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال، وقل أن نجد فى تاريخ الحروب كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة وقامت على ما بذله الشعب المصرى من دمه وأمواله وقوته .

ويلفريد سكاون بلنت

***

(٥)

إن العساكر المصرية متيقظة كل التيقظ وأن جميع الطرق مأخوذة على العدو بحيث لا يمكنه أن يقف على شيء مّا من مواقعنا الحربية ولا يستطيع أن يكتشف أمرا ما من حركاتنا العسكرية وهذا مما يرهب العدو ويضعضع أركان عزيمته ويلقى فى قلبه الرعب والوهن ويوهن دعائم ثباته وقوته .

وإن عساكرنا المصرية قد دبت فيها الحمية وسرت فيها روح المدافعة عن الوطن والدس وبذلوا نفوسهم فى وقاية بلادهم من اغتيال الطامعين وتسارعوا إلى مواقع القتال غير مبالين بالموت، ولا فرق فى ذلك بين أفرادهم وضباطهم ولا بين من جمعوا حديثا من الرديف وبين من كانوا تحت السلاح من زمن قديم - يدل على ذلك ما جاء فى تلغراف من سعادة طلبة بك إلى حضرة مأمور ضبطية العاصمة حيث قال إن كثيرا

من عساكر البيادة الذين كانوا معى عند مهاجمة سرية العدو والتى جاءت من طريق القبارى على قطار مخصوص . كانوا يعدون فى الهجوم عدوا سريعا حتى أنهم سبقوا حصانى الذى أنا عليه وهذا ما يبشر المصريون عموما فى النجاح حيث أن جندهم الذى أخذ على نفسه وقاية بلادهم لا يرهب الموت ولا يخاف الشهادة وهذه هى الصفات التى عليها قدر النجاح .

***

(٦)

كان سعادة على باشا فهمى الموكول إليه فرز الجهادية وتوزيعهم على الآلايات يفرز الوافدين منهم ، فأتى سعادته رجل وقال إنى كنت لبثت فى الجهادية زمنا طويلا وحضرت حرب الحبشة وكنت أتيت للفرز فى الدفعة الأولى فلم يتقبلونى لأنهم رأوا أن إحدى يدى مصابة ولكننى اعتقد فى نفسى القدرة على أداء الوظيفة العسكرية كواجب فإن الاصابة فى يدى اليسرى وهى حقيقة لا تمنع من تناول الاعمال، وعلى فرض أنها معطلة عن العمل فيدى اليمنى كافية فى القيام بالأعمال الحربية ، ومن أجل ذلك عدت بعد أن ألزمت نفسى مقدما للدخول فى الخدمة العسكرية دفاعا عن الوطن وسر سعادة الباشا المشار إليه وانشرح صدره من غيرته وقال إن رؤية رجال هكذا يندفعون إلى الدخول فى الخدمة العسكرية ويتنافسون فى حمل السلاح والوقوف فى مواقف الحرب الهائلة مما تشتد به العزائم وتقوى القلوب وتولد الامل

بالفوز العظيم فلتبشر النفس وتهنأ على وجود مثل هؤلاء الرجال فى وطننا العزيز .

***

(٧)

وقد شهدت بعينى رأسى كل الناس بلا استثناء فى طريقهم إلى الميدان عن طيب خاطر سواء كانوا فلاحين أم بدو وهم يظهرون أقصى الحماس والتطلع إلى مقاومة الانجليز .

وكان الاقباط على نفس الحماس العام وكان قسسهم وأعيانهم يشجعونهم وكان شباب القاهرة يطوفون شوارع العاصمة ليلا ينشدون الأناشيد تمجيدا لعرابى - ودعاء بالنصر .

محمد عبده

***

(٨)

كانت أوامر عرابى صريحة بتسليح الفلاحين وتنظيمهم بقيادة المشايخ للدفاع عن شواطيء بحيرة المنزلة والمطرية ومواجهة أى تسلل منْ قبل الانجليز وأعوانهم .

وقام عبد العال حلمى قائد فرقة دمياط بالاشتراك مع عمد ومشايخ مركزى دكرنس وفارسكور بترتيب نقط حراسة، وتم تحديد منطقة لكل شيخ أو عمدة ليتولى ترتيب الخفراء اللازمين لها من الفلاحين تحت إشرافه .

وخرج خمسة آلاف فلاح وزعوا على النقط المهمة تحت اشراف عمدهم ومشايخهم . وأعطيت قيادة المنطقة إلى حلمى جاهين عمدة البصراط تحت اشراف مأمور مركز دكرنس ومدير الدقهلية .

وما لبث اشترك ألفان من الفلاحين من مديرية الشرقية معهم فى الحراسة .

***

٢٥ يوليو

انعقد مجلس فى ديوان الداخلية بمصر تحت رئاسة سعادة وكيلها مكون من العلماء الكرام والذوات الفخام والقسس والرهبان والبطاركة والحاخامات والاعيان، وقرر استمرار التجهيزات الحربية ووجوب القتال عليها دفاعا عن البلاد والدين والاعراض وأنه يجب على الجيش المصرى وقوفه فى جميع نقطه وقوف المحارب بحيث لا يمكن عدوا من الوصول إلى البلاد، وأنه يجب أيضا على جميع الحكام صرف مجهودهم فى التجهيزات وتنفيذ أوامر الجهادية وتجهيز طلباتها، وأن الحكومة العرفية العسكرية تقوم بادارة الاعمال وحفظ البلاد وأن الخديو لا يكتب الآن إلا ما يريد الانكليز ولا يأمر إلا بما يوافقهم لأنه فى حوزتهم .

***

طالب رجال الدين بعزل الشيخ محمد العباسى الذى كان يتولى الافتاء ومشيخة الازهر وفعلا تم عزله وتعيين الشيخ محمد الامبابى بدلا منه .

وانتهى الأمر بأن أعلن الشيخ الامبابى عزل توفيق

وأفتى الشيخ محمد عليش بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما مسلما للمسلمين بعد أن باع مصر للاجانب واتبع كل ما يشير عليه به القنصلان الانجليزى والفرنسى، وافتى الشيخ حسن العدوى بعصيان الخديوى وأنه لا طاعة لاوامره بمقتضى الشرع ووفق القرآن والسنة، وفى المجلس العرفى أجمع المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد أبو العلا الحلفاوى على أن الخديوى بانحيازه إلى العدو المحارب يعد مارقا عن الدين ويقتضى خلعه .

***

يكفى أن بطريرك الاقباط وحاخام اليهود جاهرا فى المجلس العام بوجوب المدافعة عن الوطن وبتوقيف الخديوى توفيق وانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده وذلك بحضور أمراء العائلة الخديوية الوطنيين وعلية الامة وأعيانها .

***

فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شعبان خطب حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ زين العابدين نقيب الاشراف ببندر أسيوط خطبة الجمعة بجامع الدفتردار، وشرح ما يحدث على المسلمين عموما وعلى المصريين خصوصا الذين دهم العدو المغتال بلادهم ظلما وعدوانا من غير أن يقترفوا ذنبا أو يجترموا جريمة سوى المحافظة على حقوقهم الدينية والوطنية، وحث على بذل الارواح فى سبيل الله وحث

على التبرع بالأموال اعانة للمجاهدين المدافعين عن الدين والوطن والعرض، موضحا ما أخذ على المؤمنين من العهود والمواثيق بقوله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به» مبرهنا على الظفر والنصر عند الاخلاص بقوله «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» . «يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرة صابرون يغلبون مائتين إلى قوله... وإن الله مع الصابرين» .

٣١ يوليو

إن الاعيان والعمد ووجوه البلاد وأوساطها من كرم النفس وحب البذل ما بذل على قيامهم بخدمة وطنهم العزيز وقرروا أن يكون ما طلبته الجهادية بالاثمان بلا مقابل يأخذونه ولا ثمن ينقدونه وأن هذه الحال تسر كل وطنى وترهب عدو البلاد وحيث يعلم أن جميع أهاليها على اختلاف مشاربهم قد توجهت إلى حفظ بلادهم من الطوارىء وافتدائها بالانفس والاموال كل على قدر ما يوفق إليه وتوصله الاستطاعة أثاب الله الجميع على هذه المكارم .

وفى هذه الليلة اجتمع لدينا أعيان وعمد المديرية واستوضحنا منهم ما يمكنهم أن يقدموه بالثمن من الاصناف المطلوبة للجيش المصرى فأجابوا بأنهم هم وأهالى بلادهم وبقية أهالى البلاد بالمديرية يرغبون أن يمدوا الجيش بجميع ما تصل إليه يد إمكانهم من أنواع المدد حتى

الجمـال برعـــا لا يطلبون له ثمنا قالوا إن مؤن المجاهدين فتكون مما هو مـوجود فى الاسـواق على ذمـة الجيش وإذا احـتاجـوا بعـد ذلك إلى شيء فتقوم ببذله مفضلا واحسـانا وقد أخطرنا سـعادة ناظر الجهادية بذلك .

***

اتخذت حركة الفلاحين فى المناطق التى سيطر عليها كبار الملاك بعدا اجتماعيا واضحا وفى مديرية المنيا حيث تتركز الملكيات الكبيرة ... الدائرة السنيـة وأراضى سلطان باشـا وغـيـره . عبـر الفـلاحـون عن أهدافهم بضرورة توزيع أطيان الجفالك عليهم وطالبوا بالقضاء نهائيا على سـيطرة الاتراك والاجـانب وقـيـام حكومـة من الفـلاحين من عـمـد البلاد. بل أكثر من هذا طالبوا بأن يكون مصنع السكر التابع للدائرة السنية ملكا لهم .

***

٢٧ يوليو

ظهر قطار مقل لعسـاكر انجليزية آتية من سكة القبارى فلما قرب من المقـدمـة على بعـد ١٥٠٠ مـتـر أطلق عليـه اليكباشى مـحـمـد أفندى حشمت مدفعـا عظيما من نوع كروب ، فـأصـاب الوابور وأوقف سيره ونزلت العساكر الانجليز وتقدمت إلى الامـام بقيادة الجنرال «أليزون» الذى رتب جـيشـه عـلى أربع فرق تحت حكمـدارية الاميـرالاى «لوسـون» والميجور «سترونج» والقبودان اورج فى صورة قلب وجناحين فلما اقتربوا

على بعد ٨ أمتار اشتبكوا فى القتال مع أورطة البكباشى محروس افندى واورطة المستحفظان حكمدارية محمد افندى فودة الذى أظهر شجاعة فائقة .

ولما اشتد القتال تقدم الرجل الشجاع احمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه اورطة سليمان افندى تعيلب واورطة البكباشى رزق افندى حجازى وأصلوا العدو نارا حامية، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الاى برنجى سوارى حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وحرك الاورطة من جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الابيض وجها لوجه ولما اظلم الليل ضعفت قوة العدو ورجع متقهقرا وعساكرنا فى أثره تضربه حتى حال الظلام بين الفريقين وكان ابتداء القتال ست ساعات .

وبتفقد عساكرنا تحقق أن المستشهد من بين الانفار والصف ضباط ٢٩ والملازم الشجاع أحمد على وكان الجرحى البكباشى محروس أفندى الذى توفى بسبب جراحه واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف ضباط والانفار .

وكانت خسائر العدو عظيمة وترك عساكر العدو ميدان القتال ١٧ جبشة منها جبشة الملازم «وود» وصار دفعهم فى جسر المحمودية وقد شوهد كثير من عساكر الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم . وفى اليوم التالى كانت الارض التى كانت بها المعركة مشوهة بالدمار واثار الجرحى والموتى ظاهرة فقط عديدة .

وقد أبدى كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الواقعة ما يستحقون عليه الثناء الجميل وعظيم الاجر فى الاخرة .

***

أثار ضرب الانجليز للاسكندرية هزة عنيفة بين المسلمين فى كافة البلاد الاسلامية ، فدعا علماء تركيا إلى حمل السلاح، كما ثار مسلمو الهند على الانجليز مما جعلهم يسرعون إلى تحديد اقامة جمال الدين الافغانى الذى كان بالهند . وفى الشام حمل الرجال السلاح وأعدوا كتائب من المتطوعين ولكن السلطان منعهم من التوجه إلى مصر ، وفى تونس ناصرت صحافتها عرابى ومثلته فى صورة البطل الذى سينقذ مصر والبلاد العربية من التدخل الاجنبى، واتصل عرابى بالسنوسى وحضه على القتال والمجاهدة فى سبيل الله، كما أتصل بعبد القادر الجزائرى فى منفاه بدمشق وبأبناء فلسطين وثوار السودان بزعامة المهدى حتى اضطرت الحكومة إلى ارسال تعليمات إلى عبد القادر باشا حكمدار السودان بعدم الاصغاء إلى تعليمات العرابيين .

ولما أيد عرب برقة نداء عرابى أجبرت انجلتره السلطان العثمانى على أن يرسل تعليمات إلى والى طرابلس وتصرف بنى غازى باتباع الحزم والشدة مع الاهالى بخصوص ذلك كما طلب الانجليز من الحاكم التركى فى فلسطين منع تقديم المساعدة إلى عرابى والقى القبض على كثير من العرب المتعاطفين .

تزعم سلطان عددا من كبار الملاك المناوئين للثورة على الرغم من الدور الذى لعبه من قبل فى التحام العسكريين والاعيان، وكان سلطان ينظر إلى عرابى على أنه دونه منزلة .

ولكنه لم يكن يتوقع التأثيرات الفعالة لعرابى على الشعب حيث استحوذ على الزعامة الوطنية التى ارتبطت مع احساس المصريين بأنه مبعوث من الله لانقاذ مصر .

ولم يلبث أن شعر بالغيرة والضيق بعد أن سلب منه عرابى قلوب الأمة جميعها حيث أن ذلك يفقده الزعامة والمكانة التى يرنو اليها، وقد ترسب فى أعماقه منذ البداية أنه لم يشترك فى وزارة الثورة الأولى ولكنه عوض برئاسة مجلس النواب ومضى فى المسيرة الوطنية لدرجة أن محمد عبده يذكر «جاء كلام عن الخديوى فى جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابى – وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان الذى باعنا للاجانب»

ولكن عندما جاءت وزارة الثورة الثانية ولم يقلد سلطان فيها منصبا وزاريا شعر أنه لم يقدر التقدير الصحيح وكان ذلك بداية تحول تدريجى الى معارضى الثورة، فقد خيب ذلك آماله فى الثورة الى حد كبير .

فى الفترة من ضرب الاسكندرية ١١ يوليو حتى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ نشط محمد سلطان وبعض الاعيان فى طعن الثورة من الخلف والعمل على إسقاطها واخفاقها ملتقين فى ذلك مع الخديوى والاتراك

والانجليز وخاصة بعد أن أعلن السلطان العثمانى عصيان عرابى ورفاقه وبخاصة عقب واقعة القصاصين الاولى فى ٢٨ أغسطس وارسل الخديوى الى الاسماعيلية وفدا من سلطان باشا وعمر لطفى وعثمان رأفت وغيرهم على أن يكون سلطان نائبا عن الخديوى لدى الجنرال ولسلى، وتحددت مهمة سلطان والوفد المرافق له فى تنوير أفكار العالم وارشادهم عن الحقائق. ويذكر أحمد شفيق باشا ان الخديوى عين محمد سلطان باشا مندوبا خديويا وبمعيته تعين ياوران الخديوى لدى الجنرال ولسلى وأوكل اليه نشر الدعوة خصوصا بين العرب لمساعدة الجيش الانجليزى .

***

فى يوم الخميس كان سعادة على باشا فهمى يفرز المتطوعين الواردين من المديريات للانتظام فى سلك العسكرية فورد عليه رجال من مديرية أسيوط يتقدمون للفرز وهم باسمون مستبشرون، ورأى من ضمنهم رجلا بيض الشيب شعره ولحيته فأمر بارجاعه وطلب بدله من هو أقوى منه واحتد الرجل وقال لا تنظر يا سعادة الباشا لهذا الشيب فإنه بادرنى منذ سن سبع وعشرين سنة وأنا الآن فى سن الثلاثين والتمس من سعادتكم أن لا تردنى فعندى من القوة ما أستطيع به الحرب والقتال فاستدعاه اليه وقبل لحيته البيضاء وقال بارك الله فيكم وعليكم وأمر بإلحاقه باخوانه .

تقرير

ذهب سعادة وكيل الجهادية يوم ٤ سبتمبر الى القلعة لتسليم بيرق ٣ جي الالاى لعزتلو محمد بك الزمر القائم مقام وبعد أن سلمه العلم حلفه اليمين على ما هو معهود في القوانين العسكرية ، وهذا الالاى جمعيه من المتطوعين المتواردين من البلاد وقد امتحنهم جميعا فى الصفوف الحربية والحركات العسكرية فوجدهم على شاكلة العساكر المنتظمة بل منهم من هو أعرف بهذه التعاليم وأشد عضدا وأقوى مراسا على قرب عهدهم بممارسة تلك الحركات العسكرية اذ لم يمض عليهم فى التعليم سوى ما يقرب من عشرين يوما، وقد كانوا جميعا عند تحليف قائدهم البطل الهمام يضجون بالتهليل والتكبير بكيفية انكبت الحاضرين فرحا وسرورا .

تقرير

سار سعادة يعقوب باشا سامى وكيل الجهادية ومعه كثير من الوجوه الى ميدان قصر النيل حيث يكون الامتحان .

سار سعادة وكيل الجهادية يدور على البلوكات بلوكا بلوكا فرأوا من حسن تأدية الحركات العسكرية وكمال الانتظام فى الوقوف والمشى وضرب السلاح بكيفيته المتنوعة ما لم يكن يتيسر تعلمه فى الزمن السابق إلا فى زمن طويل، وقد كانوا يصدرون الحركات فى آن واحد وبكيفية واحدة ونظام واحد كأنما هم روح واحدة فى أجسام متفرقة وبدل

هذا على شدة اهتمام الضباط فى التعليم ورغبة العساكر فى التعليم وقد دعا ذلك سعادة وكيل الجهادية الى أن يثنى على حضرة أحمد أفندى كامل حكمدار الالاى .

وعلى سائر الضباط خص بزيادة الثناء حضرة عبدالرحمن افندى عثمان اليوزباشى، فقد أظهر بلوكه من المهارة فى التعليم ما فاق سائر البلوكات، ورأى سعادته شخصا من العساكر القديمة حائز لرتبة باشجاويش ترى عليه شيماء النجبة والفهامة فاستدعاه وأمر بمباشرة التعليم وبعد أن أظهر من البراعة ما توسمه فيه سعادته طلب من حضرة حكمدار الالاى ترقيته مكافأة له.

أما هؤلاء العساكر فهم من الجدد الذين جمعوا قريبا ولم يمض عليهم الا نحو خمسة عشر يوما تعلموا فيها ما لو رآه انسان لم يفرق بينهم وبين العساكر القديمة ومال ويحق لسعادة احمد عرابى باشا ان يفتخر بما كان له من الثقة فى الامة المصرية .

٩ سبتمبر سنه ١٨٨٢

ضبطت الحكومة عدة مكاتيب بعث بها سلطان باشا من الاسكندرية الى بعض مشايخ العربان سمة قبلى بتاريخ ١٥ أغسطس يخبرهم فيه بأنه مقيم فى اسكندرية متمتع بغاية الصحة وانه قد بلغه ان حضرات هؤلاء المشايخ المذكورين منخرطون فى سلك الجيوش المصرية مع أن الاتفاق الذى بينهم وبينه يقضى عليهم بالتقاعد وان يكونوا رهن ارادته وألا يتوجهوا إلى أى وجهة الا بأمره واشارته وان جملة العساكر

الانجليـزية الموجـودة الآن بجـهـتى اسكندرية والسـويس هذه القـوة الجسيمة فى زعمه موجهة لمقاومة عرابى باشا، وانه لا يمكن لكم الحصول على رضا الخديوى الا بأن تحضروا الى الاسكندرية لتتلقوا الاوامر القاضية بانضمامكم للقوة الانجليزية المهاجمة للجيش المصرى وانا أرى فى ذلك خلاصكم من التهلكة .

وقد ضبطت الحكومة ايضا مكتوبا منه الى بعض مشايخ العربان بجهة بحرى فى التاريخ المذكور تطلب منه ان يفيدهم عما كتب اليه من قبل بهذا المضمون السابق وهذا ما كان من أمره .. وافتضح عداونه للوطن عند جميع الوطنيين وبطل ما فعله بمقاصد للحزب الوطنى عند جميع الوطنيين وأولهم قبائل العربان، وحيث ليسابق فرسانهم وابطالهم الى ميادين القتال أمراً للدفاع عن الوطن وكنا نطالع فى بعض التواريخ سيرا عن نوع الناس ممن يكتب عليهم الاغراض الشملة هوت بهم المطامع الساقطة فحسب لهم الالتجاء الى الاعداء ونهيك السبيل لجعل بلادهم تحت سلطاتهم وهذا ما انتهى اليه أمره.

***

أقدم اللورد دوفرين على خطوة يطلب من السلطان أن يصدر أمرا يعلن فيه عصيان عرابى –

صدر منشور السلطان ارضاء للانجليز وارسل منه مئات الالوف الى الهند والافغان والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الاقصى وجميع بلاد الاسلام وتوزع منها نسخ كبيرة على ضباط الجيش

المصرى فى جميع المراكز بواسطة أبو سلطان باشا ومن معه من المخدوعين بالاسماعيلية مع الانجليز . ومن جاء اليهم من عمد البلاد والجهلاء ، وتفكر بعض أمراء العسكرية وقالوا إننا اذن عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة المذكورة الحاكمة وابنه ابراهيم ومن مات منا مات عاصيا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية، ونصحهم بأن هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لاننا انما نقاتل اعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على البلاد الاسلامية، وان الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وامر السلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور وانما هو دسيسة انجليزية تمكنوا من انفاذها بواسطة الرشوة، ولو فرض مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب عزله وعلى المسلمين خلعه لمخالفته لاحكام الدين ألا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون احكام الدين مثل أحمد بك عبدالغفار قومندان السوارى وعبدالرحمن بك حسن وعلى بك يوسف «خنفس» ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحناه واسروا الغدر والخيانة والحساب عند الله .

أما الخديوى فانه فوض أمره الى الدولتين صاغرا منذ ارتقى العرش لانه كان يعلم انهما اللذان أجلساه على العرش . . .

تقرر انعقاد مجلس فى هيئة مؤتمر عام وشكل من اكابر العلماء والرؤساء والروحانيين من الطوائف المختلفة ومأمورى الحكومة الحائزين

على الرتبة الثانية فما فوقها واعيان التجار واكابر الذوات وامراء العائلة الخديوية .

وانعقد فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ فى وزارة الداخلية وشهد الاجتماع ٤٠٠ عضو كان بينهم الامراء الموجودون فى العاصمة ورؤساء الاديان الثلاثة ، وفى مقدمتهم الشيخ الامبابى شيخ الاسلام ثم كبار العلماء وقاضى القضاة فى مصر ومفتى الديار المصرية والنواب ووكلاء الوزارات والقضاة وكبار التجار والائمة، وبعد أن تشاوروا طويلا اتخذوا قراراً خطيرا

١ - طلب حضور الخديوى والنظار الى العاصمة إن كانوا أحراراً ولزوم الاستمرار على التجهيزات الحربية مادامت عساكر الانجليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها .

٢ - تعيين لجنة مؤلفة من مندوبين من طرف المجلس العام ليتوجهوا الى الاسكندرية ، ويبلغوا سمو الخديوى وحضرات النظار قرار المجلس ثم يدعوهم الى المجلس ان كانوا أحرارا .

وانتخب المجلس على باشا مبارك رئيسا لهذه اللجنة وعضوية رءوف باشا حاكم السودان سابقا واحمد بك السيوفى من الأعيان والشيخ سعيد الشماخى وكيل دولة مراكش فى مصر والشيخ على نيل والشيخ احمد كبرة من العلماء .

واجتمع الوفد الخديوى والنظار وانضم على باشا مبارك واحمد السيوفى الى الخديوى ناكثين بالعهد ورجع الباقون ليبلغوا ان الخديوى اسير عند الانجليز ولا يمكن رجوعه الى مصر .

التطوع

شهدت البلاد حركة تطوع بين الفلاحين للانضمام الى صفوف الجيش أو تقديم المساعدات له وهو جيش مكون أساسا من الفلاحين المصريين وهو تطور ملفت للنظر . وبعد أن كان بعض شبان الفلاحين يحاولون التهرب من الجندية التى كانت تمثل فى أذهانهم البعد عن الاهل والوطن بأية وسيلة الى حد اتلاف بعضهم لبعض اعضائه فى أجسادهم تجدهم يطالبون بالانضمام الى صفوف الجيش للدفاع عن شرف الوطن الذى داسته أقدام الغزو الاجنبى، فقد أصبحت القضية واضحة أمامهم فيقدم الفلاح نفسه متطوعا بارادته وقد دفعته الحماسة وقادة الواجب ، فالحرب بين مصر والانجليز من وجهة نظره حرب دينية مقدسة اذن فالجهاد فى سبيل الله هو أرقى درجات الايمان حيث الحقبة هى القوى كما كان ذلك الرباط الذى توثق بين عرابى وبين الفلاحين قوة دافعة لهم لكى يلبوا نداءه ويطيعون أوامره كان عبد ربه يوسف من كفر عبدالخالق بمديرية المنيا يمر على النواحى وينادى «هيا بنا نتوجه لطرف عرابى الذى هو من نسل المبرور بعثه الله لحماية الوطن والدين وسيجعله واليا على القطر المصرى» وعلى الفور قام الفلاحون بالتجهيزات العسكرية من مشترى اسلحة وخيول وخيام وما يلزم من الذخائر صحبته المشايخ بزيادة الفين وخمسمائة نفر .

كان للنديم الدور الأكبر في هذا المجال وتعترف إحدى الصحف التركية بقولها «إن الفلاحين بعد ان كانوا ينفرون من العسكرية ولايأتون اليها الا في الحديد أصبحت الآن رغبتهم في الدخول تحت السلاح وما ذلك في الحقيقة الا لكونهم يريدون الوقوف في وجه الدوان الاجنبي .

في مديرية جرجا بلغ عدد المتطوعين ٢٠٠٠ شخص حيث كانت عائلة ابوستيت تتجول في البلاد لجمع المتطوعين والدعاية للثورة .

وشهدت مديرية المنيا حركة مهمة للتطوع قادها الشيخ أحمد عبد الجواد أحد مشايخ الازهر من قرية القايات واخوه محمد وبلغ عدد الفلاحين الذين تطوعوا مع ذلك الشيخ ٢٦٠٠ متطوع توجهوا الى كفر الدوار بقيادة عدد من عمد قراهم .

***

يذكر محمد عبده

«رأيت الاهالي يذهبون الى الحرب بمحض إرادتهم سواء كانوا فلاحين أو بدو مبدين شوقهم الكبير لمحاربة الانجليز وأيد الاقباط نفس الشعور وتدفقت البرقيات على عرابى تعلن عن رغبة الفلاحين في التطوع ، وكان عرابى يرد عليهم ويشكرهم ونتيجة لكثرة الاعداد التي كانت تلح في طلب التطوع فإن عرابى يبلغ بعض مديرى المديريات نحن شاكرين للمتطوعين غيرتهم على أوطانهم فبلغوهم عنة ذلك وأخبروهم أن يكونوا مستعدين لحين الطلب أما الآن فيتطمئنوا في أماكنهم آمنين .

١٠ سبتمبر:

توجه سعادة وكيل الجهادية لزيارة الجرحى الذين هم في مستشفى العباسية الجديد فدخل عندهم يعود كل منهم على انفراد ويسأله عن موضع جرحه ويطيب خاطره، وكان منهم من يجيب سعادته بما يدل على الغيرة الوطنية ويطلب الشفاء من الله لا محبة في الحياة ولكن ليعود إلى ميادين القتال ليتم ما أوجبه الله تعالى من قتال الأعداء.

١١ سبتمبر:

ذهب وكيل الجهادية إلى القلعة ليسلم بيرق الالاى الثالث، وخطب فيهم قائلا «أيها الضباط والصف ضباط والجنود كونوا على قلب واحد في الدفاع عن أوطانكم والمحافظة على بلادكم وقهر أعدائكم وحيث أن لكل أمة علامة شرف تمتاز بها وتحافظ عليها محافظتها على الشرف والحياة فإن البيرق الذي أسلمه إليكم هو هذه العلامة».

اشتعلت النار في سائر الميدان وكنت أرى على باشا فهمى مترددا على الصفوف يلاحظ الضرب ويأمر بمناولة الجنحان ويلاطف الجرحى ويقتحم النيران غير مبالٍ بها حتى لقد مرت رصاصة من فوق أنفه ثم مرت بين ياقتي القميص إذ كنت راكبا بجواره ورأيت راشد باشا حسنى راكبا جواده في نقطة حول عليها العدو مدافعه وهو ثابت لايتحرك بل مشغول بالمنظار في يده يراقب رمى الرصاص والقنابل ثم يأمر بتحويل الضرب للجهة التي فيها العدو أو بتطويل المسافة أو تقصيرها.

ثم دخل الليل وقد غضبت عساكرنا وزمجرت زمجرة الأسود وأطلق كل مدفع ٣٠٠ فتيلة ورمى كل رجل من رجالنا ٥ دست من الرصاص.

ولما بلغ الخديوى هول هذه الواقعة أرسل وفدا إلي الاسماعيلية مؤلفا من محمد سلطان باشا وعمر لطفى باشا لينضموا إلى زهران بك وبث العيون والجواسيس على جيشنا ولينحاز مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت عقائدهم وضعفت عزائمهم وقد كلف بعض رجال الوفد المذكور للتنقل في البلاد الريفية ليدعوا العمد والأعيان لطاعة الانجليز ومساعدتهم إتباعا للمنشور ، وقد انضم إليهم فى هذه الجناية السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفية وأحمد أفندى عبدالغفار عمدة تلا وغيرهم من المصريين الذين خارت قلوبهم.

***

استشهد من عساكرنا ستون شهيدا وجرح خمسة وثمانون وأرسلوا إلى القاهرة وعندما كنا نجيبهم ونلاطفهم ونسألهم عن أحوالهم لنخفف عن بعض ما بهم من الآلام نطقوا بلسان واحد إننا نتمنى الشفاء فى هذا الآن ونرجع إلى مواقعنا ننتقم من أعدائنا ونبيض وجه تاريخنا لنذكر على مدى الأيام!! .

جريدة كرستبورج الألمانية ـ ٢٧ يوليو

تبينت شجاعة المصريين وثباتهم فى الصدام فى كفر الدوار وبطلت فكرة الانجليز التى أذاعوها وأن المصريين يفرون ويتركون مواقعهم بمجرد رؤية القوات البريطانية وأن عرابى سوف يهرب من البلاد بمجرد

نزولهم إليها. وتحقق الرأى العام الأوربى أن كل ذلك وهم واضح وخيال وربما أصبح أفضل حل للمسألة المصرية هو عزل الخديو توفيق وتعيين خديوى آخر بفرمان جديد من الأستانة، والتوفيق بين الخديوى الجديد وعرابى باشا، الذى يتولى السلطة ويملك القوة الآن، ولم يعد هناك معنى لإراقة الدماء وتخريب بلاد خصبة جميلة من أجل خديوى من هذا النوع، ولا يجدر بالدول الأوربية أن تكون سببا فيما سوف يحدث من أضرار بالغة.

***

من سعادة ناظر الجهادية والبحرية بكفر الدوار إلى سعادة راشد باشا حسنى قومندان الخط الشرقى:

أهنىء سعادتكم والأمة المصرية كما أهنىء نفسى بما أيدكم الله من النصر والفتك بالعدو الباغى فقد ملأتم القطر سرورا بثباتكم العظيم وحليتم صفحة التاريخ بأعمالكم الحربية الجريئة، وليس بعجيب أن أراكم سائرين تحت ألوية النصر فى كل واقعة تبارزون فيها الانجليز أعداء الدين وأعداء الإنسانية بعد علمى بأنكم المديرون المحنكون وتحت إدارتكم أسود لا يعبأون بجيوش العدو وأن أكثر عددهم لما وعدهم به الله من النصر المبين وما غرس فى قلوبهم من حب أوطانهم والدفاع عنها، والحرب وإن استمرت ١٢ ساعة فإنها ما كانت إلا ملعب فرسان تكتب فيه يد الفخر شرف المصريين بدم الانجليز لتكون آية يتلوها كل من مر فى ذلك الميدان على تعاقب الدهور، فاقبلوا الشكر الجليل من

مخلص أسكنكم فى فؤاده فلا يتحرك حركة إلا وأنتم فى وجهتها كباقى الأمراء والعساكر المصرية والعربان.

***

ضم درويش باشا صوته إلى ماليت، وأقنع سلطان باشا أن أمير المؤمنين الذى يكره الخديوى وأسرة محمد على عامة كما يكره العرابيون الذين يريدون الاستقلال وإعادة الخلافة العربية سوف يبارك ولايته على مصر واستولى بذلك على خيال الفلاح الساذج الطموح.. واستطاع أن يشق صفوف النواب والضباط.

منح عرابى القوات بضع ساعات من الراحة بناء على معلومات مضللة تلقاها من أحد قواده الخونة.. وهجم ولسلى على جيش نائم، وبهذا كانت التل الكبير مجزرة وليست معركة ولابد أن يطأطىء أى قائد عسكرى رأسه خجلا وخزيا ولا يمكن أن يفخر بها، كانت أحط عمل يمكن أن يرتكب ضد أى شعب فى هذا العصر ـ يدافع عن أرضه وأشدها نذالة وخسة.

«غوردن»

***

ذهب عرابى إلى القاهرة حيث كان مجلس الثورة فى انعقاد كامل برئاسة الأمير إبراهيم كامل وبعد أن استعرضوا الحال تقرر استمرار المقاومة.

وذهب عرابى للتفتيش على القوات الباقية فى مختلف المواقع والثكنات ووجد أن قواتها وتسليحها لاتسمح لا قدرة لى على وصف ما لحقنا من سوء المعاملة والتيقن بالهلاك، فقد أدخلونا مساء ذلك اليوم ١٥ سبتمبر فى حجرة مهجورة من سجون الضبطية ليس بها غير الأرض والسقف فما زلنا بها على أقدامنا أكلة البراغيث ومضغة للبعوض والقمل إلى ما بعد منتصف الليل ثم سمح لنا بدخول بعض الفرش وكنا .

الفصل السابع

دستــور دوفرين

بعد تمام الاحتلال وتصفية الثورة والذى استغرق قرابة شهرين أعلن أن فخامة اللورد دوفرين سفير بريطانيا لدى الدولة العلية سوف يشرف مصر بالزيارة.

وصدرت ارادة سنية خديوية بأن تستعد البلاد قاطبة وتلبس أبهى حللها وتبدى كل زينتها لتستقبل الضيف الكبير.

كان المسئول عن «الحلف المصرى» من البداية إلى النهاية .

ووصل الضيف الكبير إلى الاسكندرية يوم ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢ واستقبل بكل مراسيم «نائب الملكة» اطلقت المدافع لدى وصوله من البوارج التى ظلت راسية فى الميناء، واصطف رتل طويل حاشد يتقدمه مندوب الخديوى ومحافظ المدينة وكبار الموظفين والاعيان ثم صف أخر من كبار الضباط البريطانيين «بملابس التشريفات».

واتجه فخامته بعد ما فرغ من تحية الجميع إلى سراى رأس التين فى مركب مهيب يحف به حرس من الضباط والجنود البريطانيين،

وتناول طعام الغداء وبعد أن استراح بعض الوقت غادر بنفس الموكب إلى محطة القطار ليبارح إلى القاهرة.

وكان الاستقبال أكثر هيبة وروعة في العاصمة اصطف عطوفتلو محمد شريف باشا رئيس النظار، وكبير التشريفاتية على باشا ذو الفقار ممثلا للخديوى، والقائد العام للقوات البريطانية وحشد من كبار ضباطه، ثم القنصل العام البريطاني السير ادوارد ماليت، ورجال القنصلية ووراء الجميع حشد من الوزراء والكبراء والذوات الذين تسابقوا في اظهار الولاء.

وأطلقت المدافع في القلعة، وكما لم تطلق من قبل تحية لأى ضيف أجنبي ودهش الجميع ولم يفهموا، لماذا تعمد أن يبدأ بمصافحة القنصل البريطاني وتحيته قبل الجميع .

واستقل الضيف عربة يرافقه فيها مندوب الخديوى - وتبعها الاخرون، وشق الموكب شوارع العاصمة التي كانت خالية الا من رجال البوليس، حتى وصل إلى قصر النزهة في شبرا والذي أعد لنزوله مع الليدي دوفرين.

وفي صباح اليوم التالي توجه اللورد بنفس الموكب، ووسط شوارع المدينة التي ظلت خالية حتى قصر عابدين، حيث أطلقت المدافع ووجد الخديوى في استقباله في مدخل القصر«في حرارة عاطفية بالغة» ، ألقى اللورد كلمة قال فيها «يسعدني أن التقى بالرجل الذي اكتسب ثقة أوروبا واحترامها بما أبداه من الحزم والثبات في الاوقات العصيبة

وحتى تحقق السلام و الاستقرار » ، ورد الخديوى « ممتنا شاكرا مقدرا كل التقدير»! .

وفى المساء قام الخديوى برد الزيارة فى قصر النزهة، واطلقت المدافع لدى وصوله ثم لدى انصرافه بعد عدة ساعات بحث فيها ترتيبات الزيارة وبرنامج العمل! .

وتقرر أن يكون رئيس الوزراء شريف باشا مرافقا دائما للضيف وأن يضع تحت امرته كل الحقائق والوثائق التى يطلبها، وأن يصحبه فى الزيارات التى سوف يقوم بها فى أرجاء البلاد، ليبحث المشاكل على ضوء الواقع ويضع الحلول..

وأقام اللورد فى مصر أربعة أشهر – حتى فبراير سنة ١٨٨٢، ثم أذيع التقرير الذى اعده «للاصلاح» واعتمدته الحكومة البريطانية والحكومة المصرية أيضا ليكون «دستور» العهد الجديد.

وبعث اللورد نسخة من التقرير إلى مرافقه وساعده الايمن فى اعداده دولة شريف باشا بخطاب قال فيه :

«أتشرف بأن ابعث إليكم بنسخة من التقرير الذى اعددته ليكون اساسا لتنظيم أحوال مصر وشئونها – ويتضمن التقرير الاراء التى ناقشناها معا خلال اللقاءات والمناقشات العديدة التى عقدناها معا وثمرة الجهد المتصل الذى قمنا به تحقيقا للهدف المشترك الذى أخذناه على عاتقنا».

«واعتقد أنك تشاركنى الرأى أن الحظ أسعد مصر بفرصة لم تكن تتوقعها لكى تنهض من عثرتها بفضل الحلول والمقترحات التى توصلنا إليها.

واستطيع أن أؤكد لكم ثقة كل المسئولين وكبار الموظفين البريطانيين بكم وتصميمهم على تقديم كل مساعدة ممكنة ، وهذه فرصة ثمينة لم تسنح لمصر من قبل وأن تجد مثل هذه النخبة من موظفين أجانب ممتازين ومخلصين لبلد غير وطنهم.

وقد أكد لى اللورد جرانفيل وزير الخارجية أكثر من مرة ثقته التامة وثقة الحكومة جلالة الملكة بسمو الخديوى وعزم الحكومة البريطانية الصادق على تدعيم سلطة سموه وتوطيدها على أسس ثابتة مستقرة.

وأجابه شريف باشا بخطاب قال فيه:

«سيدى اللورد»

ان كل الفضل فيما تضمنه تقريركم من مبادئ ومن خطط ومشاريع اصلاحية وكل ما فاض به من فهم وعطف على البلاد وأهلها انما يرجع اليكم أنتم، ولم نكن لنستطيع أن نستأنف السير إلى المستقبل فى ثقة واطمئنان الا بفضل حكمتكم وسعة أفقكم واهتمامكم العميق وكرم أخلاقكم وروح العدل والانصاف الذى تميزتم به والجهد الشاق الذى بذلتموه من أجلنا.

وسوف تضع الحكومة المصرية تقريركم - فى المكان الاول - وتوليه كل اهتمامها وتثق أن لانهضة للبلاد من الانحطاط الذى انحدرت اليه الا بتطبيق كل ما جاء به.

وقد وقف رئيس الوزراء البريطانى جلاد ستون، بعد الاحتلال بأيام ليرد على سؤال لعضو فى مجلس العموم حول الاهداف البريطانية فى مصر وقال:

«لقد سألنى العضو المحترم هل فى نيتنا احتلال مصر احتلالا مؤقتا أم احتلالاً غير محدود وأنا أذهب فى الاجابة إلى أبعد مدى وأصرح وأؤكد أننا لن نقدم ابدا على الاحتلال الدائم لاننا بذلك نتنكر لمبادئنا ونتناقض مع كل ما تقوم عليه سياستنا، وكل ما التزمنا به نحو أوروبا».

وعاد رئيس الوزراء البريطانى ليؤكد مرة أخرى:

«ان الشك الذى يساور الرأى العام الاوروبى حول احتلالنا لمصر يعود إلى أن هناك البعض ممن يدعون صراحة أن نكون احتلالا مؤبدا ولان نضم مصر وندمجها فى الامبراطورية، ولكن ذلك أمر نرفضه تماما وليس لدينا أى نيه فى ذلك بل أننا نقاومه تماما لانه يعنى انحرافنا عن واجبنا نحو مصر وخروجنا على كل المواثيق والمعاهدات الصريحة الحاسمة التى قطعناها على أنفسنا أمام العالم، والتى اكتسبنا بها ثقته واحترامه، ان الاحتلال لن يتجاوز المدة الضرورية لتوطيد الشرعية ولن

يؤدى أبدا إلى الضم وسوف نحرص أشد الحرص على أن لا يكتسب أى صفة دوام أو استمرار.

وأدلى اللورد دوفرين لدى عودته إلى منصبه بتصريحات مماثلة:

«ليس لدينا أدنى رغبة فى الاحتفاظ بالسلطة التى آلت الينا .

إن كل ما نريده هو أن نهيئ لمصر كل اسباب الرقى والتقدم وان نغرس فى أرضها بذور الحرية ولكى تقوم نظم مستنيرة حكيمة وذلك بأن يجلس على عرشها حاكم يبعث الثقة وحكومة تكفل الحرية والعدالة ويتولاها رجال متميزون بالكفاءة والنزاهة وهذا كل ما نرى أنه واجبا نحو مصر».

وعبر فخامته عن ذلك فى التقرير الذى أصبح دستور الانقاذ والاصلاح فى مصر وأحد وثائق الامبراطورية .

بدأ التقرير فوجئنا بأحداث جسيمة فى مصر لم يكن لنا يد فى وقوعها ولا قدرة فى السيطرة عليها، ورغم كل ما بذلنا من جهد لتداركها وتلافيها الا أننا اضطررنا فى النهاية إلى التدخل ثم وجدنا فى النهاية ان لا مناص لنا من الاحتلال. ولم نجد أمامنا مفرا من ان نتحمل هذه المسئولية لكى ننقذ مصر من فوضى ضاربة هددت كيانها ووجودها، وقد أتممنا المهمة لا لحسابنا ولكن باسم أوروبا عامة.

وقد أدى ذلك الاجراء إلى حماية مستقبل مصر وضمان أمنها واستقرارها والحفاظ على مصالحها ، ثم أن لا يتكرر منها ما حدث وان لا يتهددها أى أنقلاب أو غزو – بل وان نغرس فيها دعائم الحرية والعدل .

واستطرد:

واذا ما طالعنا تاريخ مصر سوف نكشف بلا عناء أن كان من أصعب الامور إن لم يكن من المستحيل أن تقوم فى مصر حكومة نزيهة عادلة، وذلك لان كل الذين حكموها منذ ان كان لها تاريخ كانوا أجانب غزاة غرباء تعاقبوا على قهر الشعب واذلاله، ولم يقدموا إليه من اساليب الحكم الا ما كان ظالما قاهرا فاسدا.

ولا يذكر التاريخ اى حقبة او عصر عرف فيه المصريون طعم الحرية وكان عليهم ان يعيشوا تاريخهم كله أذلاء تعساء مستعمرين مستعبدين حتى بزغ لهم فجر عصر جديد ، وبذلك حين أجمعت الدول الاوروبية على أن الوقت قد حان لكي تقوم بانقاذ هذا البلد وانتشاله واصلاح حاله- ووفرت كل الاسباب والمقومات لذلك .

ولاشك ان أول هذه المقومات هو الامير الجالس على العرش وهو حاكم محبوب من شعبه حريص على استقلال بلاده مؤمن بحرية التجارة وبالحضارة الحديثة، متمسك بالحكم الدستورى، فضلا عن شخصية ذات اخلاق وخصال مهذبة لطيفة متواضعة لاقصى حد، ولا أثر فيها قط للصلف والغطرسة والطغيان الذى تميز بها الموكب الحافل من الطغاة الذين توالوا على حكم مصر فى الماضى البعيد والقريب.

وفى الشرق لابد من حساب دقيق لكل خطوة من خطوات التطور والرقى لانه لم يعرف مطلقا، ولم تغرس فيه ابدا أى بذرة من بذور الحرية بل لقد أدى الاستبداد والطغيان الذى ساد تاريخه لا لنقل أى

بذرة تغرس ولكن لتجميد الارض بحيث يستحيل ان تنبت أو تزدهر فيها أى شجرة للحرية، وحتى أصبحت شعوبها لفرط ما مرت به من عصور الاستعباد والرق أن اعتادت هذا الحكم، بل وأصبحت اذا ما تصادف وتولى حاكم على شئ من النزاهة والعدالة ان تزدريه وتنبذه ولا يحتمل له أى هيبة او عرفان ولا ينصح هذه الحقائق، وتتأكد فى بلد مثل ما هى فى مصر وقد ذهب البعض إلى القول ان هذا البلد لا يصلح الا على يد حاكم أجنبى يحمل فى يده الكرباج .

«ليس هناك من يستطيع الادعاء بان مصر قد وصلت إلى أى درجة من الجدارة والاهلية بحيث تقوم فيها حكومة ديمقراطية، ولو حاول أحد ذلك فى ظل ظروفها الحالية وأراد اقامة حكومة على المبادئ الدستورية المطبقة لدينا، فان الامر سوف ينتهى مرة أخرى إلى الفوضى التى فتكت بها مؤخرا ».وقد استقر رأينا على أننا لو حاولنا ذلك فإننا سوف نرتكب ذنبا بل وجريمة فى حق مصر سوف تلازمنا للابد ولن يغفرها لنا أحد . وقد ناقشت من أهل هذا البلد من هم أشد الناس حبا للحرية وايمانا بها ، ولم يختلف أى أحد منهم على أن أسوأ ما يمكن ان يحدث لمصر وأخطره على مستقبلها سوف يكون تطبيق النظم الديمقراطية والدستورية الآن.

«ولكن هذا لايعنى بأى حال ان لا نؤكد للمصريين، ونقنعهم عن يقين بأن ليس فى نيتنا ولا نرغب قط فى ان نحكمهم مباشرة أو أن نفرض عليهم حكومة مستبدة تنفذ ارادتنا وأوامرنا، بل ان كل ما ننشده بصدق

واخلاص هو ان نعدهم ونؤهلهم لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى ظل رعايتنا وتوجيهاتنا وعطفنا الصادق.

«وليس من بين أهدافى قط أن أضع مشروعا يجعل من مصر ولاية هندية تابعة لنا، ولو كان ذلك صحيحا لاتبعت طريقا آخر، ووضعت نظاما يركز السلطة فى يد حاكم قوى يضع كل شئ تحت امرته وإرادته ويحقق بذلك الاستقرار».

«ولو فعلنا ذلك لاستطعنا فى مدى لا يزيد على خمس سنوات أن يتم الاصلاح الضرورى وان نضاعف ثروة البلاد ومساحة الاراضى المزروعة والدخل وان نبطل السخرة وكل اشكال الاستغلال والاستعباد السائد، ولكننا رفضنا ذلك لاننا لا نريد أن نفقد ثقة المصريين بنا أو ان يعتقدوا أننا ننزع استقلالهم وسيادتهم الوطنية ونفرض عليهم هذا الثمن الباهظ وهذا ما يتعارض تماما مع سياسة حكومة جلالة الملكة، بل وما يأباه ويرفضه الرأى العام البريطانى.

ان النظام الذى نهدف اليه فى مصر نظام لا يفرض علينا البقاء فيها ولا يحملنا تبعات السلطة والادارة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وكل ما نريده ونسعى اليه هو نظام يحمى الاصلاح الذى تقوم به ونحفظه من السقوط والانهيار بعد ان نغادر ونرفع ايدينا تماما.

واننا نتمسك بقيام حكومة تمثل الاهالى تمثيلا صحيحا، وتؤكد بذلك صدقنا وبعدنا عن أى أغراض ذاتية لسنا دولة حامية تعرض حكومة مستبدة مزيلة تابعة، نحن نريد نظاما نيابيا وان يكون للشعب نواب يتكلمون باسمه ويعرفون مايريده وتحتاجه البلاد حقيقة.

ينتقل التقرير إلى الجيش الذى يسبب اليه كل الرد على ويقول .

«لقد بحث طويلا ودققت البحث فى كل ما يتعلق بالجيش المصرى وانتهيت إلى حقيقة اساسية وهى أن مصر لا تحتاج إلى جيش أى قوة عسكرية منظمة وكثيرة وذلك لان الصحراء تحدها من ثلاث جهات وتتكفل بحمايتها.

إن أول ما يفتقر اليه الجيش المصرى هو الضباط الاكفاء ويمكن تدارك هذا النقص الجوهرى باستخدام ضباط أجانب، ويبدأ ذلك بان تتركز القيادة العليا فى يد سمو الخديوى وان يوضع الجيش المصرى مؤقتا تحت قيادة جنرال انجليزى يساعده بعض الضباط الانجليز».

وينتقل التقرير إلى الامن وبعد هذا الحل الحاسم للمشكلة يقول:

لن ينسى أحد أو تبارح ذاكرته الطواتع والقطائع التى شهدتها الاسكندرية خلال مذبحة يونيه سنة ١٨٨٢ والتى كانت من تدبير جنود البوليس المصريين الذين فتكوا فتكاً ذريعا باوروبين الاجانب وقد استوعبت الحكومة المصرية هذا الدرس تماما، ولم تعد لها أدنى ثقة برجال البوليس المحليين ولهذا قررت اسناد مهمة الامن فى القاهرة والاسكندرية إلى رجال بوليس أوروبين . وان تضاعف من عددهم فى المدن الاخرى.

وقد رأى سمو الخديوى بحث أن توضع قوات البوليس عامة تحت إشراف مفتش عام انجليزى يساعده ضابط بريطانى كبير وأربعة مساعدين أوروبيين على أن يصل العدد تدريجيا إلى ثمانية عشر كما

رأى تكوين فرقتين رئيسيتين من البوليس توضعان تحت قيادة أوروبية ثم أن تفصل قوات البوليس تماما عن قوات الجيش وتوضع تحت ادارة وزارة الداخلية وبذلك لا تسرى اليها روح التمرد والفوضى التى امتدت من قبل ورأى أن تتنوع جنسية الضباط فى قوات الامن بحيث اذا ما تحددت قوة ان يتم ردعها على الفور.

ويصل التقرير إلى الهدف الذى ترفع بريطانيا اعلامه دائما وهو اقامة العدل ويقول .

«لاشك ان القضاء العادل الذى هو أهم ما تفتقده مصر، والتى لم تعرف عنه شيئا من قبل بعد ما رسخ الفساد والرشوة وانعدام الضمير لدى القضاة المصريين وامتزج بكيانهم وأصبح تقليدا متمكنا يستحيل اقتلاعه أو استئصاله ولا علاج له الا بتولية القضاة الاوروبيين وتعميمهم فى المحاكم ويجمع على ذلك الاهالى والحكومة على السواء. وأن ليس هناك طريق أخر لبث روح النزاهة والاستقلال الا ان يصبح القضاة الاوروبيون القدوة والنموذج الذى يحتذون به .

ولهذا نرى أن يكون لوزير الحقانية مستشار قضائى انجليزى كبير يتولى منصب المحامى العام ، وأن يعين فى كل محكمة ابتدائية قاضى أوروبى من القضاه الثلاث الذين يترأسون المحكمة وأن تتكون محكمة استئناف بكل من الوجه القبلى والبحرى، تتكون كل منهما من خمسة قضاه ثلاثة منهم من الاوروبيين الذين يختارون بعناية وتضاعف لهم المرتبات.

وبعد الجيش والبوليس والقضاه ينتقل التقرير إلى المشكلة الام فى مصر وهى الزراعة والرى ويقول:

«إن ثروة مصر تكمن فى أرضها والتى يتوقف خصبها على الرى من مياه النيل وهو يأتى كل عام بكنوز عظيمة من المياه والطمى، ولكن جانبا عظيما من هذه المياه يضيع سدى ويذهب إلى البحر ولا ينتفع الا بقدر ضئيل من المياه . ولاشك لو اتحدت طرق رشيدة علمية للرى لامكن الانتفاع بالقدر الغزير من المياه والطمى الذى يذهب هباء، وبذلك تستزرع الاراضى القاحلة الآن وتصبح مزارة مزدهرة وتزداد مساحة أرض مصر آلافا من الافدنة ويتعاظم ايراداتها حتى تصبح ديون مصر أمرا سهلا فى تسويته.

ونص التقرير الحل الأفضل وهو «أن مصر تنشأ به مع الهند فى مشاكل الزراعة والرى فإن الممكن أن يطلب إلى حكومة الهند أن تنتدب خبيرا قديرا من خبرائها لتتعاقد معه مصر بعقد لمدة خمس أو ست سنوات يتجدد بعدها ويتولى كل مسئولية الرى والاشراف عليها فى مصر ، وذلك بأن يمنح سلطات كاملة ومطلقة سواء فى تعيين الموظفين أو ترقيتهم أو الاستغناء عنهم متى يشاء ، وأن يقوم أيضا باعداد ومراجعة كل الخطط والمشاريع السنوية ويحقق فى كل الشكاوى التى ترفع إليه ويعرض ذلك على ناظر الاشغال العمومية .

ولأول مرة تعنى بريطانيا بأمر الثقافة وبالحياة الروحية للشعب ، ويكشف التقرير سرا لم يصل إليه أحد قبل ، ويقول :

إن الأمل فى رفع مستوى العامة فى مصر وتعليمهم وتهذيبهم يظل ضعيفا طالما كان الاطفال لا يتلقون تعليمهم باللغة العامية بدلا من لغة القرآن ، وذلك لأن الفرق ساسع بين هذه اللغة القديمة وبين اللغة المصرية الحديثة وهو يشبه الفرق بين اللغة الايطالية المعاصرة واللغة اللاتينية أو بين اليونانية الحديثة ولغة اليونان القديمة .

ويتعلم الفلاح لغة عربية أخرى قائمة بذاتها ولها قواعدها الخاصة بها ولهذا لابد من تعميم العامية بأسرع وقت ممكن لأن التعليم بالطريقة السائدة لن يؤدى إلى نتيجة، وهو يخرج جيلا بعد جيل غير قادر على خدمة بلاده سواء فى الإنتاج لو فى الجيش أو فى الادارة وبذلك يظل كلمة مصر للمصريين لغوا باطلا لا معنى له .

ولم يكن اللورد يعرف العربية أو العامية ، وبالطبع لم يقرأ شيئا من القرآن ، ولكن تشكيك الشعوب فى ثقافاتها وحضارتها ولغاتها وهضم الصلة بينها وبين تراثها ثم فرض اللغة الانجليزية عليها كان ركنا أساسيا لتأهيل الشعوب .

وبقيت مشكلة المشاكل التى «أرغمت» بريطانيا على التدخل والاحتلال لانقاذ مصر وتسوية ديونها ولم يفعل اللورد أكثر من استعارة «المشروع الوطنى» والذى قام على توحيد الديون وتخفيض الفوائد وتنظيم الأقساط والذى استماتت بريطانيا فى اجهاضه حتى «تضطر» إلى التدخل .

وأصبح التقرير «أمانة» في يد رئيس مجلس «النظار» محمد شريف باشا ليترجمه إلى واقع ويبدأ به عصر «الحرية» على الطريقة البريطانية .

ويدأ سمو الخديوى بتنفيذ أهم ما جاء به من توصيات .

أصدر سموه مرسوما بحل الجيش المصرى وتسريح الجنود ، والتحفظ على الضباط حتى يفصل فى أمرهم ، وأعلن عن تعيين الجنرال فالنتين بيكر قائدا عاما للجيش ، بناء على ترشيح الجنرال ولسلى القائد العام لقوات الاحتلال والقنصل العام ماليت ، وأنعم عليه سمو الخديوى برتبة الفريق ثم رتبة الباشوية وأصبح الفريق فالنتين بيكر باشا .

وأصدر سمو الخديوى مرسوما آخر بنقل الفريق فالنتين باشا بيكر من الجيش إلى البوليس والأمن وحل محله ضابط آخر هو السير ايفلين وود من أركان حرب قوات الاحتلال ، واتخذ لقب «سردار الجيش المصرى» .

ولكى يتكامل الجيش والبوليس والقضاء صدر مرسوم خديوى بتعيين المحامى البريطانى السير بنسون مكسويل ليتولى منصب النائب العام والمستشار القضائى ، ويشرف على تطهير القضاء وغرس بذور النزاهة والعدالة فى مصر .

ورشحت حكومة الهند الكولونيل سكوت مونكريف مفتش الرى البريطانى ليكون مفتشا عاما للرى فى مصر ويتولى تدبير وتوزيع المياه وتحويل الصحارى إلى جنات خضراء .

وألغيت المراقبة المالية الثنائية ، وتقرر تعيين العضو البريطانى السير اوكلاند كولفن مستشاراً ماليا للحكومة المصرية وبسلطات كاملة فى كل ما يتصل بالمراقبة المالية ، وأثار ذلك احتجاجا شديدا من فرنسا والدول الأوروبية ولكن لم تأبه بريطانيا .

وتقرر حل مجلس شورى النواب وأن يعتقل من شارك فى العصيان أو حرض عليه من الاعضاء ومحاكمتهم ، وأن يلزم الباقون قراهم وبوائرهم وحل الحزب الوطنى الذى كانوا قيادته وكيانه .

وبعد سفر اللورد عكف رئيس النظار محمد شريف باشا ، على اعداد وصياغة «الدستور» الجديد والذى أعلن فى مايو سنة ١٨٨٣ باسم القانون النظامى «ويضم الدستور وقانون الانتخاب أيضا» واللذان يضعان مصر على الطريق السليم إلى الديمقراطية الصحيحة .

وتقرر أن يقوم النظام الجديد على أربع قوائم :

١ – مجلس المديريات .

٢ – مجلس شورى القوانين

٣ – الجمعية العمومية

٤ – المجلس الاستشارى للحكومة – ويصدر مرسومه «فيما بعد»

وكان مجلس المديرية هو القاعدة الديمقراطية ولكل مديرية مجلس يتفاوت عدد اعضائه بحسب مساحة وتعداد أهل المديرية ، ويتراوح ذلك بين عضو واحد وثمانية أعضاء وهو الحد الأقصى وكانت الغربية هى المديرية الوحيدة التى حصلت على تلك المكانة . ثم اسيوط بتسعة أعضاء والمنيا أربعة والفيوم ثلاثة .

وتقرر أن لا يتجاوز أعضاء مجالس المديريات جميعا ٦٦ عضوا يمثلون المديريات الأربعة عشر . وكانت شروط العضوية أن لا يقل عن الثلاثين عاما وأن يعرف القراءة والكتابة وأن يدفع خمسين جنيها ضرائب على الأطيان والعقارات وأن يكون اسمه مدرجا في قوائم الانتخاب قبل حمس سنوات .

وتقرر أن تكون العضوية ست سنوات وينتخب النصف كل ثلاث سنوات .

وينتخب أعضاء مجالس المديريات عن طريق مشاريخ البلاد ويعقد المجلس تحت رئاسة مدير المديرية . وذلك مرة واحدة في العام «على الأقل» وتكون الجلسات سرية .

وتقرر أن لا يكون للمجلس أى رأى قطعي في أى أمر من الأمور وأن كل آرائه استشارية في كل المسائل المحلية والخاصة بالمديرية ، وإن كان له الحق في فرض رسوم أو ضرائب تصرف في منافع المديرية على أن لا تنفق إلا بعد تصديق الحكومة .

ثم يرتفع البناء الديمقراطى إلى .

مجلس شورى القوانين :

ويتكون هذا المجلس من ثلاثين عضوا يعين الخديوى ١٤ عضوا منهم من بينهم الرئيس وأحد الوكيلين . وتكون عضوية هؤلاء دائمة ولا يعزلون من «الوظيفة» كما نص القانون إلا بقرار يصدر من المجلس بأغلبية ثلثى الأعضاء .

وينتخب باقى الأعضاء الستة عشر من أعضاء مجالس المديريات وعلى أن يضم إليهم عضو عن مدينة القاهرة وعضو عن موانيء القطر الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس وبورسعيد والاسماعيلية والعريش .. جميعا .

وتقرر «أن لا يكون للمجلس رأى قطعى فى أى أمر من الأمور ولكن تستشيره الحكومة فى كل تشريع تنوى إصداره، وإذا لم تأخذ برأيه يكون عليها أن تعلنه بالأسباب التى أدت ولا يترتب عنه أى إعادة لمناقشة الموضوع» .

«ويكون للمجلس حق ابداء رأيه فى الميزانية وأن يبعث بآرائه إلى ناظر المالية وإن شاء أخذ بها وإن شاء رفضها على أن يبدى فى حالة الرفض الاسباب التى دعت إلى ذلك ، ولكن لا يترتب أى إعادة للمناقشة .

ولا يكون للمجلس الحق فى مناقشة الدين العمومى أو ما التزمت به الحكومة فى قانون التصفية أو جزية الباب العالى أو كل الاتفاقات الدولية الأخرى .

«ويكون اجتماع مجلس شورى القوانين ست مرات فى السنة أى كل شهرين ، ويدعو الخديوى المجلس للانعقاد بمرسوم كما يصفيه بمرسوم آخر وتكون جلسات المجلس سرية .

وتقف على قمة الهرم «الديمقراطى » .

الجمعية العمومية :

وتتألف من النظار ومن أعضاء مجلس شورى القوانين جميعا ثم ٤٦ عضوا ينتخبون على درجتين بواسطة «مندوبى انتخاب» معبنين ويتراوح عدد الأعضاء بين أربعة عن مدينة القاهرة وثلاثة عن مدينة الاسكندرية وواحد عن كل مدينة ساحلية واثنين عن كل مديرية فى الصعيد ..

ويشترط فى العضو أن يبلغ الثلاثين وأن يعرف القراءة والكتابة، وأن يدفع عوائد «ألفى قرش» ، وأن يكون اسمه مقيدا فى قوائم الانتخاب منذ خمس سنوات .

وتميزت الجمعية العمومية بأن لها الحق «فى أن تفرض ضريبة أو تربط أموال أو رسوم جديدة على العقارات أو المنقولات أو عوائد شخصية .

وفيما عدا ذلك فإن رأيها استشارى للحكومة الحق فى الأخذ به أو رفضه مع ابداء الأسباب وعدم إعادة المناقشة .

وتعقد الجمعية العمومية دورتها مرة كل سنتين وذلك بناء على دعوة الخديوى بمرسوم ويملك حق فض الدورة أو حل الجمعية على أن يدعو لانتخابات أخرى بعد ستة أشهر .

وتعقد جلسات الجمعية سرية ويرأسها رئيس مجلس شورى النواب.

ولم يكترث أحد في مصر بأن يشرح أو يعلق على القانون النظامي «الذي قدمه نفس واضع الدساتير السابقة» ولكن تولت بعض جرائد الأحزاب البريطانية تسفيهه والسخرية اللاذعة به. وقال أحد الأعضاء في مجلس العموم «لم تمسخ المبادىء والنظم بمثل هذه الجرأة من قبل».

ولم يقف ذلك عائقا – دون اجراء الانتخابات – التي لم يشارك فيها أحد وتحدد يوم ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٣ لافتتاح المجلس والقى رئيس مجلس النظار محمد شريف باشا خطابا مختصرا لم يزد عن أن قال :

«إن اجتماع مجلس شورى القوانين اليوم اجتماع غير عادى وسوف نبدأ جلساته الاعتيادية .

ووقف رئيس المجلس المعين محمد باشا سلطان ليرد على بيان الحكومة المختصر .

دعتني الحضرة الفخيمة الخديوية لرئاسة مجلس شورى القوانين وحضرت سعيدا لوجودى بين حضراتكم أيها الذوات والأعيان الذين اجتمعتم هنا بناء على ما للحضرة الخديوية والحكومة السنية وللأهالي من الثقة بكم . واجتماعنا هو بقصد الاشتراك في الأعمال المتعلقة باقتراح القوانين فاقبلوا مني جميل التحية ، وكونوا على يقين بأني أقوم بما حملته على وظيفتي من الواجبات بدون غرض .

ولم يهنأ على أى حال طويلا بما حصل عليه ، وأصابه الاكتئاب من تجنب الناس له وانصرافهم عنه .. وازدرائهم لشأنه ولم يلبث أن مات بعد قليل بالسرطان في مدينة فيينا .

الفصل الثامن

نائب الملك

وقع الاختيار على السيرا يفلين يارنج السكرتير المالى لحكوكة الهند ليكون القنصل العام البريطانى فى مصر بعد الاحتلال، ونقل السير ادوارد ماليت الذى كان يحلم بالمنصب سفيرا فى «بلجيكا» وبما لا يساوى كل ما فعل وارتكب

ورحب السير ايفلين ترحيبا حارا بالمنصب والعودة للعمل فى مصر وأدلى بحديث صريح لم يجد أى حرج أن يقول فيه :

• « إننى سعيد بالمنصب وسوف تكون مهمتى التى اعكف عليها هى ارشاد الحكومة البريطانية إلى أفضل النظم لادارة بلد كان عليها أن تحتله رغم ارادتها، وفى لحظة غيبوبة سياسية ولا تعرف الكثير عنه وسوف ينصب كل جهدى على انتشال شعب ذلك البلد المقهور الذليل الذى سقط فى اعماق هوة سحيقة حتى القاع ، وأن أرفعه إلى مصاف البشر لأول مرة فى تاريخه .

وأضاف:

«إن مصر بالنسبة لى تعنى أولا وأخيرا الفلاحين الذين هم الغالبية العظمى من أهلها وأحمل لهم فى نفسى عطفا شديدا لتعاستهم الصارخة» .

« وقد عرفت من أول كتاب قرأته عن مصر أن الفلاح المصرى لم يتغير فى شئ وأنه يظل على نفسى الحال الذى كان عليه منذ خمسة آلاف عام ولا فرق بين الفلاح المعاصر وآخر على جدران معبد الكرنك، وأن المدنية لن تصل إلى هذا الفلاح قبل الف عام أخرى، واعتقد ان الحظ قد ابتسم لهم وارسل لهم بريطانيا لكى تغير هذا الرأى.. ولست يائسا من أننا سوف نرد لهم انسانيتهم وسوف يذوقون طعم الحرية والعدالة لأول مرة فى تاريخهم وسوف يدركون أن ذلك حق من حقوقهم».

واختتم حديثه :

انهم شعب مقهور كما لم يقهر أى شعب آخر فى التاريخ وقد توالى عليهم بلا انقطاع غزاة وحكام أجانب طغاة مستبدون مستغلون وتعاقب عليهم الفرس والرومان واليونان والعرب والاتراك والفرنسيون موكب حاشد . ولكن مهما تغير الحكم الا ان الشعب ظل على حاله ان لم يتضاعف بؤسه وشقاؤه وقد وصل القهر إلى ذروته فى هذا العصر على يد الباشوات الأتراك الذين فاق طغيانهم وبطشهم كل الذين سبقوهم .

وكان القنصل الجديد ينتمي إلى أسرة مالية هي «آل بارنج» وكانوا يمتلكون بنكا كبيرا ساهم في القروض الفاحشة التي نهبت مصر .

وابتسم له الحظ حينما عين أحد أقاربه نائب الملك في الهند واختاره سكرتيرا خاصا له واشتهر بالغطرسة والصلف وأصبح لقبه الذي يتندر به الموظفون «نائب نائب الملك» .

وفي الهند رسخ ايمانه بالامبراطورية ورسالتها وأصبحت عقيدة وكتب :

«كانت الامبراطورية الرومانية أعظم امبراطوريات التاريخ القديم ولكنها سخرت العالم كله لمصلحة روما وتختلف الامبراطورية البريطانية عن كل الامبراطوريات الأخرى قديما وحديثا ذلك أنها قامت لهدف واحد هو مصلحة الشعوب التي تحكمها! » .

ولم يكن القنصل غريبا عن مصر وقد شغل لاكثر من عامين منصب العضو البريطاني في صندوق الدين وكان أول من احتله وكان دوره فعالاً في تحقيق المهمة التي انشئ من اجلها الصندوق، وهي إحكام السيطرة على المالية المصرية واجهاض كل المشاريع الوطنية للاصلاح تمهيدا للسيطرة البريطانية .

كان على ايفلين بارنج أن يخترع كل الاساطير سياسيا واقتصاديا بل «وثقافيا» تمهيدا لإعلان الحماية على مصر وضمها إلى مستعمرات التاج .. أن تكون الجوهرة الثانية .. وكانت قدرة الاستعماريين البريطانيين على إعادة كتابة تاريخ الشعوب والإنسانية عامة تبريرا

لمطامعهم .. وكان تاريخ مصر من الفراعنة حتى الباشوات الاتراك نموذجا.

وكان اكتشاف الحضارة الفرعونية أحد أعظم الاكتشافات خلال القرن التاسع عشر ، وقد بدأها علماء الحملة الفرنسية وفى كتاب «وصف مصر» ثم بتشجيع محمد على لشامبليون حتى اكتشف طلاسم اللغة الهيروغليفية . وبإنشاء اسماعيل لمدرسة الآثار والمتحف المصرى وقد بهر العالم كله بالاكتشاف ، وما قدمته الحضارة المصرية للإنسانية فى العقائد والعلوم والفنون والآداب وما يضارع إن لم يفق ما قدمته الحضارات الإنسانية المماثلة .

ولم يتميز الملوك الفراعنة ويتخصصوا فى ممارسة الطغيان والاستعباد . ولعلهم كانوا أفضل بكثير من الأباطرة الرومان أو اليونان الذين كان يارنج يتغنى بانتمائه لحضارتيهما .

وحد الملك مينا «القطرين» وتكونت مصر وقاد أحمس أهم حرب تحرير وطنية فى التاريخ القديم ضد الهكسوس . وكان اخناتون أول من دعا إلى التوحيد وقام بثورة روحية كبرى وضعته فى مصاف الرسل والأنبياء .. وكان شعار امنحتب الثالث «لا جائع فى أيامى ولا ظمآن تحت حكمى» وقد ثار الشعب المصرى ثورات متعددة ضد الطغاة. وكتب الفلاح المصرى الفصيح أول منشورات ضد الحاكم ..

ولم يعرف أن احدا من الاباطرة أو الملوك الفراعنة كان يلقى برعاياه إلى السباع للتسلية ، ولم يحرق امبراطور فرعونى العاصمة ، بينما ظل

يغنى كما فعل نيرون ولم يعين أى فرعون حصانه نائبا للامبراطور كما فعل كاليجولا ..

وقد ظلت ديمقراطية اثينا مقصورة على النبلاء والسادة . ولم تنفذ قط إلى العبيد الذين ظلوا فى أدنى درجات العبودية حتى سقطت أثينا تحت بطش «اسبرطة» الفاشية ! .

ولم يفكر القنصل الذى كان يتباهى بثقافته اليونانية واللاتينية وانتمائه إلى الحضارتين ، ولم يفكر أن يلم بالحضارة الفرعونية .. بل ولم يفكر مرة فى زيارة المتحف المصرى وهو على بعد خطوات من مقر عمله .

وربما كان الباشوات الاتراك طغاة ورثوا الفراعنة ، ولكن كان التدخل البريطانى بالحديد والنار هو الذى أنقذ هؤلاء الباشوات من الثورة الوطنية الديمقراطية المصرية وقد استعادوا الثروة والسلطة وأصبحوا عماد كل حكومات الاحتلال ولم يعين وزير مصرى «فلاح» فى الحكومة إلا فى عام ١٩٠٦ بعد ربع قرن من الاحتلال؛ ولامتصاص أحداث دنشواى . !

ولم يكن يضارع تحيزه ضد الحضارة المصرية سوى تحيزه ضد الحضارة العربية الاسلامية .

وقد شهد القرن التاسع عشر ازدهار الاستشراق فى الغرب ، وإعادة اكتشافه للتراث العربى الإسلامى فى الدين والفلسفة والفكر

والعلم والأدب ، وكان هناك نوعان من المستشرقين : أدلاء المستعمرين وأدواتهم والذين يرشدونهم إلى الثغرات والثقوب . وعلماء أجلاء شرفاء أنصفوا العرب والمسلمين ، وكشفوا قدرة العرب على استيعاب كل تراث الإنسانية شرقا وغربا وتطويره وحفظه، وأن العرب في جامعات بغداد والأندلس هم الذين قدموا تراث اليونان للأوروبيين . وبهذا بدأ عصر النهضة الذى بدأت منه الحضارة الأوروبية الحديثة .

ولكن الإسلام كان بالنسبة له دين تعصب وسفك دماء ، وشهوات . وأنه سر تأخر المسلمين الأول والأخير . ولم يفكر طوال سنوات بقائه فى مصر أن يتعلم شيئا من العربية ، أو أن يطلع على دراسات المستشرقين البريطانيين «المنصفين» . وكان لا يعنيه من الاسلام سوى تطويعه لخدمة الامبراطورية ، ولم يعترف بعلماء المسلمين سوى السيد احمد خان فى الهند والشيخ محمد عبده في مصر لأنهما أفتيا أن البريطانيين أهل كتاب لابد وأن يتعايش معهم المسلمون ولا يعادونهم .

وقد نرف اللورد أكبر قدر من الدموع على الفلاح المصرى ، وعلى سبعين قرنا من الاستبداد والاستنزاف عاشها ، حتى قيضه الله لكى ينتشله وينقذه .

ولم يكن الفلاح المصرى منسيا أو مستبعدا ، بل على العكس ، كان محور الاصلاح .

قضى محمد على على الاقطاع المملوكي . وانتقل بالريف والفلاح إلى عصر رأسمالية الدولة العصرية واستحدث محاصيل جديدة وصناعات زراعية . وأصبحت بعضها عالمية وأولها القطن . وأعاد توزيع الأرض على طبقة لاشك كانت أرقى من المماليك وجباة ضرائب الالتزام.

وأصدر سعيد باشا . أهم قانونين فى تاريخ الريف والفلاح هما الاعتراف بحق الملكية كاملة للفلاح وقامت طبقة من الملاك الصغار والعمد والأعيان الوطنيين «الفلاحين» .

ثم قانون ترقية الضباط من تحت السلاح ، ونشأ الضباط الفلاحون وكان الأعيان والضباط الفلاحون عماد الثورة الوطنية الديموقراطية .

وكان اسماعيل هو الذى أعلن فى أول خطاب للمصريين أن السخرة هى أساس كل البلاء ، وأن القضاء عليها هو أول هدف ، وأن لا إصلاح قبل تحقيقه .

ولم يستعبد الفلاح ويستنزف دماءه أحد مثل المرابين والدائنين وحملة السندات الذى لم يتورعوا عن استبقاء ديونهم الفاحشة كاملة .

ولم يكن الفلاح المصرى ، كما قال المستر كيف أول خبير مالى استقدمه اسماعيل لاصلاح المالية ، أسوأ حالا من العامل البريطانى أو الفلاح الايرلندى .

ولم يقدم اللورد اصلاحا ، ولكن نوعا آخر من الاستنزاف ، فقد أعاد توزيع الأرض على طبقة من الموالين المصريين والأجانب وتحولت

مصر إلى إنتاج «المحصول الواحد» وهو القطن لتصدره إلى لانكشاير ولترتبط وتدور بلا فكاك فى عجلة الاقتصاد الامبراطورى .

ولم يرحب أحد بالقنصل الجديد سوى الخديوى الذى صرخ :

«لقد انقذ الانجليز حياتى وأعادونى الى عرشى وانتشلوا بلادى من الفوضى والدمار وهم يضيفون كل يوم انجازا جديدا ويبذلون أقصى الجهد فى تنظيم اداراتها والنهوض بها » .

كان موقف رئيس النظار محمد شريف باشا مختلفا .

وكان رئيس النظار قد انتهى الى ان بريطانيا قد وجدت فيه الرجل الذى يعتمد عليه ، وتوكل اليه كل المهمة «التاريخية» .

ولكن جاءت الرياح بما لم يشتهه وتفاقم الموقف فى السودان، وتقدمت الحكومة البريطانية بطلب ادهش المصريين جميعا وهو اخلاء السودان، وكان السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر وكان فى حاجة الى اعادة الأمن الى ربوعه وليس الى اخلائه ، وتعريض الاف من المدنيين والعسكريين المصريين الى الكوارث ..

وتقدم رئيس النظار بخطة بديلة ولكن لم تقبل بريطانيا بحثها وتشبثت بضرورة الجلاء وفى أسرع وقت ممكن.

ورفض رئيس النظار الطلب وأعلن ان السودان أمانة فى ايدينا وهو ألزم لمصر من الاسكندرية، وأننا حتى لو تركناه فإنه لن يتركنا، وسارت مثلا وشعارا.

وجاء الرد حاسما من لندن وفى برقية أصبحت اساس الحكم وقاعدته فى مصر واشتهرت باسم مرسلها وزير الخارجية جرانفيل قالت البرقية :

«لا أرى حاجة لأن أوضح انه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى تقديمها الى الخديوى فى كل المسائل الهامة التى تتعلق بأمن مصر وحمايتها من الخطر . وانه يجب على النظار والمديرين المصريين ان يكونوا على بينه من ان المسئولية الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى ان تصر على اتباع السياسة التى تقررها ويتحتم على أى وزير أو مدير لا يتصرف وفقا لها ان يتخلى عن منصبه وتثق حكومة جلالة الملكة ان هناك من الذين شغلوا منصب الوزارة من قبل او منصب اقل درجة من هم على استعداد تام ليكونوا البديل وينفذوا الاوامر التى يصدرها لهم الخديوى بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة».

وأضاف القنصل العام وهو يسلم البرقية بتقديم انذار شفهى مكلف به يقول :

اذا رفض المصريون تشكيل حكومة جديدة فإن لدى التفويض بأن أتولى ادارة البلاد بنفسى ومباشرة» . واستقال شريف باشا .

ولم يلبث ان تدفق سيل من المستشارين والموظفين والخبراء البريطانيين انتشروا فى النظارات والادارات والمديريات.. وأصبحت

مشورتهم هى النافذة ولا جدال او اعتراض عليها، وقامت القاعدة العريضة التى تعتمد عليها اوتوقراطية القنصل العام المطلقة .

وانتهت مقاليد النظارة الى رئيس وزراء ظل ثلاثة عشر عاما في المنصب يبدأ يومه ويختتمه بتلقي تعليمات فخامة اللورد صغيرة او كبيرة ويحرص على تنفيذها بكل تفاصيلها .

ورغم كل ذلك الولاء لم يتردد جناب القنصل فى احد تقاريره السنوية عن الاصلاح والتقدم أن ينكر أن أهم ما يفتقده النظار المصريون هو الاحترام ، ولا يكترث بهم المصريون ويصفونهم بالدمى والعرائس الخشبية .

وقد شهد القنصل الأمريكي فارمان كل الأحداث الجسام . وعاش أولى سنوات الاحتلال ، وسجل كل ما رأى وعرف فى كتاب شهير باسم «خيانة مصر» كيف خان المتآمرون مصر . وأطبقوا عليها قال:

أستتب الاحتلال العسكرى خلال الصيف والخريف وبدأ منذ البداية أنه احتلال دائم . فقد ساد الخضوع التام وأصبح بقاء الخديوى واستمراره على عرشه رهنا بتوقيعه على الأوراق التى تقدم له دون أى نقد أو أعتراض تماما كما ينفذ الجندى فى الجيش أوامر رؤسائه .

وتساءل كثيرون لماذا لا تخلع بريطانيا القناع الذى لا يخدع أحدا وتضم مصر وتحكمها كولاية بريطانية ، وكان هناك كثير من البريطانيين يرون محاكمة عرابى محاكمة عسكرية واعدامه وأعلان

الحماية على مصر وضمها على الفور، وقد تقدم ثلاثة آلاف أوروبى من المقيمين يطالبون بذلك . واتضح فيما بعد أن القنصل الجديد يارنج كان يؤيد ذلك الرأى . ولكن «نفاق» السياسة البريطانية اختار الطريق الملتوى .. ومن الأفضل أن ينفذ الأهداف البريطانية مصريون يتكلمون لغة البلاد ويدينون بدينها .. وأن تبدو بريطانيا مجرد منقذ» .

ويستطرد القنصل :

(كان أول مرسوم أصدره الخديوى يقضى بأن مصر مسئولة لدى الأوروبيين عن الخسائر التى أصابت ممتلكاتهم نتيجة لضرب الاسكندرية وما ترتب على ذلك من حرائق ونهب وسلب، ولم يكن فى وسعه سوى أن يرضخ وكانت الخسائر حدثا من أحداث الحرب، ولكن الأوروبيين تقدموا بشكاوى شديدة اللهجة وقد أصبح مبدأ دوليا لدى الدول الأوروبية المسيحية المتمدينة أن المهزوم لابد أن يدفع ثمن هزيمته وأن الطرف الأضعف ينبغى أن يدفع تكاليف فشله . وقد بلغ عدد طلبات التعويض أكثر من عشرة الاف طلب) .

وكان أول إجراء إصلاحى قام به هو عقد قرض من بنك روتشيلد قدره تسعة ملايين جنيه . وقد تمت الموافقة عليه فورا ولم نستقطع منه أى سمسرة أو عمولات ، (وبفائدة ٤٪ وهو المطلب الذى استمات الوطنيون فى المطالبة به ، وأنفق القرض فى ثلاثة أهداف كان لها الأولوية وهى تعويض الأوروبيين عن ممتلكاتهم التى دمرها الأسطول البريطانى ثم نفقات القوات التى احتلت البلاد وفق مبادىء الدول

المسيحية الأوروبية بالزام المهزوم والفاشل بدفع ثمن هزيمته وفشله ثم إعداد حملة عسكرية لإخماد الفتنة في السودان بقيادة جنرال انجليزى، وبقى بعض الفتات أتفق على ترميم بعض ما خربته العمليات) .

وكان الاجراء الآخر والحاسم هو الغاء المراقبة المالية الثنائية الانجلو فرنسية ونقل كل اختصاصاتها إلى مستشار مالى بريطانى هو السير اوكلاند كولفن العضو البريطانى ، وكان ذلك يعنى السيطرة التامة على المالية المصرية ويحقق الهدف الذى وضعته بريطانيا منذ البداية ، وكانت الضربة موجعة قاصمة بالنسبة لفرنسا التى نددت بالاجراء واعتبرته نقضا لكل الاتفاقات وكانت فرنسا قد باركت الاحتلال واقتنعت بأن فى احتلال مصر تأمن مستعمراتها فى شمال افريقيا.. ورغم كل الصخب الذى قامت به فرنسا لم تكترث بريطانيا ، وأصبحت بريطانيا المسئولة الوحيدة أمام الدائنين وحملة السندات والكوبونات الأوروبيين.

وبدأت إعادة صياغة الاقتصاد المصرى وإلحاقه بفلك الاقتصاد الامبراطورى، ومنذ أزمة القطن خلال الحرب الأهلية الأمريكية تطلعت مصانع النسيج فى لانكشاير إلى مزرعة القطن الفاخر فى مصر والتى استطاعت أن تسد الفراغ خلال الفترة العصيبة ، وقد حانت الفرصة بعد الاحتلال لتحويل مصر إلى مزرعة قطن فاخر ملحقة بمصانع لانكشاير أن تختص بمحصول واحد رئيسى يصدر بأكمله إلى بريطانيا.

ـ وأعيد توزيع الأرض ، سواء التى صودرت من أملاك الوطنيين أو أملاك الدائرة السنية «الخديوى» على طبق من الملاك المصريين والأجانب الموالين اشد الولاء وذلك للقيام بالمهمة ولم يشارك «الفلاحون» بأى نصيب فى القسمة .

ولم تلغ السخرة بل اخترع إجراء مبتكر وهو أن يدفع الفلاح أربعة قروش بدل سخرة اذا أراد الاعفاء ! .

وكان القنصل من أشد الساسة تنديدا بالامتيازات الأجنبية ، ولكن لم يتضمن «برنامج الانقاذ» أى مساس بها من قريب أو بعض ، وعلى العكس تماما اشتدت وطأة الأجانب فى ظل حماية جيش الإحتلال .

وتأمينا لجمع محصول القطن ولوصوله إلى ميناء التصدير ولاعداده .. وحلجه فتحت أبواب الريف لسيل من أجانب الدرجة الثالثة من اليونانيين والقبارصة والليفانتين وعاث هؤلاء فى الريف فسادا، كما اعترف القنصل نفسه فى بعض تقاريره ، وقد أقرضوا الفلاحين بأفحش الفوائد ، وتلاعبوا بأسعار المحاصيل ، وكانت بنوكهم الريفية تقرض بفوائد مائة فى المائة ، وكثيرا ما تنزع ملكية الأرض من الفلاحين ولم يقتصروا على الاستنزاف المالى ولكن كما قال مراسل التايمس البريطانى ماكنزى دالاس «انتشرت الحانات فى كل نواحى الريف» وأصبحت بقالة وبنك وحانة اليونانى من علامات الريف المميزة وحتى آخر حدود مصر .

وتأكيدا لمزرعة المحصول الواحد ، أبطلت زراعة الدخان وكان محصولا رئيسيا ، وقيل تبريرا لذلك ان جمارك الاستيراد سوف تفوق ايراد المحصول . وهو ما لم يكن حقيقيا . وكان الدخان والسجاير المصرية ذات شهرة عالمية .

وكتب جون نينيه :

«كانت مصر تزرع القطن والقمح والدخان وقصب السكر وبنجاح عظيم فى ظل النظام الوطنى وكل ما فعله القنصل العام أنه فرض زراعة القطن وقضى على المحاصيل الأخرى وأصبحت مصر تستورد غذاءها بعد أن أن كانت تصدر القمح» .

وكتب تيودور رونشتين : «كان إرغام مصر على زراعة محصول واحد رئيسى يشبه تماما تربية أوز ستراسبورج وتسمينه لمجرد صنع الفواجرا » .

وقد شن فخامته حربا شعواء على الصناعة وكانت مصر أول بلد فى الشرق استوعب الثورة الصناعية الأوروبية وسبق اليابان بنصف قرن . وجدد المحاولة فى عصر إسماعيل : وكانت الصناعة فى مقدمة البرنامج الوطنى ، ولكن وفق الاقتصاد الامبراطورى أن تظل الامبراطورية مزارع ومناجم وأسواقاً .

وبلغ تحريم الصناعة أن قام بعض البريطانيين بإنشاء مصنعين للنسيج فى مصر ولم يهدأ فخامته أو يقر عينا حتى أدى بهم إلى الإفلاس!! .

وبعد صياغة السلطة والاقتصاد كان لابد من صياغة العقل والوجدان وقد أكد تقرير دوفرين أهمية ذلك «أهمية قصوى» .

وكشف التقرير أن سر تخلف المصريين الأول والأخير هو القرآن ولغة القرآن .. وأن الاسلام دين عنف ودم ورق وحريم .. وأن لغة القرآن ميتة لا تسع علوم وحضارة العصر . وأن تحرر العقل والوجدان المصرى يبدأ باستعمال لغة الكلام الدارجة وهى اللهجة العامية ، ولم يكن دوفرين أو يارنج يعرفان حرفا من العربية أو العامية .. ولكن الهدف كان فرض اللغة الانجليزية ..

وقد تم اختيار الرجل المناسب للسير نحو هذا الهدف ، واشتهر بين المستشارين وبين المصريين عامة وهو المستر دنلوب – مستشار نظارة المعارف .

وفى ظل الحكم الوطنى كانت هناك مدرسة ابتدائية في كل مركز ومدرسة ثانوية فى عاصمة كل مديرية وكانت هناك ست مدارس عليا وأربع مدارس حربية .

وكانت الكتاتيب تنتشر فى كل قرية وكان التعليم مجانيا فى معظمه وكان فاتحة «الإصلاح» أن أغلقت معظم المدارس الابتدائية والثانوية وثلاث مدارس حربية وأربع مدارس عليا ، وألغيت مجانية التعليم ووصل عدد طلبة المدارس العليا الطب والهندسة والحربية إلى عدد لا يتجاوز أصابع اليد.. وأختصرت المواد التى تدرس بالعربية وتصاعدت المواد التى تدرس بالانجليزية ، واخترع المستشار بدعة لم تسبق وهى اختيار مدرسين انجليز يتعلمون العربية لكى يعلموها للتلاميذ .

وكتب أستاذ الحقوق الفرنسي لامبير (ليس هناك حدود لما وصلت إليه المدرسة المصرية التي كانت نموذجا فريدا ، ولم تعد سوى أداة طيعة ذليلة لتوريد خدم للاحتلال، وتجتهد الإدارة البريطانية وتستميت في فرض لغتها وطريقة حياتها على المدرسة المصرية ومستشار التعليم البريطاني متعصب جاهل لايعرف كلمة واحدة من العربية وكذلك القنصل ولكن كلاهما لا يملان تسفيه هذه اللغة) .

(ويعامل المصريون في مدارسهم معاملة المنبوذ وعليهم أن يتعلموا لكي يتولوا المناصب الصغيرة ولكي ينفذوا أوامر رؤسائهم الاجانب الذين يحتكرون المناصب الكبرى) .

وإحكاما لصياغة العقل والوجدان المصري ، تمت تصفية الصحافة الوطنية التي ازدهرت منذ عصر إسماعيل وبلغت ذروتها خلال الثورة .

وبعد مصادرة واغلاق الصحف الوطنية ونفي وتشريد أصحابها وكتابها، أصدرت الإدارة البريطانية جريدتها الرسمية باسم «المقطم» واستحضرت طاقما من لبنان من أخلص الموالين لها . (يعقوب صروف وفارس نمر وإميل مكاريوس) وفاقوا كل المعايير والموازين في تمجيد الاحتلال وتحقير كل من يعارضه .

ولتعميق الولاء والإيمان أصدروا مجلة فكرية علمية تنويرية باسم المقتطف لكي تزيح غشاوة التعصب ضد الحضارة الغربية المسيحية .

وكان يارنج لا يمل صب اللعنات على إسماعيل وعصره ويؤكد فى كل مناسبة أنه لو كان قد استمر بضع سنوات أخرى لعم الخراب والدمار وأصبح إنقاذ مصر مستحيلا .

وكتب أحد نجوم المستشارين المستر ستيبوارت:

نحن نحتاج إلى جيلين آخرين لكى نستطيع تحقيق الاصلاح وتوطيد أركانه وضمان أن لا تحدث فتنة أو فوضى أخرى، ولو فرض وغادرنا الآن فليس هناك أدنى شك أنه سوف ينتكس كل شىء وترتد الأمور إلى أسوأ مما كانت عليه .

وكتب جناب القنصل فى السنة الخامسة من ولايته :

بدأ المصريون يقدرون المزايا العديدة التى تحققت لهم بفضل الاحتلال والتى لم يكونوا يحلمون بها .. هذا علما بأن الجحود ونكران الجميل إحدى صفات المصريين الأساسية !! .

ورد تيودور روتشتين هازئا بفخامته :

«لو حصل إسماعيل على نصف أو ربع المزايا والتسهيلات التى يحظى بها يارنج لحققوا أضعاف أضعاف ما يتباهى به وإن كل ما يقوم به من إصلاحات مزعومة تتنافى تماما مع بديهيات الحضارة والمدنية التى يتشدق بها» .

الفصل التاسع

نهاية النفق

تصدر اسم السير ايفلين بارنج قائمة الانعامات السنوية لعام ١٨٩٢، ومنحته جلالة الملكة الإمبراطورة أرفع الأوسمة والألقاب وأصبح لقبه منذ ذلك اليوم اللورد كرومر، وهو الاسم الذى اشتهر به فى التاريخ.

واحتفلت الصحف البريطانية بحصوله على اللقب، كما لم تحتفل بأحد آخر فى قائمة الانعامات، وزخرت أعمدتها بملاحم التبجيل والتمجيد للرجل الذى استطاع أن يحقق كل ما وعد به لدى توليه المنصب، والذى بعث مصر من العدم وأحياها بعد موت طويل، وأكد الثقة فى العبقرية البريطانية وفى رسالتها التاريخية.

وذهبت بعض الصحف إلى آخر المدى وقالت أن وجود مصر الحقيقى وتاريخها الحديث إنما يبدأ منذ تولى فخامة اللورد شئونها وانتقل بها من الظلمات الحالكة إلى النور . وأطلقت عليه صحف أخرى مؤسس مصر الحديثة والذى حمل إليها كل فضائل الحضارة الأوروبية المسيحية .. سيدة الحضارات ! .

وهنأ الخديوى فخامة اللورد، وصرح لمراسل التايمز «لقد أوفت بريطانيا بكل وعودها وأدت واجبها وكل التزاماتها وذلك فى مدة قياسية

وقد أتمت تصفية كل آثار الفتنة العسكرية ووطدت دعائم الشرعية وساد الأمن والاستقرار . ومنذ عام ١٨٨٨ بدأ التحول والإنطلاق لبناء مصر حديثة ومن انقاض العدم والخراب».

ولكن لم يقدر لفخامة اللورد أن يهنأ طويلا بذلك المجد.. وانقضى شهر العسل الطويل والذى امتد عشر سنوات . كان فخامة اللورد خلالها «نائب الملك» فعلا وان لم يكن قانونا! .

وذات صباح أعلنت وفاة الخديوى توفيق فجأة.. وكان قد اعتكف منذ أسبوع لنزلة برد ثم تضاعفت إلى نزلة شعبية ولكن أصيب باحتباس فى البول أدى إلى الوفاة بالتسمم ! .

وسارع فخامة اللورد إلى القصر.. خصوصا وقد انبثقت «فجأة» اشاعات عمت المدينة بأنه مات مسموما .

وكان معروفا عنه أن لا شىء يشغله فى حياته أكثر من صحته.

وتناقلت البلاد الاشاعة ولكن لم يبال أحد بنهاية حكمه.. ولم يذرف أحد من أسرته أو من شعبه دمعة حزن عليه.

كان أبوه الخديوى إسماعيل على قيد الحياة فى اسطنبول وتلقى النبأ باردا صامتا، وكان شديد الازدراء والاحتقار له، قال ذات يوم «لبرودلى» إنه أمير يحمل نفسية العبد، ويفتقر إلى العقل والقلب والشجاعة وقد كان يتآمر مع القناصل ضدى.. رغم أننى امتهنت نفسى وركعت تحت أقدام السلطان وملأت جيوبه بالذهب ، لكى أغير قانون الوراثة وحتى يصبح خديوى بعدى»! .

ولم تكن الصحف البريطانية تختلف كثيرا عن رأى ابيه.

كتبت إحداها «فارايتى» تقول «كان كائنا أليفا لطيفا محدود المواهب دائم الشك فى كل شىء وكل أحد ويفتقد الثقة فى نفسه ، وكل ما كان يعرفه وما يقتنع به عن يقين أنه لا بقاء له على العرش الذى يجلس عليه إلا فى حماية بريطانيا . ولم تجد بريطانيا ووزارة الخارجية البريطانية بحماقتها المشهورة وعجزها وجهلها أفضل منه لكى يغرق بلاده فى محيط من الفوضى لن تستطيع الخروج منه، وليس له بعد بريطانيا من نصير سوى أمه وكانت محظية من محظيات الخديوى إسماعيل . ولم يعترف بها زوجة شرعية الا قرب الاحتفال بافتتاح قنال السويس وقد بدأت منذ ذلك الحين تبسط سلطتها بالتآمر داخل القصر».

«وورث الخديوى أخلاق أمه وأساليبها وكانت الوحيدة التى يمتثل لنصحها وهى التى أوحت إليه أن يمنع كل أخوته غير الأشقاء حسين وحسن وإبراهيم من العودة إلى مصر».

وكتبت صحيفة أخرى «الكرونيكل» «لم يكن أكثر من دمية مطيعة فى يد بريطانيا، وقد ظل طوال حكمه يتخبط ويتعثر ولم يكن يقرب إليه أى أحد ذو كفاءة أو خلق ، ولم يكن هناك حتى بين الذين كان يختارهم من يحمل له أى تقدير واحترام، وقد استمر بوسيلة وحيدة فقط هى قدرته الخارقة على الدس والتآمر، وعلى تملق المبعوث العثمانى أو القنصل البريطانى أو القنصل الفرنسى، وكان محمود سامى البارودى أشد

الناس ازدراء واحتقارا له، وكان يلح دائما على ضرورة خلعه والتخلص منه.. ولا أظن أن أحدا سوف يذرف عليه دمعة الآن.

وكتبت المانشستر جارديان «يكفي أن يطوف الزائر بمصر أسبوعا واحدا متجولا في أرجائها لكي يدرك أن أبغض شخصية إلى الأهالي وأحقرها هو الخديوي . وهناك اجماع على ذلك من كل الفئات والطبقات وأقرب شخصية إليه هي مشعوذة يبدأ يومه بالاستماع إلى تنبؤاتها وذلك قبل أن يتلقى تقارير جيش الجواسيس الذي يستقبلهم كل صباح وليس للخديوي من يعتمد عليه في مصر سوى بريطانيا. ثم حاميه وراعيه الأول في اسطنبول اللورد دوفرين ولم يمدح الخديوي سوى ذلك اللورد مهندس الاحتلال الأول».

ولم يطنب اللورد كرومر في رثائه، واختصر في بيان فضائله ومزاياه على أنه «كان إنسانا طيبا ومخلصا، ومؤمنا بالتعاون الكامل معي ولم يحدث خلال عشر سنوات تعاملت خلالها معه أن أثار أي مشكلة أو اعتراض».

وكان المستر بيمان من كبار موظفي الوكالة البريطانية ثم تمرد على السياسة البريطانية في مصر وقال في رثائه:

«لا يكره المصريون أحدا ويمقتونه ويحقدون عليه مثل توفيق بل انهم أكثر كراهية له من كراهيتهم لنا لأنه هو الذي جاء بالاحتلال وخان شعبه وبلاده».

وكتب المستر ماك كون في كتابه عن مصر «لم يكن عرابى يحمل له أى ضغينة بل على العكس كان يود لو تحالف معه لتنفيذ البرنامج الوطنى ولكن الخديوى غدر به وخانه متعمدا وفضل أن تحتل بريطانيا مصر ولهذا لن يسامحه المصريون وسيظل ملعونا فى تاريخهم إلى الأبد.

وقال ناظر الدائرة السنية عبد الخالق باشا فريد وكان قريبا منه :

«أمضى السنوات الأخيرة من عمره وحيدا مهموما مكتئبا».

وانطوت بموت الخديوى توفيق أشد الصفحات سوادا فى تاريخ مصر ، وبدأت البلاد تستعد لاستقبال الخديوى الجديد وتدعو الله أن يكون مختلفا وأن يحمل أملا.

***

وكان ولى العهد يدرس فى فيينا فى مدرسة أبناء الأمراء هناك، وكانت النمسا يومئذ إحدى الامبراطوريات الأوروبية الخمس العظمى وكانت عاصمتها احدى عواصم العلم والفن والثقافة الأوروبية. وقد استرعى الأمير المصرى الصغير انتباه واعجاب الامبراطور هناك وأولاه رعاية وعناية خاصة .

ولم يكن الأمير قد تجاوز السابعة عشر من عمره حينما استدعى لتولى العرش، ولكن لم يلبث الفقهاء أن وجدوا حلا ، وذلك بحساب عمره بالتقويم الهجرى وليس الميلادى، وبارك اللورد هذا الحل. وكان متفائلا

بالأمير الجديد الصغير السن المحدود الثقافة والذى سوف يصوغه كما يشاء ويقود خطواته فى الاتجاه الصحيح، وسوف يجعل منه «مهراجا» أو «نواب» مثل الخمسمائة الذين تحكم بريطانيا الهند الشاسعة الواسعة بواسطتهم والذين يفيضون ولاء واخلاصا للامبراطورية.

لا ريب أن الأمير المصرى الصغير يدرك بالبديهة أنه لولا تدخل بريطانيا لما بقى أبوه يوما واحدا على العرش ولما انتقل إليه بعده، ولا ريب أنه يدرك مدى الاصلاح الذى تحقق على يد فخامة اللورد ولابد أنه سوف يواصل استكماله وسوف يطلق يد اللورد فى اتمام «رسالته».

وتفاءلت لندن عامة بالخديوى الجديد وأعلنت الامبراطورة فى خطاب العرش فى ذلك العام :

«فقدت بريطانيا بوفاة الخديوى توفيق حليفا صادقا أمينا استطاع بحكمته السياسية أن يعيد النظام والاستقرار فى بلده وأن يحقق الرخاء لشعبه، وتثق الحكومة أن الخديوى عباس سوف يواصل السير على الطريق نفسه.

ووجهت جريدة التايمس النصيحة لكل الأطراف وكتبت :

«إن انتقال العرش يؤكد ضرورة استمرار الوجود البريطانى وأن يظل اللورد كرومر فى منصبه وذلك لخبرته العميقة بشئون مصر وأن يظل المستشارون البريطانيون فى مناصبهم وسلطانهم وأن يسترشد بهم الخديوى ويأخذ بنصائحهم.

وأضافت الجريدة :

«حبذا لو عين مستشار بريطانى خاص فى القصر ليقف إلى جانب الخديوى الصغير ويرشده .

وسخرت صحيفة فرنسية من نصائح التايمس ، وكتبت «لابيتى كابورال» «تنوى الحكومة البريطانية فيما يبدو أن تجعل من الخديوى الجديد مهراجا من مهراجات الهند، وتعين له مستشاراً خاصاً بريطانياً يلتزم بنصائحه ولا يخرج عنها وإلا فقد عرشه وهكذا يرسخ الاحتلال لأجل غير مسمى».

***

ووصل الخديوى الجديد إلى الاسكندرية بعد أسبوع على ظهر طرادة نمساوية وبصحبته بعثة شرف وذهل الجميع حين خرجت الاسكندرية ربما بأكملها لكى تستقبله وبحماس لم يسبق أن استقبل به أحد من الولاة والخديويين.

وفى الطريق إلى القاهرة احتشد الأهالى فى كل المحطات التى وقف بها القطار يهتفون ويهللون للخديوى الصغير الوسيم.

وفى القاهرة زحف محيط متلاطم من البشر للاستقبال والترحيب .

وبدا أن الشعب بالهامه وفطرته توسم الخير فى الخديوى الشاب وأنه كما قال البعض تنفس الصعداء بعد ما انزاحت عنهم وطأة عشر سنوات من الاحتلال، واستراحوا من حاكم كريه ملعون ارتكب كل الخطايا والكبائر وانتهى إلى الخيانة وبيع البلاد للمحتلين .

وأعلن الخديوى الجديد لرجال حاشيته أنه لم يعرف بلده أو شعبه ، وقد قضى طفولته فى القصر ولما شب عن الطوق سافر ليدرس فى الخارج، وإنه لهذا يريد أن يتعرف على الشعب بكل طبقاته وفئاته وبلا استثناء، وأن يعرف بلاده ويطوف بمدنها وقراها، ويتعرف على مشاكلها مباشرة.

وأعلن أنه سوف يفتح أبواب القصر لكل المواطنين من أصغرهم إلى أكبرهم، وسوف يلتقى بهم ويدعوهم إلى مائدته ويسمع منهم مباشرة.

وكان القرار الآخر الذى عبر به عن نواياه واتجاهاته هو تغيير رجال الحاشية، وكان قد انتهى إلى ذلك خلال إجازة أمضاها فى مصر وشهد حفلة راقصة كبرى أقيمت فى القصر، ورأى رجال الحاشية كيف يتصرفون نحو الأجانب وخاصة البريطانيين ، وقال يومها لرئيس الديوان «أحمد شفيق» «إن أبى قد ذهب بعيدا فى الاستسلام، وإن هؤلاء الذين يلتفون حوله وصمة فى حياة مصر».

وبدأ فجأة اللورد يحس بالقلق، وكان «المفصولون» هم عيونه وآذانه فى القصر ومن أشد الناس ولاء واستخذاء أمام الاحتلال.

وكان القرار الآخر قاصما إذ قرر الخديوى الشاب العفو عن عدد غير قليل من الذين أدينوا فى أحداث الثورة العرابية.

«بلغت مسامع الخديوى تظلمات بعض المحكوم عليهم فى الثورة العرابية وشكوى ذويهم من سوء حالهم وتداول سموه ورجال .... واستقر البحث على أن يعفو عنهم، وأن ذلك سوف يكون حسن الوقع

والأثر لدى الشعب خصوصا وأن ما ارتكبوه كان فى عهد مضى ولا صلة له بهذا العهد ، وتقرر العفو العام عن جميع الذين اشتركوا فى الحوادث العرابية ولم يفرج عنهم حتى اليوم سواء كانوا ملكيين أو عسكريين ، وأن يرد اليهم كل ما جردوا منه من ألقاب وشارات الشرف والامتيازات والرتب على أن لا يدخل فى هذا العفو المحكوم عليهم بالنفى المؤبد «عرابى والباشوات» ، وعلى أن الأشخاص الذين يعفى عنهم يجوز اعادتهم إلى خدمة الحكومة على أن لا تحسب لهم مدة خدماتهم السابقة فى تسوية معاشهم».

«وقوبل القرار بمظاهر الفرح والسرور من أسر المحكومين وبالاعجاب والثناء من كل الطبقات، وكان له أجمل الأثر واظهار الخديوى بمظهر الكرم والسماح ».

وعلت مراجل الغضب فى نفس اللورد وكان إذا غضب اهتزت له الأرض وارعدت السماء.

وكان القرار التالى والذى فجر حمم الغضب هو العفو عن عبدالله النديم.

وكان أحمد شفيق باشا رئيس الديوان وأخلص خلصاء الخديوى الجديد معجبا بعبد الله النديم لسبب رسخ فى نفسه.

«تعرفت عليه فى أوائل ١٨٨٠ حينما كنت بمعية الخديوى توفيق وعلمت أنه أنشا مدرسة بشارع رأس التين لتعليم اللغة العربية بأسلوب عصرى جديد ، زرت المدرسة وحضرت بعض الدروس وسررت بطريقته

الجديدة الجذابة السهلة المأخذ على الأطفال وتعلمهم القواعد في شكل محاورات لنيذة وشكرته على عنايته وأثنيت على مجهوده وأسلوبه».

واستقبل القرار استقبالا حافلا خاصة في الاسكندرية التي توالت فيها دعوات وحفلات التكريم، ومظاهرات التهنئة والتأييد، وتعاظم الحماس حينما أعلن النديم عن عزمه على اصدار جريدة «الأستاذ».

وذهبت أحلام اللورد أدراج الرياح وتبددت كل أوهامه ، ولعله لم يكن مبالغا حينما كتب إلى لندن يقول «لقد عاد شبح عرابي ليطل من جديد وفي هذه المرة سوف يكون زعيم العصاة هو الخديوى نفسه!! .

استغرق الخديوى الشاب عامه الأول في التعرف إلى شعبه وإلى وطنه، واستطاع بذلك أن يعد مسرح المعركة. التي قرر أن يشنها مستنداً إلى ما اكتسبه من ثقة وما وجده من مقومات.

ووفقا للمناورة السياسية انطلقت اشاعة تداولتها كل الأوساط وكل الفئات والطبقات العليا والدنيا، وتقول بأن هناك حدثاً جسيماً على وشك الوقوع، وأن مصطفى باشا فهمى رئيس النظار سوف يقصى عن الحكم ويستبدل برئيس نظار غير متفانٍ في الولاء وفي خدمة الاحتلال مثله.. وأنه إذا لم يقدم استقالته سوف يطرد من الحكم بما للخديوى من شرعية.

وأوفد اللورد المستشار المالى «بالمر» إلى القصر ليستفسر عن صحة الاشاعة ، ولكن نفى الجميع علمهم بشيء من ذلك ورجع المستشار مطمئنا.

وكان مصطفى باشا أحد الذين عبروا إلى الجانب الآخر مع السيل الذى فعل ذلك بعد هزيمة الثورة العرابية ولكنه فاقهم جميعا فى التفانى والولاء ، وقرر أن يغير طريقة حياته الشخصية والعائلية ، وكانت خليطا من طريقة الحياة العثمانية والفرنسية اقتبسته الطبقات العليا المصرية قرر أن يعيش ويأكل ويشرب ويلبس على الطريقة الإنجليزية، أن يتحول إلى الكائنات المسخ التى كان البريطانيون أنفسهم يسخرون منهم فى الهند والذين يتقمصون طريقة الحياة البريطانية .

وقد كان اكتشافا عثر عليه كرومر، ووجد فيه ضالته التى ينشدها وهو الرجل الموافق النموذجى وقرر أن يكون رئيس وزراء مصر الدائم. على الاقل طالما ظل فخامته فى مصر لم يكن يفصل فى أى أمر أو يوافق على صغيرة أو كبيرة قبل أن يصدق عليها فخامة اللورد..!! .

وفى الأسبوع الاول من ١٨٩٣ اعلنت ساعة الصفر وبعث الخديوى برئيس ديوانه الى عطوفتلو رئيس مجلس النظار يطلب اليه ان يستقيل مراعاة لصحته التى لم تعد تحمل اعباء المنصب، وكان رئيس النظار قد مرض قبل ذلك ، وكاد الأطباء ان يفقدوا الأمل فى شفائه ولكن حدث العكس وقبل ان يتم نقاهته سارع الى استئناف مهامه ، ولم يجد الخديوى الذى كان ينظر أن يحسم القدر المسألة الا أن يطلب اليه ان يذهب.

ولأول وهلة. لم يصدق عطوفتلو الطلب، ثم استأذن «ان يمهله الى الغد حتى يبعث باجابته، وبمجرد انصراف المبعوث اتصل بالمستشار

المالى البريطانى وابلغه بما حدث ولم يتوان هذا فى ان ينصحه بأن يرفض الامر جملة وتفصيلا.

وحينما عاد مبعوث الخديوى فى اليوم التالى لتسلم الاجابة فوجىء برئيس النظار يعتذر بصلف عن قبول طلب الخديوى ، وبأنه قرر الاستمرار فى الحكم، ثم طلب من المبعوث باستعلاء ان ينصح الخديوى بأن لا يتخذ مثل هذا القرار بدون استشارة فخامة اللورد.

وهال الخديوى ان يصله هذا الرد، واعد على الفور مرسوما باقالة مصطفى باشا فهمى من رئاسة النظار ، وتعيين حسن باشا فخرى وزير الاوقاف بدلا منه، وكان معروفا بنزاهته واستقامته.. وليس بالولاء والهوان مثل رئيسه .

وقامت الدنيا ولم تقعد، وحينما ذهب رسول من القصر الى دار الوكالة البريطانية ليحيط جناب اللورد علما بما حدث لمجرد العلم رفض تسلم الرسالة واعلن انه ذاهب بنفسه الى القصر ليتلقاها مباشرة من الخديوى .

قال لمساعديه ثائرا مزمجرا لقد حانت اللحظة لتلقين هذا الغلام الاحمق درس حياته..

ولم يحفل اللورد بأى قواعد او مراسم واخرج من جيبه خطابا قرأه على الخديوى جاء فيه:

«إن اختيار رئيس الحكومة المصرية هو حق معترف به للحكومة البريطانية ولايمكن ان يتغير رئيس الحكومة بغير استشارتها وموافقتها

وهذه هى القاعدة التى تحكم علاقة البلدين منذ برقية جرانفيل الى شريف باشا قبل عشر سنوات. واى خروج على هذه القاعدة لابد وان تكون عواقبه وخيمة ».

ولابد وأن الذهول قد اعتراه حينما رأى الغلام لم يهتز أو يرتعب، ورد بهدوء ورباطة جأش لقد تسلمت العرش من جلالة السلطان العثماني وبمقتضى الفرمانات العثمانية، ولم يكن بها اى نص يقيد حقى فى اختيار رئيس النظار او النظار ويلزمنى باستشارة الحكومة البريطانية.

وفقد اللورد الذى اشتهر بأعصابه الحديدية، توازنه وصاح فيه :

«إن هذا تحد لا تقوى عليه ولا تقدر عواقبه وانت بذلك تخاطر بالعرش الذى تجلس عليه».

وبنفس الهدوء والثبات رد الغلام «إننى أفضل أن أفقد هذا العرش على ان يعود رئيس النظار المقال الى منصبه» .

ولم يجد فخامته ما يرد به وخرج «ليتطاير الشر من عينه» بعد تلك المقابلة العاصفة.

وبعث على الفور برسالة عاجلة الى لندن يطلب الى وزير خارجيته رسالة ثانية اقوى لهجة وتحذيرا على غرار الرسالة التى ارسلت ذات يوم الى شريف باشا. أى أن تؤكد «حق بريطانيا الصريح فى أن تكون نصائحها ملزمة واجبة التنفيذ بشأن تعيين او تغيير رئيس الوزراء وان تبطل كل ما قام به الخديوى، وتنذره بأشد العواقب على ما فعله واذا ما

نجح الخديوى هذه المرة فسوف يغدو مستحيلا بالنسبة لى مواصلة سياسة الاصلاح الناجحة التى مارستها طوال العشر سنوات السابقة».

ووصلت الرسالة وقرأها اللورد بنفسه على الخديوى ونصحه ان يتراجع قبل ان يفقد العرش والقصر .

وتلقى نفس الرد.. لقد تسلمت العرش من السلطان وليس من بريطانيا.. وانه يفضل ان يفقده على ان يتراجع ويفقد المكانة والتأييد الذى لقيه من شعبه.

ومرت أيام عصيبة وتدخل الوسطاء بوحى من دار الوكالة وكان على رأسهم رياض باشا. وبطرس باشا غالى. واللذان استماتا فى النصح ولما عجزا عن اقناع الخديوى اقترحا الحل الوسط وان يتنازل الطرفان فلا يعود مصطفى فهمى الى الوزارة ولا يتولاها حسين فخرى، ويجرى البحث عن الرجل «الثالث» وانتهى الاختيار الى اول الوسطاء رياض باشا وقبله الطرفان، وانقشعت الازمة العصيبة، ولكن بدت الأيام الثلاثة التى استغرقتها حدا فاصلا بين عهدين، وان نظارة حسين فخرى باشا وهى اقصر نظارة فى تاريخ مصر الحديث كانت نقطة تحول من مصر المحتلة الى مصر المقاومة.

وتشبث كرومر بأن يصدر مع مرسوم تأليف النظارة الجديدة بلاغاً يؤكد الرغبة فى اقامة افضل العلاقات الودية مع بريطانيا واجيب الى طلبه تضميدا للجرح البليغ الذى اصابه.. ومهما كانت السمة الا انها

كانت نصرا مبينا للخديوى الصغير الذى تحدى وصمد. وابطل إرادة القنصل الذى لا يقهر.. وكما قالت صحيفة فرنسية «تيي كابورال» «خرج التنين الاسود مجروحا جرحا لن يندمل» .

ومنذ صباح اليوم التالى تقاطرت المواكب والحشود على ميدان عابدين والذى لم يشهد أى مظاهرة وطنية منذ ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١، والتى أصر الاحتلال على محوها من ذاكرة المصريين بأن جعل الاحتفال السنوى الوحيد الذى يشهده الميدان هو الاحتفال بميلاد صاحبة الجلالة الملكة والامبراطورة فيكتوريا والذى يشهده الخديوى والى جواره القنصل العام ويستعرضان معا قوات الاحتلال.

استرد الميدان هيبته وحزمته وتوافدت على القصر وفود الامراء والعلماء والأشراف والتجار واعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والذين كانوا يختارون بعناية من اخلص الموالين ، وكان الخديوى يستقبلهم ويخطب فيهم وفدا وفدا وموضحا انه عازم على عدم التنازل عن اى حق من حقوقه وحقوق البلاد، وكان بعض الحاضرين يجاوبه «يا افند ربنا يكتب خلاص البلاد على ايديك».

وبعد يومين تحولت الوفود والحشود الى طوفان بلا حدود ذهب الخديوى لاداء صلاة الجمعة فى مسجد الحسين ومنذ الصباح احتشدت ألوف الالوف على جانبى الطريق وفى الميدان وتعالت الهتافات تشق عنان السماء.

وكان بين الجموع وكيل نيابة شاب يدعى محمد فريد كان ابوه ناظر الدائرة السنية أحمد باشا فريد وكتب في مذكراته:

كان بانتظار الخديوى داخل المسجد وخارجه وعلى طول الطريق الوف الالوف من الناس، وتظاهروا عند مرور الموكب تظاهرة لم يسبق لها مثيل في مصر واشترك الاجانب ما عدا الانجليز مع المواطنين في هذا الاحتفال، وأراد بعض الشبان فك خيول عربة الخديوى وجرها بانفسهم تعظيما لمقامة السامي ولكنه ابى ذلك.

واستمرت التظاهرات وفي اليوم التالي «السبت».

ذهب الخديوى لحضور اوبرا عايدة في دار الأوبرا وقامت مظاهرة رائعة اشترك فيها الوطنيون والاجانب اذ وقف الجميع عند دخول الخديوى وهتفوا له هتافات عالية ودوى المكان بالتصفيق المتواصل واجابتهم الموسيقى بالسلام الخديوى مثنى وثلاث ورباع ومهما عزفت زاد الهتاف والتصفيق طالبين اعادة السلام الخديوى حتى اشار عليهم سموه بالجلوس.

وفي اليوم الثالث «الاحد» نظم طلاب المدارس الثانوية والمدارس العليا مظاهرة كبرى قادها طالب الحقوق «مصطفى كامل» احتشدت في الميدان حيث القى خطابا ناريا انهال فيه بالتنديد على الحكومة المتخاذلة التى اقيلت، ودعا الشعب الى الاتحاد يدا واحدة استعدادا للكفاح ضد الاحتلال وحتى يتم الجلاء التام وتعاقب الخطباء من الشباب يرددون نفس الدعوة ، ثم اتجهت المظاهرة الحاشدة الى دار جريدة المقطم

لسان حال الاحتلال والتى وقعت مع كرومر وضد الخديوى طوال الازمة وتعالت الهتافات ضد أصحابها والقائمين بأمرها .

واتجهت بعدئذ نحو صحيفة البوسفور الفرنسية حيث انتدب الطلبة وفدا منهم برئاسة مصطفى كامل لشكر الجريدة على موقفها من الأزمة ومؤازرة المصريين».

وكانت الاحداث غريبة وشديدة الوقع والوطأة على اللورد ، ولم يدر كيف يفسرها بعد ما اقنعهم لحقبة طويلة انه يحكم ويتحكم فى كل صغيرة او كبيرة تحدث وكتب رسالة «أليمة» الى لندن قال فيها «طرأت أحداث كثيرة خلال حكم الخديوى توفيق أثارت بعض القلق والترقب ولكنها كانت دائما احداثا عابرة لا تلبث ان تزول وتمحى اثارها. ولكن ما حدث هذه الايام كان مختلفا وليس اقل من انتفاضة شعبية تجاوزت ابعد الحدود ، وكانت اقرب ما تكون الى ايام الثورة العرابية مع الاختلاف الجسيم فى ان الخديوى هو القائد الذى تلتف حوله الجموع.

وخفف اللورد بعض الشيء من خطورتها بأن فسره الجموع بانها عناصر الشباب المتعصب الذى يرفض مظاهر الحياة العصرية والاوروبية والباشوات القدامى الذين فقدوا سلطاتهم المجحفة وامتيازاتهم غير المشروعة فى ظل الادارة البريطانية النزيهة ، ثم رجال الدين المتعصبون الذين يحقدون على الاجانب ويضمرون لهم الشر، ثم الانتهازيون الذين لا ييأسون من التطلع الى مناصب اعلى يصلون اليها بأسهل طريق ثم

بعض العناصر الفاسدة من الموظفين الذين تقف الادارة البريطانية حائلا بينهم وبين الثراء الواسع غير المشروع ثم بعض الشباب المغرور الذين يعتقد أنه أفضل واكثر كفاءة وخبرة من رؤسائه الانجليز».

واختتم فخامته الرسالة:

«هذا الخليط المتنافر هو الذى يلتف حول الخديوى لكى يستعيدوا معه حكم الرشوة والكرباج مرة أخرى».

كان انفصاما عن الواقع المصرى «الجديد» ومن الرجل الذى اقتنع واقنع سادته في لندن بأنه يعرف مصر كما لا يعرفها احد سواه ، وانه لن يغادرها الا وهى «جوهرة» ثانية ترصع تاج الملكة والامبراطورة.

والحق فخامته بالمذكرة طلبا هو فرقة اضافية من القوات البريطانية يستعرضها مع موسيقاها قبل ان تخترق شوارع القاهرة.

ووقف رئيس الوزراء «جلادستون» يعلن ان القوة ليست اضافية ولكنها تستبدل بقوات انتهت مدة خدمتها وهى مجرد اجراء وقائى ضد اى احداث يمكن ان تهدد المصالح الاوربية.

وسخرت الصحف الفرنسية كالعادة من البريطانيين.

«تداعي الصلف والغرور البريطاني ووقفت حكومة صاحبة الجلالة عاجزة لا تستطيع شيئا ازاء شجاعة ووطنية الخديوى الشاب والذى التفت حوله رعاياه ضد القبضة المعتلة الوطأة التى تفرضها عليهم بريطانيا .

وطلب الخديوى إلى الحاشية إعداد تقييم «موضوعى» حول ما حدث والدروس المستخلصة ثم الخطوات القادمة . وكان ذلك نموذجا مستحدثا فى العمل والتخطيط السياسى ، لم تعرفه أروقة القصر منذ انتقلت كل السلطات إلى القصر الآخر «قصر الدوبارة» كما سميت دار الوكالة البريطانية .

وكان أهم ما سببه التقرير :

١ - ادرك الانجليز ان الذى يواجههم ليس صبيا أو طفلاً كما كانوا يرجون دائماً ، ولكن حاكم شاب ذو ارادة صلبة ويفضل ان يتخلى عن عرشه على أن يتنازل عن حقوق المشروعية .

٢ - استيقظ الرأى العام المصرى بعد حقبة من اليأس والخمول أدت بالانجليز إلى انكار مجرد وجوده وأفاق على مدى العجرفة والغطرسة التى يحكمونه بها وتضاعفت كراهيته لهم .

٣ - لم يعد فى استطاعة الانجليز أن يخدعوا الأوروبيين وأن يدعوا أن المصريين سعداء بالوجود البريطانى وراضين عنه ومتمسكين به ووضح مدى الرفض الذى يحمله المصريون لهذا الحكم .

٤ - أصبح الحاكم محبوبا من الشعب كما لم يسبق من قبل .

وكانت الخطوة التالية التى تقررت هى أن يعزز الخديوى هذه النتائج ، ويؤكدها وأن يعمق شعبيته ويعبر جذورها بطول البلاد وعرضها، وأن يبدأ الطواف برحلة ممتدة إلى مديريات الوجه القبلى وكانت أفضل اختيار .

«ولقى سموه فى هذه الرحلة من حماس الشعب ما جعله فى حالة من الذهول ، ولم يعد يدرى كيف يعبر عن شكره لمن دافع عن قضيتهم بشجاعة وطنية صادقة .

«أقيمت أقواس النصر فى كل مكان وشملت الترتيبات كل بقعة من الأرض وتلألأت الزينات والأنوار فى كل طريق مر عليه سموه .

وحدثت خلال زيارته لمدرسة ثانوية أن شاهد لوحة كبيرة تحمل شعارا بالفرنسية «أيها الشعب المصرى الكريم أصبح واجبك المفروض عليك أن تضحى بنفسك فى سبيل وطنك وأميرك» .

وألقى مدرس فى احدى المدارس الثانوية خطابا قال فيه :

«إن استقلالنا سيتوقف علينا أكثر مما يتوقف على غيرنا وقد أن أوانه وقيض الله لنا أميراً شجاعاً رابط الجاش صادق الوطنية يجب أن نلتف كلنا حوله» .

ولم تستخلص سلطات الاحتلال ولم يستوعب فخامة اللورد أى درس أو عظة ، بل وكان الرد حملة عاتية شنتها الصحف البريطانية .

قالت السان جيمس جازيت :

«الخديوى طفل خرج لتوه من المدرسة ولا يدفعه لهذا السفه سوى الدسائس الفرنسية» .

وقالت الديلى تلغراف :

«عباس شاب ذكى اكتسب قليلا من الثقافة خلال دراسته فى فيينا ولكن يظل طفلا ولابد من معاملته معاملة الأطفال أى بالكرباج» .

وقالت البال مال جازين :

«لقد نجحت بريطانيا نجاحا باهرا فى اصلاح مصر وانقاذها ولا يمكن أن نسمح لأحد بالعبث خاصة عباس واتباعه الانتهازيين ولا مناص من التذكير والتشديد على الالتزام ببرقية جرانفيل سنة ١٨٨٤ إلى شريف .

وفوجىء الجميع بالخديوى يلتقط القفاز ، ويعد ردا على ما نشرت الصحف ، ويطلب إلى «السان جيمس جازيت» باسم حق الرد ان تنشره .. ولم تملك سوى أن تفعل .. وقال :

«يردد اللورد كرومر دائما أنه يريد أن يدرب المصريين حتى يستطيعوا أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى أقرب وقت ممكن بل وحتى يستقلوا تماما ، ولكن لا أدرى كيف يتحقق ذلك وهم لا يستطيعون التعبير ولا يملكون أى سلطة فى بلادهم ، والرأى العام البريطانى لا يعرف سوى وجهة نظر واحدة هى التى يبعث بها اللورد إلى الحكومة ، والتى تعرضها فى مجلس العموم والتى تحصل دائماً على التأييد ثم تنشرها الصحف على أنها كل الحقيقة ولا تكترث بأن هناك وجهة نظر أخرى هى وجهة النظر المصرية ، وبذلك يبطل الشعار البريطانى الذى يقول لكل قضية وجهة نظر لابد من أخذهما فى الحسبان» .

وردت الحكومة البريطانية بتصريح رسمى قالت فيه :

«ان الخديوى كان يريد اشعال فتنة تبدأ من الاقاليم الجنوبية حيث يسود الجهل والتعصب الدينى» .

وسارع اللورد كرومر بتدارك الأمر وهو يرى أن الاحتياط والحذر أصبح واجبا منذ الآن» .

ولم يكن الخديوى وحده ، وكان هناك شاب صغير آخر فى نفس عمره بالضبط وولدا فى سنة واحدة ١٨٧٤ ، ولكن ولد الأول فى القصر وأعد ليرث العرش .

وولد الآخر فى نفس العام ولكن فى حى الصليبة «الشعبى» ومن أسرة متوسطة صغيرة ، ولكن أودعه الله سرا قدسيا من اسراره ، وشعلة نورانية متقدة تستبد به وتملك عليه نفسه .

والتقى الاثنان ، خلال رحلة الخديوى المضنية فى البحث عن مواد إعادة اكتسابها بعد عودته وتوليه العرش والتى روى قصتها :

«كنت شابا صغيرا وبلا تجارب ولم استغرق وقتا لأكتشف أن كل من حولى لا يجمعهم سوى هدف واحد هو استغلال قلة خبرتى وتجربتى، وجدت نفسى محاطا بكهول متداعين بلا ارادة ولا كرامة ، وقد اعتادوا أن يركعوا خاضعين أمام ممثلى دولة أجنبية تزعم أنها حامية وصديقة وكان على أن أكون دائماً على أشد الحذر وأن لا أقع فى شرك قد ينصبونه لى ويمكن أن يقضى على كل أمالى وطموحى» .

«وكنت مصمما على أن أحقق كل ما أعلنته صراحة وبلا مواربة وأنا على وشك تولى العرش ، وهو أننى أفضل الموت على أن أتنازل عن أى حق من حقوقى أو حقوق بلادى .

«ونظرا لصغر سني – سبعة عشر عاما اعتبر السيد ممثل بريطانيا العظمى أن من حقه أن ينصب نفسه أستاذا ومعلما لي وأن يقدم لي النصائح وعلى تنفيذ التوجهات .

وكنت أجد نفسي وحيدا أمامه وبلا سند أو معين ، كان لديه جيش احتلال وحكومة عظمى في لندن ونفوذ متعاظم في اسطنبول ، وتحت أمره صحف ومراسلون ومعلقون مسخرون لنشر ارادته وحده ، ولم يكن حولي سوى الفراغ التام بلا رجال ولا مبادىء ولا قواعد أو تقاليد ، ولا أي قوة مادية أو معنوية .

«وكان هناك درس واحد وموعظة بليغة لا يمل أن يكررها ويلقنني إياها في كل مرة وهي أن شبح عرابي لا زال قائما وأن الحركة العرابية لا تزال كامنة تحت الرماد ، وأن أي تصرف خاطىء أو حادث عابر أو أزمة طارئة يمكن أن تفجر النار وتشعل الحريق من جديد ، وعلى أن أكون حريصا حرصا تاما وعلى أن أذكر دائماً ولا أنسى أنني لم أكن لأجلس هنا على هذا العرش لولا بريطانيا التي تدخلت وانقذت اسرتي».

«وحينما كان يلمس عدم استجابتي أو اكتراثي ، كان ينقلب على الفور متغطرسا صلفا ، ويتحدث عن والدي بازدراء شديد وكيف أنهم فعلوا كل شيء حتى أطفئوا له الحريق ثم سلموه العرش . وأدركت بسهولة أنه يريدني أن أدرك تماما ولا أنسى أنني إذا ما عاندت

وتشبثت بكرامتي ورفضت الدور الضئيل الذي تسمح لي به بريطانيا فإن في استطاعتها أن تخلعني في لمح البصر وأن تؤلب الشعب المصري كله ضدي ، بعدما أصبح يفيض ولاء لبريطانيا عرفانا بجميلها وإصلاحاتها .

وفي أول مرة جاء فخامته لمقابلتي وجدت رجلا متجهما شديد الصرامة حاد النظرات واستغربت ، فقد أكدوا لي أنه رجل عميق الثقافة ، يهوى الآداب القديمة اليونانية واللاتينية ، بل ويقوم بترجمة ملحمة هوميروس الشهيرة الأوروبية إلى الانجليزية ، ولكن لم أشعر قط أن فيه أي لمسة شعر أو فن بل أنه واقعي سوقي لا يجيد سوى لغة المصالح العارية» .

ويستطرد الخديوي :

كان يحيط نفسه بهالة مفتعلة من التعالي والغطرسة بلغت ذروتها بالطبع لما كان يلقاه من نفاق وتملق رجال لا يمكن أن يحسبوا على الساسة أو القادة ، ولكن مجرد موظفين أذلاء لم تعد تعنيهم مصر أو أهلها في شيء وكل ما يعنيهم هو مصالح ومطامع صغيرة وحقيرة .

«واذكر في أول اجتماع لي مع مجلس النظار ان اكتشفت انه يستحيل عليّ أن أحصل على أي رأي واضح أو على حل لأي مسألة وكانت الاجابة التي أتلقاها على كل سؤال أطرحه واحد لا يتغير «كما يشاء سموكم» وعند نهاية الاجتماع جاء سكرتير مجلس النظار ومعه القرارات التي كان عليّ أن أوقعها ولما سألته «وأين أوقع ؟» كان رده

«حيث تشاء سموكم» ، وخلال المراجعة استبقيت قرارا بشأن مدة الخدمة العسكرية لكى أدرسه قبل التوقيع ، واستغرب سعادته واضطرب ولم أعرف السبب إلا بعد أن عرفت أنه سارع فورا إلى رئيس مجلس النظار مصطفى فهمى مرتاعا لأننى استمهلت التوقيع على أحد القرارات وتضاعف رعب الرئيس وسارع إلى فخامة اللورد ليخبره بالهول الذى حدث ، ولم ينتظر اللورد الذى جاءنى غاضبا لكى يوبخنى ويؤنبنى ويصغر من شأنى وينذرنى بأننى تجاوزت حقوقى وتصرفت تصرفا غير دستورى وتدخلت فيما لا يعنينى ويجب أن لا يتكرر ذلك !»

«ولم تكن هذه الأمور فى معظمها غريبة عنى ، ولكن وقعها المباشر كان أصعب مما توقعت ، وكنت حين أعود فى العطلات الدراسية أصدم بالتفاهة الفكرية والضيقة النفسية للحاشية والمحيطين بوالدى وكانوا جميعا كهول عجائز لايدركون شيئا عن أحوال البلاد أو ما يجرى فى العالم . وكنت أزداد يقينا بأن الأحداث العنيفة التى واجهها والدى أبعدت عنه أى شخصيات مخلصة أو موهوبة أو ذات أى كفاءة ، ووجدت نفسى وعمرى ١٧ سنة وحيدا أحمل مسئولية ثقيلة وعلىّ أن أعلم نفسى بنفسى مهام الحكم .

«وقد كانت أقوى رغباتى لدى جلوسى على العرش أن أقيم علاقات وثيقة مع الأمة وسلكت كل الطرق لكى أتقرب منها ، ودعوت لمقابلتى والى مائدتى كل من عرفت أن له ثقافة أو موهبة وأن أستمع مباشرة

إلى من لهم خبرة أو تجربة من المسئولين المحترمين .

وفي المساء كنت احتفظ بالزوار الذين أجد أنهم متميزون ، وكانت مائدة العشاء تضم كل يوم جنبا لجنب العلماء والمهندسين والفقهاء والأدباء والشعراء وكانت الأحاديث خصبة ممتعة» .

واستطعت بهذا أن أتصل بالأمة عن طريق ممثلين لها كانوا الأصدق تعبيرا عن فكرها وتراثها وتقاليدها ، ووجدت أنني أتوغل يوما بعد يوم وأكثر فأكثر في روح الشعب وكنت أشعر بالفخر حين اكتشف من وقت لآخر موهبة وطاقة مدفونة مهملة .. كانت سعادة بلا حدود » .

«وإذا كان الفساد قد تفشى وساد في كل مكان ، إلا أن أهم ما اكتشفته كان الشيء الوحيد الذي لم يمسه الفساد والذي قاسي دون أن يشكو من آثام حكامه وظل ينتظر وهو صابر صامد حلول أيام أفضل .. اكتشفت أن هناك نارا خفية داخلية مضطرمة ومستترة في جماهير الشعب» .

وصب الخديوى اهتمامه على الجيل الجديد الذي ينتمي اليه ، والذي لا يملك سواه ، تكثفت زيارته للمدارس والمعاهد ، حتى كانت الزيارة الحاسمة والتي وجد فيها من كان يبحث عنه .

زار مدرسة الحقوق العليا ، وقام زعيم طلبة المدرسة بالقاء خطاب ترحيب باللغة العربية ثم باللغة الفرنسية ثم ألقى قصيدة وطنية .

وبهر الخديوى بالطالب الشاب الذي كان في نفس عمره ، وفي المساء أرسل اليه رئيس الديوان حسن باشا عاصم ليدبر لقاء سريا بينه

وبين الخديوى فى مسجد صغير خلف قصر القبة .

وانعقد بين الاثنين حلف ورباط وثيق عميق لم ينفصم مهما شهد من تقلبات .

وجد الخديوى من يعتمد عليه ليفجر الأزمة الفهمية كما سمى والصدام مع التنين .. وفجر الشاب الصغير الشارع المصرى لأول مرة واشعل النار الخفية لتغنو حريقا هاما لم يخمد منذ ذلك اليوم .

لم يصدق الخديوى ما رآه فقال :

«كانت المظاهرات رائعة وهتافات التشجيع مدوية وكانت الجماهير المتحمسة تتعلق بعربتي وتجرها فى شارع الموسكى ورغم تلقائية هذا التعبير وقوته فإن النظام لم يضطرب ، وتركت المسجد بعد الصلاة وسط جماهير حاشدة ولكن منظمة كانت أول مغامرة صداقة تحوى من جانب شعبى وأسعدنى أن أرى المثقفين مندمجين بين الجماهير ، وأن موجات المتظاهرين من كل الطبقات والفئات ملتفين حول أميرهم بنفس الشعور الوطنى الذى يحمله فى صدره ، ظهرت روح الشعب على حقيقتها وتبدد ما كان قد خطر ببالى من اعتقاد بسلبية ابناء هذه الأمة، تلاشى ذلك الانطباع وأيقنت أنه كان سطحياً » .

وقال يصف رفيق سلاحه وكفاحه :

«لقد أرسلته عناية الله التى تسهر على مصائر الشعوب كما تسهر على مصائر الافراد إلى مصر لكى يبذر فيها بذور الخصب والحياة بعد ما أجدبت كان بسيطا وصريحا ، وتحت شكله الوسيم كانت تكمن روح

مشتعلة بنار مقدسة ورأس وهبها الله الحكمة ، وكانت فصاحته وبلاغته ساحرة ساخنة وكان أسلوبه رشيقا مضطربا بالحياة ويتحرك من البساطة الملائكية إلى الفصاحة العارمة لشيوخ روما فى الماضى ، وكانت قدرته على الاقناع وبث الثقة والايمان خارقة .. كان له بلا شك ذلك الاشعاع الذى كان للرسل والأنبياء» .

انتهى النفق المظلم وبزغ فجر عصر جديد وزعيم جديد، وتساءل الناس من يكون ؟ .

نهاية النفق ـ ٢

استعدت المدرسة الخديوية الثانوية لاستقبال الزائر الكبير سعادتلو علي باشا مبارك ناظر المعارف العمومية !

وكالعادة اختارت المدرسة طالبا نجيبا ليلقي خطاب ترحيب «بليغ» .

ودهش الوزير لفصاحة الطالب الصغير. وصفق له وناداه وتلطف معه ثم سأله عما يريد أن يفعل بحياته بعد أن يتم تعليمه وقال الفتى الصغير على الفور وبحزم شديد «سوف أعمل لتحرير بلادي من الاحتلال» .. وبدا أن اعجاب الزائر الكبير بلغ اقصاه فقد ربت على كتفه ثم دعاه لزيارته في داره وكان حدثا لم يسبق . ولم يتردد الفتى الصغير في تلبية الدعوة وذهب واحتفى به المضيف وقدمه إلى الحاضرين وحينما دعي للمشاركة في النقاش تقدم بنفس الجرأة وأثار دهشة وإعجاب الشيوخ الأجلاء ، وكان الشيخ علي يوسف اشهر الصحفيين في ذلك العصر وكانت جريدته المؤيد هي جريدة المصريين الأولى وروى ما حدث:

«قابلت مصطفى كامل لأول مرة في بيت علي باشا مبارك ووجدت فيه رجلا كاملا وليس طالبا صغيرا وكان اعجاب الباشا يتضاعف به

كل يوم خاصة حينما كان يعارض ويخالف» .

ولم يلبث أن دعاه الشيخ ليكتب في الجريدة واستجاب وكان بذلك أصغر كتاب المؤيد، ثم تعرف الى الشاعر خليل مطران في الندوة ايضا وصحبه إلى بشارة تقلا رئيس تحرير الأهرام والذى دعاه للمساهمة فى الاهرام .

وتساءل الجميع من يكون ذلك الفتى الذى يشع كل هذا القدر من الاعجاب وعرف أن اسمه مصطفى كامل، وكان أبوه ضابطا فى الجيش المصرى توفى بعد ولادته بقليل وكفله اعمامه واخوته الكبار. وكانت الاسرة من حى الصليبه، وكان الحى من معاقل الثورة العرابية وكانت مقاهيه ونواديه ومساجده ومنادره مشهورة بالخطباء والعلماء والدعاة، وكان قادة الثورة وزعماؤها كثيرا ما يعقدون فيه الاجتماعات والندوات .

وحين أتم دراسته الثانوية كتب إلى أخيه الضابط فى الجيش المصرى بالسودان :

تخطيت العقبة الكئود وحصلت على البكالوريا وقررت الالتحاق بمدرسة الحقوق مدرسة الكتابة والخطابة والدفاع عن حقوق الأفراد والامم .

وحينما أصدر الخديوى عفوه عن عبدالله النديم وسمح له بإعادة اصدار جريدته الاستاذ سعى اليه ثم لازمه.

وعرف من أحاديثه اسرار الثورة العرابية وحوادثها واسباب إخفاقها وهزيمتها واساليب الانجليز ومكائدهم ودسائسهم .

وقرر مصطفى كامل بعد أن اجتاز امتحان السنة الأولى بمدرسة

الحقوق أن يلتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية والتى افتتحها الفرنسيون .

وكتب إلى أخيه «أريد أن أجيد الفرنسية وأن اتزود من الثقافة الفرنسية القانونية وأن أطلع على النظم الحديثة لكى اعرف كيف اشرح قضية مصر وحقوقها فى المحافل الدولية والأجنبية .

وقرر الخديوى زيارة مدرسة الحقوق العليا خلال جولاته ليتعرف إلى شعبه واهله واستمع إلى زعيم المدرسة يلقى خطاب الترحيب، وتكرر ما حدث لناظر المعارف قبل سنوات . وبعث الخديوى على الفور برئيس الديوان يبحث عنه ويدعوه للتعرف به . وانعقد الاجتماع «التاريخى» فى المسجد خلف السراى ، و« تغير تاريخ مصر » !

وكان مصطفى كامل على رأس المظاهرات التى كانت سند الخديوى الشعبى خلال الأزمة «الفهمية» كما سميت أزمة تغيير الوزارة ، ولم يلبث أن أصبح ساعده الأيمن فى مهمة دقيقة عسيرة لا تقل صعوبة ولكن حققها بنفس الكفاءة والحماس .

روى الخديوى :

«اكتشفت خطرا يتهدد كل شئ وهو أن كل الموضوعات والمناقشات المتبادلة خلال حفلات العشاء التى كنت اقيمها كل يوم للصفوة والنخبة ولكى استطيع من طريقها أن اتصل بالأمة وأن أتعرف إلى ممثلين لها من الأصدق تعبيرا عن فكرها وتراثها وتقاليدها ولأكتشف موهبة أو طاقة أو كفاءة أسعد بها سعادة بلا حدود ، اكتشف أن كل هذه الموضوعات والمناقشات المتبادلة خلال هذه المناسبات الشخصية تنقل إلى ممثلى بريطانيا بطريقة مشوهة . وحينما فاتحت ضيوفى فى هذا

الأمر أجابوني جميعا بأن المسئول هم خدم القصر الذين يعملون لحسابهم وأوقفت المآدب واللقاءات ، وذهلت كيف تحولت مصر إلى سوق ضخمة تباع فيها الضمائر وتدبر فيها كل انوا ع المؤامرات، وقد زرع فخامة اللورد كل اسباب الفرقة والشقاق والعداوة في صفوف المصريين وتولى رجاله نشر الاحقاد والقطيعة بين الاسر والعائلات والطوائف وانتشر جواسيس ادارة المخابرات البريطانية وعملاؤها في كل مكان وبين كل طبقات المجتمع في الضواحي الفاخرة وفي الصالونات والقصور وفي القرى النائية ولكن حول العرش خاصة .

وكان العملاء من كل المستويات والطبقات العليا والدنيا والمدنيين والعسكريين بل ولفرط الأسى اشترت الادارة البريطانية بعضا من أفراد اسرتي ومن أقاربي الذين تصلني بهم صلة الدم . كانوا يحومون حولي ويتصيدون أخباري خدمة للأجانب الذين انتزعوا من مصر روحها والذين استباحوا كل الوسائل وأشدها خسة ودناءة في تحطيم معنوية شعب عانى طويلا كل ألوان الظلم والطغيان والاستبداد.

ووجدت أن لا مناص من أن أحاربهم بنفس اسلحتهم واستطعت تكوين جهاز مخابرات انتشر في كل مكان وحتى النظارات والادارات والمعسكرات ووصل حتى داخل منزل السردار، وكان الاعتماد في ذلك على الشباب الوطنيين المخلصين لدينهم ووطنهم وأميرهم .. وكانوا يقومون بمهامهم الخطرة متطوعين لخدمة بلادهم مدفوعين بوازع ديني ووطني عميق » .

كان ذراعه الأيمن طالب الحقوق الذي اثبت عبقريته «التنظيمية»

وتكوين السياج الذى يحمى العمل الوطنى . وتقرر بعد ذلك البدء فى تكوين نواة التنظيم السياسى وتكونت الخلية الأولى فى داخل القصر، وكان الأعضاء المؤسسون أحمد شفيق رئيس قلم الترجمة واسماعيل بك الشيمى ويوسف بك صديق من قضاة المحاكم المختلطة ومحمود بك سالم والمسيو روليه السكرتير الخاص للخديوى، ثم المسيو جافيه نائب رئيس الجالية الفرنسية فى مصر والمسيو أومارلى والمسيو جوردان فرى المستشاران القضائيان فى المحاكم المصرية والمسيو بريت العضو الفرنسى فى مصلحة السكك الحديدية .

وتحددت أهداف التنظيم الوليد بأنها الدفاع عن حقوق مصر ومصالحها ضد المحتلين الغاصبين وذلك بالكتابة فى الصحف الفرنسية والخطب التى سوف يلقيها مصطفى كامل فى الخارج والداخل.

وتم الاتفاق مع المسيو لوسير مراسل شركة هافاس الفرنسية للأنباء على أن يتخلى عن خدمتها مقابل مبلغ يتقاضاه ويعمل لحساب المشروع ويرسل البرقيات والاخبار التى نريد نشرها وذلك حتى يمكن اصدار جريدة خاصة بالفرنسية يكتب فيها الأعضاء باسماء مستعارة.

وحل فصل الصيف والاجازات وتلقى الخديوى دعوة من جلالة السلطان لقضاء العطلة فى اسطنبول وكانت احداث القاهرة «المنيرة» ومواقف الخديوى الصغير قد أثارت الاهتمام فى أروقة الباب العالى، وحرص جلالته على أن يتعرف مباشرة على الأمير الشجاع وأن يضعه فى المكان المناسب، وكان الخديوى سعيدا بالدعوة من أمير المؤمنين، ولكن أيضا لأنه كان متلهفا على تحقيق امنيتين عزيزتين أن يلتقى بجده

اسماعيل والثانى لقاء السيد جمال الدين الافغانى .

وكان جمال الدين قد انتهى إلى ضيافة السلطان بعد أن ضاقت به عواصم الشرق والغرب ، وقد منح بيتا على أن لا يستقبل زواراً، وحديقة على أن يقصر تجواله داخلها.

واستطاع الخديوى أن يلتقى بجده اسماعيل وكان اللقاء عاطفيا حارا وتعثرت كل محاولات للقاء مع جمال الدين الافغانى وتذرع رجال حاشية السلطان بمختلف الاعذار، ولكن استطاع ان يخترق المواقع وأن يصل اليه . وفى اليوم التالى تلقى عتابا ولفت نظر بأن لا يكرر ما حدث وتلقى جمال الدين تحذيرا بأن يبتعد عن «الفلام» ولا يحاول أن يغرر به ويقوده إلى الفتنة ! .

وعاد الخديوى سعيدا متفائلا من عاصمة الخلافة مؤيدا من أمير المؤمنين محملا بذخيرة روحية تدفعه لمواصلة الرسالة «التاريخية» التى يحلم بتحقيقها . وأعد للخطوة القادمة .. لقد كسب تأييد الشعب ، وبقى عليه أن ينفذ الى المؤسسة الحاسمة وهى «الجيش» وكان اللورد دوفرين قد أفتى بأن مصر لا تحتاج الى جيش ولكن تغير الموقف بعد تفاقم أحداث السودان وبعد قرار لجنة من الضباط البريطانيين ان فرقة جنود مصرية تساوى ثلاث فرق هندية ويمكن ان تتكافأ مع فرقة بريطانية .. وبدأ اعداد جيش «مصرى» .

وكان القائد العام للجيش المصرى هو الجنرال «كتشنر» وكان على صلة طيبة بالخديوى ، ولهذا استطاع سموه ان يعين وكيلا لوزارة

«وعن طريقه استطعت أن أحصل على كل ما أردت من معلومات عن الجيش وأن أكون على علم بكل ما يجرى فى نظارة الحربية وعرفت الفروق الشاسعة فى المرتبات بين الضباط المصريين والبريطانيين» .

«وعرفت أيضا مدى نشاط شبكات المخابرات البريطانية وعملائها فى مصر والسودان وكل شبه الجزيرة العربية ، وكيف تنفق أموال مصر على عملياتها ومؤامراتها . واستطعنا بدورنا تنظيم شبكة للمعلومات امتدت الى كل الوحدات فى الجيش وكان ذلك أهم ما حققناه. وقد سعدت كل السعادة بعد أن تأكدت ان الجيش المصرى يفيض وطنية وولاء للعرش رغم كل ما يبذله كرومر من جهد لتجريده من ذلك » .

واعتمادا على ذلك الإعداد والتمهيد الدقيق أعلن سموه عن عزمه على زيارة الجنوب وتفقد أحوال الجيش هناك وأصدر بياناً بهذه المناسبة قال فيه :

«سوف أذهب بمشيئة الله لأبحث بدقة أحوال الجيش ولأكتشف ما قد يكون هناك من تفريط نعمل على تلافيه، وما هناك من نقص نستكمله وان الجيش مقبل على مهمة عصيبة محفوفة بالأهوال وهى الحرب فى صحارى السودان ومجاهله ويجب ان يكون على أتم الاستعداد » .

وأثار البيان القلق فى دوائر النظارة والوكالة معا ، وطلب اليه كرومر وكتشنر معا ان يعدل عن الرحلة أو أن يؤجلها ولكنه رفض وأصر عليها .

وطلب كرومر أن لا يصحب معه ماهر باشا ولكنه تمسك به وتدخل رئيس النظار مصطفى رياض وحذر سموه من أى تصرفات تفجر المشاكل وأنذر محمد ماهر بأن (لا تلعبوا بالنار لأنها يمكن أن تحرق الجميع) ولم يكترث الخديوى وبدأ الرحلة .

ووصل الى أسوان ليشهد الاستعراض .

ومرت الفرقة الأولى وأبدى الخديوى اعجابا بنظامها وسلاحها وجنودها وضباطها .

ومرت الفرقة الثانية ، ولم يملك الخديوى إلا أن يؤنب كتشنر .

إن حال هذه الفرقة مزر يبعث على الخجل واننى آسف أن أرى خطواتها الرديئة وأسلحتها القديمة، ولابد لك ان تتدارك ذلك وتضاعف الجهد فى تدريبها .

وتتابع مرور الفرق ، وتتابعت ملاحظات القائد الأعلى من الاعجاب والانتقاد واللوم، وبدا أن القائد تقبل ملاحظات الخديوى بروح «عسكرية».

وانتهى العرض وانتقل الجميع الى الاستراحة وتناول المرطبات ، ولكن كما يقول احمد شفيق :

«وفوجئنا بدخول الجنرال مكفهر الوجه ساخطا ، وليعلن فى صلف أنه لا يملك مناصا من أن يقدم استقالته احتجاجا على الملاحظات التى أبداها سمو الخديوى، وأن الضباط البريطانيين جميعا متضامنون معه فى هذا الشأن» .

وَرد الخديوى بهدوء «إنني مندهش تماما وأنا لم أتعمد توجيه أي انتقاد الى شخصياتهم أو الى اشخاصهم ، ولكن فعلت ما فعلت حرصا على الجيش الذى أتولى قيادته العليا وواجبى أن أعمل دائما على ترقيته وتقدمه . ولا أفهم أن يكون ذلك سببا للاستقالة الا اذا كنت تريد أن تعطي لمسألة مهنية خاصة مغزى سياسياً آخر » .

وهدأ كتشنر وبدا انه اقتنع تماما . وانتهى استعراض القوات فى أقصى الجنوب بفرقة يقودها ضابط مصرى هو اللواء ابراهيم باشا فتحي وأركان حربه من الضباط الانجليز . وأعجب بها الخديوى .

وأثنى على القوات ثناء طيبا وتقبل كتشنر الثناء شاكرا .. وأعلن ان كل الغمام قد انقشع .

وبدأت رحلة العودة من الجولة بأحداثها ومفاجآتها .

ويتابع احمد شفيق الرواية :

«ظللنا فى شغل شاغل من جراء ما حدث وإن كنا انتهينا الى أن المسألة قد سويت تماما ، ولكن ما أن وصلنا الى جرجا حتى وجدنا رئيس مجلس النظار رياض ومعه وزير المالية بطرس غالي ومحمود باشا شكرى رئيس الديوان التركي ، وكان الثلاثة فى حالة من الفزع والقلق الشديد ، وقال رئيس النظار انهم جاءوا بتكليف من كرومر الذى قدم لهم انذارا يسلمونه الى سمو الخديوى ويقضى بأنه اذا لم يسحب على الفور كل الانتقادات التى وجهها الى الضباط الانجليز خلال الرحلة فإن بقاءه على العرش لن يصبح مضمونا ، وسوف نتخذ فورا كل

الاجراءات اللازمة لوضع الجيش المصرى بأكمله تحت قيادة جيش الاحتلال وقد احيطت وزارة الخارجية فى لندن بكل ذلك ووافقت عليه .

وبعد التداول وخروج المسألة من حدها البسيط الى هذا المدى انتهى الرأى بيننا الى أن يبعث رئيس النظار مصطفى رياض برقية الى كرومر ويطلب منه ابلاغها الى وزارة الخارجية البريطانية ويكون نصها:

«إن الجناب الخديوى فى دهشة وألم لما ثار حول رحلته الى الحدود وهو يحتفظ لنفسه بالحق فى شرح حقيقة ما حدث فيما بعد، ولكن لما كان من المهم لديه أن يؤكد ثقته وتقديره لجيشه فانه يكرر أمره الذى اصدر الى السردار معربا فيه عن رضائه التام وتقديره للقوات والضباط ويكرر شكره لهم والثناء عليهم بعدما تفقد أحوالهم هناك » .

وحمل المبعوثون الثلاثة الرسالة وسافروا مقتنعين أن المسألة قد حسمت وأن الترضية كاملة تماما .

وقرر الخديوى ان يعرج على الفيوم خلال العودة ولكن .

ما إن وصلنا حتى وجدنا وكيل الخارجية تجران باشا فى انتظارنا ومعه انذار آخر من كرومر أعنف بكثير من السابق ، ويطلب أن تنشر البرقية فى كل الصحف العربية والافرنجية وأن يعلن عزل محمد ماهر باشا من منصبه . وأن يتم ذلك قبل أن يصل الخديوى الى القاهرة وإلا فإنه سوف يمنع من دخولها وثار الخديوى وأدرك ان كرومر يصر على أن يسقط هيبته ومكانته لدى الشعب والجيش معا ولهذا رفض الانذار والطلب مهما يكن الثمن .»

وتصاعدت الأزمة حتى ذروتها ويقول الخديوى :

«وصل رئيس مجلس النظار من القاهرة ودهشت لأن أرى امامى رجلاً ينتفض مذعورا ويهددنى بأن الموقف أخطر بكثير مما أتصور، وأن كرومر مثل الثور الهائج ويصر على كل طلباته فورا وحاولت عبثا ان اقنعه ان ما يطلبه اهانة لكرامتى وكرامة البلاد عامة ولا يمكننى قبولها ولا استطيع إجابتها ولابد أن أعود فورا الى القاهرة، وأن اواجه كرومر وابحث الأمر كله معه . ولكن رئيس النظار أصم أذنيه ورفض أن يستمع الىّ وصرح ان الاوامر لديه صريحة . ويتحتم علىّ إما أن أقبل وأوقع وإلا لن أدخل القاهرة ، وهناك مهلة محددة حتى ظهر اليوم ولم يبق منها سوى ساعات يعلن بعدها قرار الخلع والمنع من دخول القاهرة ووضع الجيش المصرى بأكمله تحت سلطة جيش الاحتلال . وزيادة فى الاثارة قال لى إنه اتصل بقناصل الدول الكبرى وعلى رأسهم فرنسا وروسيا وممثل السلطان وأجمعوا كلهم على أنه لا يمكنهم التدخل ولا مناص لى من القبول . وقبل نهاية مدة الانذار بدقائق وجدت نفسى مرغما على التوقيع على برقية وضع نصها كرومر وتقول قبل أن أترك الفيوم وأعود إلى القاهرة أود أن اكرر ما سبق ، وأظهرت من التقدير والاعجاب بالجيش المصرى عند زيارتى للحدود، وأؤكد مرة أخرى ما أبديته من سعادة لما وجدت عليه القوات المسلحة سواء فى نظامها أو كفاءتها وإننى أكرر التهنئة للضباط الذين يتولون القيادة مصريين

وبريطانيين على السواء . وذلك لما بذلوه من جهد ، ويسعدنى خاصة أن أشيد بالجهد الذى يقوم به الضباط البريطانيون للنهوض بالجيش المصرى وأود يا جناب السردار أن تعلن ذلك لجميع الضباط والجنود .

ويواصل الخديوى الرواية :

وعاد رئيس الوزراء سعيدا يحمل لسيده الفعلى النصر الذى حققه وتأكدت بعد ذلك أنه لم يحاول ان يقابل قنصل فرنسا أو أى قنصل آخر وأنه كذب عليّ وفضل الاهانة والذل لنفسه وبلاده وأميره .

وتكشفت لى حقيقة هذا الرجل الذى خدعنى وكذب عليّ حين استدعيته لتولى أكبر منصب فى البلاد وذهلت لما هو عليه من جبن وخسة ومناصرة للطرف الآخر » .

وفوجىء الخديوى بمن يضمد جراحه ويرد له اعتباره وكرامته وعلى أرفع مستوى .

تسلل الي القصر ضابط مصرى يحمل رسالة من زملائه تقول :

«بكل خضوع واحترام نؤكد طاعتنا وولاءنا لسمو خديوينا الأعظم ونرفع اليه أن الجيش الانجليزى الباغى قد ذهب بسطوتنا "العسكرية وأضعف شوكتنا ، ولم يعد لنا حول أو طول فى جيشنا وصرنا آلة تتحرك بمجرد اشارة ونحال على المحكمة لأى شيء أو عبارة، وقد اساءوا فينا القصد واخترعوا غاية الجهد فى إيقاد الشقاق وجاهرونا بالتعصب والتحيز، وأرونا كيف تكون ذلة النفس ولهذا انتظمنا فى

جمعية سرية من الضباط المصريين تحت اسم جمعية المودة السرية تقوم على تنظيم دقيق وقسم يؤديه العضو هو الفداء فى سبيل الوطن والولاء للقائد الأعلى سمو خديونا الاعظم «ووقع على العريضة اعضاء التنظيم بأسمائهم ورتبهم » .

وسعد القصر بالرسول والرسالة وتم الاتفاق على شفرة خاصة لتبادل الرسائل .

وطلبنا الى الجمعية ان ترسل تقارير منتظمة تكشف عن كل ما يجرى فى الجيش ومؤامرات الانجليز فى داخله .

وتم ذلك على أحسن وجه ، وكانوا أول من فضح الخطط البريطانية لفرض السيطرة على السودان تحت علم الحكم الثنائى .»

الفصل العاشر
على الجبهة الأوروبية

أتم مصطفى كامل دراسته العليا فى الحقوقين المصرية والفرنسية فى سنة ١٨٩٤. وكان أصغر الخريجين وابرزهم واشهرهم كان عمره عشرين عاما، وقد استطاع ان يحقق أمنية كان يحلم بها. وأن يؤدى الامتحان النهائى فى الحقوق الفرنسية فى جامعة «تولوز» وكما يحدث دائما، لم يستغرق طويلا حتى كان موضع الاعجاب والاهتمام من الاساتذة والطلاب، وكانت الجامعة تضم حشدا من الطلاب الأجانب الأوروبيين من بولندة والمجر وبلغاريا وروسيا وكان كل منهم يحمل قضايا بلاده ومشاكلها ويدعو لها، واندمج مصطفى فى الحوارات والمناقشات، واستوعب فكر ونبض الجيل الاوروبى الجديد كما استطاع بشخصيته وطلاقته أن يضع القضية المصرية على رأس القائمة وكانت جديدة على أكثرهم، واحتل مكانة مماثلة لمكانته فى مصر. وبين شبابها.

وتعقيبا على حفل التخرج فى آخر العام اختصته المجلة المحلية (ديبسن دى تولوز) بذكر واهتمام خاص قالت :

«أحد الخريجين الذين تفتخر كلية الحقوق بتخرجه منها هو الطالب المصرى مصطفى كامل والذى أسر الجميع بأدبه وخلقه الشرقى الرفيع

وبشخصيته الفذة الجذابة وبإقباله على العلم والدراسة وبما يفيض به من ثقة وايمان ببلاده وحقوق شعبها.. ان مصر بلد عريق ذو تراث وتاريخ تعرفه فرنسا جيدا، ولا عجب أن تنجب مصطفى كامل. ولاشك أنها سوف تسترد مكانتها وحريتها على يديه. ولا يخالج أحدا فى الجامعة أى شك أن مصطفى كامل سوف يحتل مكانة فى الصدارة من حياة بلاده» .

وأجرت الصحيفة حديثا خاصا معه عما ينوى أن يفعل بعد عودته وأجاب (سوف أعمل بالمحاماة.. والدفاع عن حقوق الأمة المغتصبة والمهدرة ولن أعمل بالطبع فى الحكومة التى لا اعترف بها وأحتقرها.. لأنها حكومة احتلال).

واستعدادا لرحلة العودة جمع مصطفى كامل كل ما استطاع من الكتب والمراجع والوثائق حول المسألة المصرية كما كانت تسمى حينذاك وحول السياسة الدولية (ملأت صندوقين كبيرين) وأقلع بالباخرة.

وتصادف ان التقى على السطح بمسافر كبير المقام كان الكولونيل بارنج شقيق فخامة اللورد فى مصر.. واجتذب «المحامى» الصغير انتباه الكولونيل، وخاض معه حوارا طويلا بطول الرحلة حول مصر.. وكان مشبعا بمقولات أخيه ودعاويه واستبسل مصطفى كامل فى تفنيدها واثبات بطلانها. وسجل مصطفى كامل الحوار، ونشرته جريدة الاهرام كاملا بعد عودته وكان أول مبارزة فكرية مباشرة اثارت الاهتمام وتعززت مكانة الشاب الوافد من البعثة وتعلقت به الانظار . وقرر

مصطفى كامل قبل أن يبدأ العمل أن يطوف في جولة واسعة في مدن مصر وقراها وأن يجدد ولاءه ويعمق وعيه وايمانه.

واجتمع التنظيم الذى تقرر تمصيره تماما، واستمعوا إلى تقاريره وبعد ما استغرق النقاش تقررت استراتيجية عمل طويل المدى تتكون من شقين داخلي وخارجي، وأن يبدأ العمل في الخارج أولا وأن ينصب الجهد على تبديد الخرافات التى أحكم الاحتلال نشرها في أوروبا وتولت أجهزة الاعلام البريطانية ذات السطوة والقدرة ترسيخها لدى الأغلبية في الرأى العام الأوروبى، وأن «الصلح العظيم» استطاع مع مستشاريه ان يحقق المعجزة وأن ينتشل مصر وينشر الرخاء والاستقرار.

واستقر الرأى على أن يعود مصطفى كامل إلى أوروبا لكى يتولى المهمة . وانتدب عبد الرحيم بك أحمد مدير الادارة العربية ليضع معه التفاصيل واتصلت الاجتماعات ثنائية في مقهى صغير في باب الخلق تقررت فيه كل الاجراءات.

وقد تشكك البعض في قدرة المحامى الشاب الحديث التخرج أن يواجه سطوة الاعلام البريطانى ومجاهل السياسة والدبلوماسية الأوروبية ولكن وقف أحد اعز اصدقائه ومديريه (لطيف باشا سلم) قائلا :

«انما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف هذه عقيدة مصطفى كامل، وهو يسافر بها إلى اوروبا نائبا عن أهله وأحبابه مضحيا بنفسه وبكل ما تملك يداه في سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن

حقوق أمته فإن كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه فليس ذلك ذنبا وان لم يكن من الطبقة الأولى في مصاف الأمة فإنما نهضته تشرفه» .

ولم تلبث ان توالت الأخبار واخترق مصطفى كامل الحواجز والمواقع وبدأ بعمل بارع ملهم وبعث ستة شبان من الشباب المصريين خريجي الجامعات الفرنسية برسالة إلى المسيو بريون رئيس الجمعية الوطنية الفرنسية يطلبون تحديد موعد معه ليقدموا رسالة من الأمة المصرية إلى الأمة الفرنسية ممثلة في نوابها تستنجد بها في استرداد حريتها واستقلالها المغتصب.

واستجاب المسيو بريون وحدد لهم الموعد وجاءوا يحملون لوحة كبيرة رسمت عليها مصر مكبلة بالقيود والأغلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها كما عاونت أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها وجعل في ذيلها ثلاثة ابيات شعر من انشاده مع ترجمة إلى الفرنسية .

وألقى رئيس الوفد خطابا أمام الرئيس قال فيه بفرنسية بليغة .

«سيدى الرئيس

باسم مصر وشعبها اقدم لكم هذه اللوحة التى تنادى فرنسا لتكون سندا لها في استرداد حريتها واستقلالها، إن مصر أمة عريقة وفتية وقد سلبتها بريطانيا حريتها منذ ثلاثة عشر عاما مارست خلالها كل انواع القهر والاستغلال ولم تنس الأمة أو تقبل ذلك وهى تكافح ولا تهدأ

وتستنجد بفرنسا العظيمة صاحبة أول اعلان لحقوق الانسان والتى طالما سارعت إلى مساندة دول وشعوب كثيرة. إن مصر تثق تماما أن فرنسا لن تتأخر قط عن مساندتها» .

وهز الحديث قلب رئيس الجمعية الوطنية وكل النواب الحاضرين وأجاب بخطاب رقيق يفيض عطفا على مصر ويؤكد علاقتها التاريخية والوثيقة بفرنسا والتى لن تألو جهدا فى تأييدها.

وكان الوفد قد طبع عدة آلاف من اللوحة وبعث بها إلى كل أعضاء الجمعية وإلى كل الجرائد والصحف الفرنسية..

واستطاع الحدث ببساطته وصدقه أن يصبح حديث الفرنسيين وتناقلته الصحف الباريسية والاقليمية وقالت الفيجارو كبرى الصحف «هذا أول صوت للشعب المصرى يرتفع فى أوروبا بعد الاحتلال ويطالب بالاستقلال» واسترعى رئيس الوفد اهتمام الصحيفة التى أجرت معه حديثا اختتمته قائلة :

«ومما لاشك فيه ان هذا الشاب سوف يلعب دورا هاما فى حياة بلاده وهو يتدفق حرارة وحماسة وصراحة وقد كشف بقوة عما لحق ببلاده من مصائب من جراء الاحتلال البريطاني والذى يخدع العالم ويغشه بدعايته الكاذبة.. وقد تأكد اليوم ان المصريين قد استيقظوا ولن يسكتوا حتى يتحرروا تماما» .

ووصل صدى الحدث إلى تولوز وبعثت الجامعة تدعوه ليلقى

محاضرة عن المسألة المصرية .. الآن..

واستقبلته الجامعة العمداء والاساتذة والطلاب استقبالا حارا وألقى المحاضرة وفى اليوم التالى نشرتها الدببش دى تولوز وعقبت عليها قائلة.

«هذا مناضل صلب يدافع عن حقوق بلاده المغتصبة ببسالة وليس هناك أقدر منه على غرس بذور الوطنية والحرية عميقة فى تربة بلاده وأن يقف رافع الرأس لاينثنى أو ينحنى حتى تحقق الأمة المصرية أهدافها ولاشك ان جيلا جديدا يفيض حماسا وإرادة قد ظهر على الساحة هناك وسوف تتوالى الأحداث والأخبار التى لابد أن نترقبها».

كان فوزا عظيما .. وكان لابد وأن يتبعه بفوز أعظم.. وأن يحافظ على استمرار المد ومرة أخرى اهتدى ببراعته وطهارة روحه إلى الخطوة التالية.

كانت هناك سيدة من أشهر سيدات المجتمع فى فرنسا وأرفعهن مكانة وكان صالونها ملتقى لصفوة ونخبة القادة والساسة والمفكرين والكتاب .. وكانت تصدر مجلة ثقافية شهرية «لاتوفيل ريفيو» تعنى بقضايا العصر والعالم وتحتل مكانة رفيعة .

وجازف المحامى الشاب وكتب لها هذا الخطاب

«سيدتى

أنا شاب صغير السن واسع الأحلام شديد الطموح أحمل على عاتقى مهمة ثقيلة لامناص منها هى ايقاظ أمة لتسترد نفسها وحقوقها..

اننى يا سيدتى مصرى أحلم ببعث مصر التى تنوء الآن تحت وطأة

القهر والاحتلال أحلم أن أوقظ مصر المقهورة لكى تهب وتصبح مصر الفتاة المضطرمة بالحياة إن هناك كثيرين داخلها وخارجها يزعمون أن الوطن الذى أعشقه لا مستقبل له ولا وجود، ولكننى أؤمن به إيمانا يملك على كل نفسى ويستبد بى إحساس جارف عميق يتجاوز كل المعانى والحدود بل ويدفعنى لأن انذر حياتى كل حياتى من أجله وأن أفديه بكل ما أملك وأستطيع . أنا ياسيدتى شاب فى الحادية والعشرين من عمرى وقد تخرجت فى كلية الحقوق جامعة تولوز وأريد أن أجد المجال لأكتب وأخطب واثير الاهتمام والحماس حول قضية بلادى وأعبر عن كل ما يجيش فى صدرى.

وقد نصحنى كثيرون ياسيدتى أن ما أريده مستحيل ولكننى لا أبالى بهم لأننى أحس فى نفسى بدافع لا يقاوم لأن أمضى فيما عزمت عليه ولا أتراجع.

وما أرجوه وأطلبه منك يا سيدتى هو أن تقدمى لى المساعدة بما عرف عنك من وطنية وبما لك من مكانة رفيعة ولا أشك قط أن لديك كل ما احتاجه من ارشاد وتوجيه وأرفق مع هذا الخطاب كتيبا مختصرا كتبته عن الاحتلال البريطانى فى مصر ومظالمه وجرائمه وآمل أن يحوز على تقديرك ورضائك ».

المخلص

مصطفى كامل

ولم يخطر ببال أى منهما ما سوف يكون لهذا الخطاب من أثر

مصيرى على حياتهما وروت السيدة جوليت آدم فى مذكراتها ما حدث .

«طالما حمل البريد إلى رسائل كثيرة طريفة وفريدة ومن شخصيات مجهولة مغمورة وقدمت لهم ما استطعت من مساعدة حتى نجحوا وتألقوا بل وأحيانا حققوا شهرة ومجدا ولكن هذا الخطاب لمس وترا عميقا فى نفسى ببساطته وصدقه وإن لم يخطر ببالى أنه بداية علاقة تجاوزت كل ما سبق فى حياتى.»

وقرأت الكتاب الذى أرفقه ولم يتجاوز خمس عشرة صفحة وأقنعنى أنه لابد أن أقدمه فى العدد القادم من المجلة وكانت المسألة المصرية أحد اهتماماتى وكان لى أصدقاء مصريون عديدون وكانوا يؤكدون لى دائما أن مصر سوف تهب ذات يوم وتسترد مكانتها وتستعيد حقوقها وسوف يظهر من ابنائها من يحقق هذا الأمل ولمست فى سطور ذلك الكتيب ومن الحقائق التى سردها ومن المشاعر التى فاض بها أنه ربما كانت الساعة قد حانت فى مصر.

وبعد صدور المجلة وبها ما كتبه تلقيت منه خطابا يشكرنى ويطلب تحديد موعد ألتقى به وبعثت اليه ردا وحددت له الموعد.

واستولت على الدهشة حينما دخل على فتى صغير لا يمكن أن يتجاوز عمره الثامنة عشرة، وتأملته لحظات ثم قلت له مبتسمة لماذا أضفت بضع سنوات إلى عمرك وضحك وأكد لى أنه فى الحادية

والعشرين حقا وجلسنا نتبادل الحديث وتضاعفت دهشتى . كان متزنا ناضجا مقنعا يفوق سنه بكثير وانطلق يشرح أهدافه وأمانيه صريحة واضحة مدعمة بحجج واسانيد حاسمة وبدا لى وهو يتكلم بحماس وحرارة أن مصر قد تمثلت فيه وأنها تروى قصتها وتعبر عن آلامها وأحلامها وفى دراما ممكنة ومستحيلة فى نفس الوقت.

وسألته عن الذين يشاطرونه آراءه وأحلامه وعن الذين يعتمد عليهم فى تحقيقها وقال لى إنهم شباب مثله لايملكون سوى ايمانهم وإرادتهم واستعدادهم للتضحية بكل شئ. وسألته عن خططه ومشاريعه وقال لى إنها تتضمن اصدار جريدة لكل الشعب تحمل راية الوطنية وتنشرها للجميع وتبطل دعاوى الاحتلال وتضليله وانشاء مدرسة تعلم الوطنية وتوقظ وعى الأمة وتقاوم مدارس الاحتلال . وقال إن هناك تنظيما سياسيا سريا قائما وسوف يكون نواة لحزب وطنى يقود مسيرة الأمة نحو الحرية وتصورت لبعض الوقت أنه شاب حالم واهم مستغرق فى الخيال ولكن لم ألبث أن وجدت نفسى مصدقة متحمسة لكل ما قاله بل وملتزمة بينى وبين نفسى أن أقف معه لأبعد مدى وكما واصل حديثه بنفس الحماس والحكمة معا كما تضاعف اعجابى وتعاطفى معه .

وقلت له اننى مستعدة لان أفتح لك صفحات مجلتى لتكتب فيها ما

تشاء وتستطيع أن تبدأ بدراسة مفصلة عن المسألة المصرية وسوف تتصدر عدد الشهر القادم من المجلة.

واستغرق حينا وسكت وبدا عليه التردد. ثم قال لى باستحياء إنه لشرف كبير لى أن اكتب فى مجلتك ولكن لابد لى أن أصارحك بأن ما اسعى اليه هو أن تقدمينى إلى احدى الصحف الفرنسية اليومية الكبرى لكى اعرض على صفحاتها قضية بلادى وهى قضية عاجلة متفاقمة ولاتحتمل الانتظار اسابيع ثم كرر ذلك عدة مرات وابتسمت وقلت له إنى ادرك تماما حماسك واندفاعك وسوف افعل ما استطيع وسوف اكتب بنفسى المقال فى المجلة وسوف أجد الك حلا لدى الصحف الفرنسية الكبرى.

وأشرق وجهه وقال بفرح : «لم أشك لحظة يا سيدتى انك سوف تساعديننى» ثم أطرق قليلا وقال: «إن لى أما فى مصر هى كل شئ بالنسبة لى وهى تحبنى وتثق بى واعيش بهذا الحب. وإننى أتمنى أن أصبح ابنا الك فى العلم والمعرفة وأن تكون أمومتك الروحية هى السند الذى ارتكن اليه فى تحقيق حلمنا الوطنى المجيد» .

وبالفعل رسبت فى نفسى مشاعر أمومة حقيقية نحو هذا الشاب الصغير وفاضت نفسى نحوه بحب فاق كل حبى لأبنائى الآخرين وأحسست كأنما بعثت به أمه المصرية وأنها استأمنتنى عليه لكى أقوم برعايته وحمايته مثلها تماما وأخذت على نفسى عهدا بأن أقدمه لكل أصحاب النفوذ والمكانة ممن تعنيهم قضية مصر وأن أعقد له الصلات مع أهم المنابر والصحف والمجلات الفرنسية وكان عند حسن الظن وفاق

كل توقعاتي كان ابنا نموذجيا يستحق الفخر ولم يلبث ان بهر الجميع وكل من يلتقي به » .

وبدأت السيدة جوليت آدم المساعدة بأن هيأت له الدعوة لإلقاء محاضرة في الجمعية الجغرافية الفرنسية وكانت تضم اقطاب الفكر والعلم والسياسة وكانت المرة الأولى التي يحاضر فيها شاب شرقي في العشرين من عمره وألقى محاضرته وعرض قضية مصر قال :

«دخلت بريطانيا بلادنا بدعوى حماية الشرعية وقمع عصيان وتمرد ضدها وضد المصالح الأوروبية بل وضد الحضارة الغربية المسيحية وأكدت بريطانيا أن مهمتها محددة مؤقتة تنتهي تماما بمجرد القضاء على ما سمته الفتنة واعلنت على العالم وعودها بالجلاء وأنها لن تتأخر يوما واحدا ولكنها بقيت ثلاثة عشر عاما أجهضت خلالها كل قدرات مصر ومواهبها وحولتها إلى ولاية هندية تزرع محصولا واحدا هو القطن وتسدد قروضا فاحشة لم تتسلم اكثر من نصفها وتتقاضى نفقات جيش الاحتلال الذى قضى على سيادتها واستقلالها ويحكمها حاكم بريطاني مطلق وجيش من المستشارين البريطانيين كلمتهم هي السائدة.

ونحن لا نطالب سوى بالوفاء بوعدها بالجلاء وبأن تترك لنا الحق فى أن نحكم بأنفسنا كما تكفله الشرائع والقوانين الدولية.

نحن لانطالب بأكثر من استقلالنا وسيادتنا وحكومة وطنية دستورية والاستقلال والدستور هما الهدفان بل الهدف الواحد ذو الوجهين الذى نطالب به.

إن مصر الحرة الدستورية هي أفضل ضمان للمصالح الأوروبية

ومصر المحتلة المستعمرة هي مجرد أداة للمصالح البريطانية والتى تضعها بريطانيا فوق كل مصالح أخرى» .

وبعد أن أجاب بطلاقة على كل الاسئلة التى وجهت اليه انتزع تصفيقا حارا من الأقطاب والشيوخ الأجلاء.

وقرر بإرشاد راعيته وأمه الروحية أن يبدأ الطواف في العواصم الأوروبية .

وبدأ في فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية .

وكتبت الصحيفة الأولى هناك «اكسترابلات»

«يزورنا الآن ضيف كريم هو مصطفى كامل الشاب المصرى الذى اشتهر اسمه في مصر وأوروبا وهو يطوف أوروبا الآن ليشرح قضية بلاده ويطالب بتحريرها من سيطرة الاحتلال ولا يملك من يلتقى مع مصطفى كامل بخلقه الرفيع وشخصيته الجذابة وذكائه النادر إلا أن يثق أن الأمة التى تنجب أمثاله تستحق أن تقف في صف الأمم المتمدينة وألا تكون أبدا تحت سيطرة دولة أجنبية غاشمة» .

وتتالت الدعوات وخاصة من الأحزاب الاشتراكية والراديكالية ، بعث إليه عضو فى البرلمان الايطالى :

«أيها المصرى الرائع ، إنك بما تقوم به فى أوروبا تبعث من جديد اهتمام العالم بحضارة وتاريخ بلادك القديم والحديث وتجدد ذكرى الفراعنة العظام الذين قدموا للبشرية ما لم يقدمه أحد قبلهم أو بعدهم . فلا تحرم ايطاليا من زيارتك لأن الأحرار من كل شعب وجنس . وتأكد أيها الوطنى المناضل أن أبناء ايطاليا الذين تعلموا الوطنية وكافحوا

بزعامة جاريبالدى ومانزينى وكافور على أتم استعداد لمعاونتكم على حل قضية مصر وسوف يتحقق لكم إن لم يكن اليوم فغدا وليس الغد ببعيد».

ك . فورسيلا

فتحت له الأبواب وتسابقت أهم الصحف والمنابر على نشر أحاديثه ودعوته للحديث والمحاضرة .

قال فى روما :

«إننا لا نريد أكثر من أن تكون مصر للمصريين ونرفض تماما أى احتلال أو استغلال أجنبى والذين يشيعون أننا نرفض بريطانيا لأنها دولة مسيحية يفترون علينا . إن الشعب المصرى يمقت المحتل الذى قوض دعائم وطنه واستقلاله وإذا كانت مصر محتلة بأى دولة أخرى من أى دين أو ملة لكان شعور المصريين نفس الشعور لأن ضياع الاستقلال لا يحتمل بأى حال من الأحوال» ..

وقال فى البرلمان الألمانى :

«إن تعاطفنا مع الشعوب الإسلامية أمر طبيعى لا تعصب فيه ولا يوجد مسلم مستنير يظن لحظة واحدة أنه من الممكن جمع الشعوب الاسلامية فى حلف واحد ضد أوروبا المسيحية والذين يقولون ذلك جهلة يريدون إيجاد هوة بين أوروبا والعالم الإسلامى» .

وقال فى بودابست :

«إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ولا شىء آخر . نطلب دستورا ينقذنا من السلطة الأجنبية المطلقة .

والمصريون لا يقبلون مطلقا بنظم هزلية أو سطحية ولا يطمئنون

على أنفسهم وبلادهم إلا إذا قامت حكومة وطنية دستورية كاملة السلطة على مبادىء المدنية العصرية ومستمدة قوتها وشرعيتها من الأمة» .

وقال في رسالة إلى الشعب الأمريكي على صفحات الهيرالد تريبيون :

«إن أم الدساتير والبرلمان ومسقط رأس الديمقراطية كما تدعى تحرم شعبا عريقا ولدت الحضارة الإنسانية على أرضه من ممارسة حقوقه وحرياته البديهية وذلك باسم تأهيله لحكم نفسه .»

ولم يسبق أن واجهت بريطانيا حملة ضارية على سياستها مثل التى شنها مصطفى كامل بطول أوروبا وعرضها ، وأصبح أحد المهام الرئيسية لسفرائها فى مختلف العواصم تعقب نشاطه ومحاولة إحباطه .

ولم يكن يستطيع أن يسافر إلى لندن ولكنه استطاع بنفس الإلهام والإصرار أن يثير عاصفة من علي الشاطيء .

أرسل خطابا إلى المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا الذى تم على يديه الاحتلال والذي اعتزل السياسة ليكتب مذكراته ويراجع «ذنوبه» قال :

«سيدى المحترم

أرجو أن تسمع لأحد أبناء وادى النيل الوطنيين الذين يناضلون لتحرير وطنهم أن يوجه إليكم سؤالا حول مصر والحل الأفضل لقضيتها ولقد أصبحتم من دعاة الجلاء عن بلادنا بعد الاحتلال وجاهرتم مرارا

وبأعلى صوت أنه لا يليق ببريطانيا أن تصر على احتلال مصر إلى أجل غير محدود وأن ذلك يزرى بشرفها أشد الزراية .

وقد سجلنا هذه التصريحات ورددناها ثم حفظناها عن ظهر قلب .

وإذا كنتم لم تستطيعوا الوفاء بهذه الوعود خلال توليكم السلطة لأسباب مازلنا نجهلها إلا أننا لا نزال نعتقد أن رأيكم الآن هو نفس رأيكم بالأمس وأن ليس لمسألة مصر من حل سوى حل واحد وهو الجلاء .

وقد رأيت أنه من المفيد والضرورى أن أتوجه إليكم الآن وفى الوقت الذى تشتد فيه وتتعقد المسألة الشرقية لأسألكم عن حقيقة رأيكم فى حل مشكلة وطننا .

وإذا كنتم من دعاة الجلاء مازلتم وكما نعتقد فهل لكم أن تصرحوا متى يمكن أن يتم هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد .

وأن تصريحا لكم حول مسألة مصر سوف يكون له أعمق الأثر خاصة فى هذه الأيام التى يعتقد فيها أغلب المسلمين أنكم من أكبر أعداء الإسلام ».

المخلص

مصطفى كامل

وكانت المفاجأة التى أثارت عاصفة من الجدل فى بريطانيا وعلى صفحات جرائدها وبين أحزابها وفى مجلس العموم أن بعث جلادستون ردا قال فيه :

« سيدى العزيز

إننى شديد التعاطف مع شعورك نحو بلادك كمواطن مصرى ولكننى مجرد بالمرة من السلطة أما آرائى فإنها لم تتغير قط وهى أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن تحقق فيها وبكل شرف الهدف الذى تدخلنا من أجله . وإننى أعتقد أن زمن الجلاء على ما أعلم قد حل منذ سنين .

وحينما كنت فى منصبى لآخر مرة حاولت إقناع الحكومات الأوروبية الأخرى لمساعدتى فى تسوية المسألة المصرية وجاهرت بتصريحاتى فى مجلس العموم ولم يبق شىء لم أفعله فى هذا الصدد وقد كنت مستعدا للقيام بكل ما استطيع لتحقيق ما أدعو إليه ولكننى تركت المنصب نهائيا ولست الآن سوى مواطن عادى ولهذا يسعدنى أن أبعث لك بكل تحياتى واحترامى ..»

جلادستون

وطرح الخطابان المسألة المصرية وعلى أوسع نطاق بين المحافظين والأحرار ، وفى داخل حزب الأحرار نفسه .. وعقبت جريدة الفيجارو الفرنسية على براعة مصطفى كامل فى استفزاز البريطانيين وإشعال ذلك الحوار الذى أحيا الحقائق المريرة التى نسيت من وقت بعيد .

وعاد مصطفى كامل إلى مصر بعد أن أتم المهمة وكانت أخباره وانجازاته تحتل الصدارة فى الصحف المصرية واستقبل استقبال

الأبطال وتدفقت الجموع خاصة الشباب لاستقباله فى الميناء وتوديعه فى المحطة ثم استقبال شعبى زاخر فى محطة القاهرة .

حقق المهمة على أفضل وجه ونفذ البرنامج الذى اتفق عليه والذى وضعت تفاصيله على القهوة فى باب الخلق وفاقت النتائج كل تقدير .

ولم يكظم البريطانيون غيظهم .

وكتبت اجيبشيان جازيت لسان حال الاحتلال :

«بدأ عباس يقلق من الزعامة التى يسعى إليها مصطفى كامل وإذا ما تعاظمت سوف تكون زعامة شعبية جارفة تغطى على مكانته الملكية وتوقعه فى نفس المأزق الذى وقع فيه أبوه أمام زعامة عرابى ويصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار وكل من عباس ومصطفى كامل من عمر واحد وولدا فى نفس العام ١٨٧٤ وكلاهما يدفعه طموح شخصى بلا حدود وراء عمله الوطنى» .

ويرد مصطفى كامل على الفور :

«إن الإنجليز لكى ينتقموا استكتبوا الجرائد التى تخدمهم أننى أريد أن أصير خديويا ولكن ما تركتهم يتمادون فى طغيانهم بل أصرح أن أول ما أسعى إليه هو استقلال مصر الداخلى وبقاء الحكم فى بيت محمد على وكل تصرف أقوم به واضح يثبت أننى أوفى صديق للخديوى والعرش» .

وانتقل العمل فى المرحلة التالية إلى الداخل .

وبدأ العمل فى الداخل وفق البرنامج الذى اتفق عليه والذى شرحه لجولييت آدم المدرسة ثم الجريدة ثم «الحزب» .

ويبدأ العمل بتحرير عقل ووجدان الجيل الجديد من أسر مدارس الاحتلال قال «حينما يسيطر الاحتلال عندنا على التعليم وبذلك يسيطر على حياتنا الثقافية والروحية وهو يستميت في فرض لغته وبرامجه لكى يقضى على فضائلنا وخصائصنا وهو يريد بذلك أن يحجب علم وحضارة العصر عن المصريين .

وأطلق مصطفى كامل الدعوة لانشاء المدرسة الوطنية الموازية والتى تحرر الأجيال الجديدة والصغيرة .

لابد من انشاء مدارس أهلية خاصة تطبق مناهج صحيحة يتكون بها جيل جديد مقدام من ابناء مخلصين لوطنهم يساهمون فى تحريره وفى الرقى به .

واستجابت الأمة بحماس .

وسارع عدد من الوطنيين الغيورين بالتبرع لإقامة المدرسة التى يبشر بها وقرروا أن يطلق عليها اسمه وأن يتولى بنفسه الاشراف عليها وادارتها و لتكون النموذج .

وكان يقوم بالتدريس للتلاميذ ويصحبهم فى رحلات مدرسية ترفيهية وفى آخر العام كان يقيم احتفالا لتوزيع شهادات النجاح والتفوق وكتب إلى جولييت آدم يزف إليها أنباء نجاحه .

«بدأت الأمة تعلم نفسها بنفسها وقد نجحت دعوة المدارس الأهلية نجاحا باهرا وأنشئت عدة مدارس على غرارها تكفل بها عدد من الأعيان الوطنيين والجمعيات الخيرية ولا شك أن كل مدرسة تقام تضع حجر أساس متينا للمستقبل» .

ودفع نجاح المدرسة الأهلية كما سميت إلى المضى نحو خطوة أبعد والارتقاء بالتعليم العالى وإنشاء الجامعة الأهلية وأطلق الدعوة فى الاحتفال بعيد جلوس الخديوى .

وكان ذلك ميلادا للحركة التى أصبحت طليعة الحركة الوطنية منذ ذلك التاريخ وهى الحركة الطلابية .

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٩ كتب إلى أمه الروحية (عزمت على اصدار الجريدة اليومية الكبرى التى طالما حلمت بها ويسعدنى أن تكونى أول من أخبره بذلك وأطمع أن يزين العدد الأول مقال لك وأن تطلبى إلى أحبابك ومريديك أن يشاركوا بل وأن يعتبروا الجريدة لسان حالهم كما أرجو أن اتلقى دائما آراءك ونصائحك) .

وفى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ صدر العدد الأول من «اللواء» وهو الاسم الذى اختاره وبعث بالعدد إلى جولييت آدم وبخطاب قال فيه :

«كل أملى أن تصبح اللواء الجريدة الأولى فى الشرق وأن تكون محور التفاهم بين الحركة الوطنية وأوروبا» .

ونجحت اللواء نجاحا باهرا وفاقت كل الصحف القائمة وأصبحت جريدة كل المصريين ينتظرها القراء صفوفا أمام الدار ، وتنفد نسخها بمجرد صدورها . ويحفظ المصريون افتتاحياتها ويستظهرونها عن ظهر قلب .

كتب :

«نحن ضد الاحتلال الانجليزى أما ما يختص بالأمة الانجليزية فلا نستطيع إلا احترامها كما نحترم كل الأمم الأخرى إذ إنه لا يصح بغض أى أمة وكره أى شعب .

وإننا نبرأ من أى تعصب دينى أو قومى ونحن لسنا ضد الشعب الانجليزى الذى تحتل حكومته بلادنا وندرك تماما الفرق بين الدوائر الاستعمارية الانجليزية وبين الأمة الانجليزية التى يجب أن تكسبها الحركة الوطنية المصرية إلى جنبها فى السعى لجلاء جيش الاحتلال » .

***

وكتب :

« كيف يستطيع أى وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء الطائفى؟ هذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة والأقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق والمسلمون والاقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد .

ومن يبيتون العداوات والانقسامات الدينية لا يريدون إلا الخراب والدمار» .

***

وكتب :

« إننا لم نيأس ولن نيأس أبدا من مستقبل بلادنا إننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة الأمم الطاغية .

ونعرف أن حظ انجلترا منها سيكون كحظ الدول التى سبقتها .

وإن الدعوى الباطلة بأن المصريين يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد هى دعوى لا يقبلها ولا يسلم بها أحد من العقلاء .

إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة» .

***

وكتب :

«إن حركة الجامعة الاسلامية بمعنى الحرب الدينية لا وجود لها بالمرة ولا يوجد مسلم متنور يدعو إلى تأليف عصبة اسلامية ضد المسيحية ولقد أدرك المسلمون من زمن بعيد استحالة الحياة فى معزل عن العالم وإن ميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى» .

***

وكتب :

«إن الانشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون صباح مساء هى الاستقلال والدستور وإذا ما تمسكت الأمة ودعت وطالبت وجاهدت بقوة

الرأى والفكر والثبات التى هى أكبر القوى الفعالة فإنما تخطو أكبر خطوة فى الطريق .

والدستور يعنى سلطة الأمة التى تعلو فوق كل السلطات . الدستور يعنى منح الأمة حق الاشراف على كل الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لغيرها وسؤال الوزارات عن كل صغيرة وكبيرة وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة البلاد . الدستور هو أن لا يستطيع أحد مهما كان عظيما وطنيا كان أو أجنبيا أن يمس القوانين بشىء» .

***

وكتب :

«إننا أول شعب شرقى صافح أوروبا وإننا مستمرون على السير إلى الطريق الذى سلكناه وإننا نؤمن بالتعليم والتقدم والفكر الحر الراقى .

إننا نعمل لكى نعرف شعبنا بحقوقه وواجباته ومكانه اللائق به فى العالم وإن مستقبل بلادنا لا يقوم إلا بالاعتماد على الأمة وأن يعرف الفلاح والعامل والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم حقوقه وواجباته وأن يحميها ويتمسك بها» .

***

وكتب إلى جوليت آدم واثقا :

«أصبحت اللواء أهم جريدة فى مصر وسوف تصبح أهم جريدة فى الشرق» .

وقد كان أن صادرتها حكومة الهند البريطانية ومنعت دخولها المستعمرات الاسلامية ثم صادرتها حكومة فرنسا «الصديقة» ومنعت دخولها شمال إفريقيا .

وأعلن فخامة اللورد أن اللواء تشعل الحريق .

ووصف مصطفى كامل وأتباعه بأنهم فئة غوغائية صاخبة ذات دوافع مريبة ومثيرة للشكوك ولا يمثلون أحدا سوى أنفسهم وكل آرائهم ومقولاتهم مرفوضة لا تجد آذانا صاغية من أحد، وقد انتهيت إلى هذه الحقيقة بخبرتى الدقيقة بهذا البلد وأهله . جيل من الشباب يطمع فى الوظائف والمناصب الكبيرة التى يحتلها الأوروبيون الآن وإننى بقدر عطفى على الشعب المصرى وحبى له حبا حقيقيا بقدر ما أنا على يقين أن هذا الشباب بتطلعاته المتعجلة لا يدرك مصلحة بلاده .

وبدأ العمل من أجل الهدف الكبير وانطلقت الدعوة لبناء الحزب .

وكان ذلك أشد ما يقلق اللورد ويقض مضجعه ، وكان واثقا لا يداخله شك أنه لن تقوم فى مصر حركة وطنية بعد أن حسم مسار تاريخها وصححه .. وحينما وقع المحظور اختلطت عليه الحقائق وتعثر فى تفسيرها وكتب إلى لندن :

«لم أفاجأ بأن تنفجر حركة الوطنية وأن تتصاعد على هذا النحو وأن يستطيع شباب صغير أن يلهب حماس الرأى العام وأن يشعل الحريق فى مصر ؛ وذلك أنه يجعلهم يعيشون فى سلسلة من الأوهام والمطالب الخيالية وآخرها والذى يسميه الطلب العاجل هو بناء حزب

وقيام نظام برلماني كامل وإذا كنت لا أعرف حتى الآن ما هو هذا الحزب الوطني المزعوم أو برامجه ولكن على قدر ما توافر لي من معلومات فإنه يطالب بنظام برلماني كامل على نسق النظام البريطاني ولم أتأكد بعد هل يريدون برلمانا ذا مجلس واحد أو مجلسين ولكن ما يعلنونه هو برلمان كامل وحكومة مسئولة مسئولية كاملة ولها السيادة التامة على ما لكل الحكومات والبرلمانات الأوروبية .

ولم أتأكد إذا ما كانوا يريدون أن تمتد سلطة التشريع على كل من يقيم في مصر دون أي تفرقة أو تمييز أم يقتصر على المصريين .

ولا أشك لحظة أن مثل هذا النظام لو قام فإنه لن يؤدي إلا للفوضى الشاملة ولا أظن أن هناك عاقلاً يمكن أن يتصور بأي حال من الأحوال أن شعبا رزح قرونا طويلة تحت أشد أنواع الحكومات والنظم قهرا وذلا وفسادا وقاسى على أيدي حكام طغاة وسفاحين من الفراعنة حتى الباشوات المعاصرين وأن شعبا ٩٠٪ من رجاله و١٠٠٪ من نسائه أميون لا يقرأون و لا يكتبون يمكن أن ينتفض فجأة ويتمخض عن مواهب وقدرات تؤهله لأن يحكم نفسه بنفسه وأن تقوم به حكومة مسئولة أمام برلمان كامل السلطات . إن مثل هذا المشروع لا يعدو أن يكون إلا هزلا وعبثا بل إنه وهم مستحيل ولا يمكن أن يتحقق في الحاضر أو المستقبل أو في أي وقت من الأوقات .

لا يمكن أن أسمح لنفسي بأن أشارك في هذه المهزلة وأن أضع يدي في يد من يدعون إليها ، وإن ذلك ظلم صارخ ليس فقط للمصالح الأوروبية ولكن لمصالح عشرة أو إثني عشر مليونا في مصر أفنيت

أجمل سنوات حياتي من أجل خلاصهم وانتشالهم والارتقاء بهم ماديا ومعنويا .

وعبأ فخامته الإعلام البريطانى لمقاومة المشروع وكتبت صحيفة التايمس العتيدة .

لا نظن أن هناك شعبا من الشعوب لايصلح إطلاقا ويستحيل عليه أن يستوعب أو يطبق النظم الحزبية البرلمانية مثل مصر والمصريين .

ودعوى الحزب الوطنى المزعوم وأنه يمثل الأمانى الحقيقية والرغبات المشروعة لأغلبية الشعب المصرى هى مجرد أكذوبة يرفضها المصريون الحقيقيون الذين يمثلون أمتهم تمثيلا صحيحا والذين يحتجون أشد الاحتجاج على تعاطف البعض فى بريطانيا مع زعماء وقادة هذا الحزب والبرامج التى يتشددون بها ويؤكدون أن هذا الحزب سوف يؤدى بمصر إلى العنف والفوضى وقد أخذ بالفعل يثير قلق وفزع الأوروبيين ومنهم من بدأ يهاجر من الداخل إلى القاهرة !!

وأكدت (إن الحزب الوطنى المزعوم يدعو إلى الجامعة الإسلامية والولاء المطلق للسلطان ولابد لنا من أشد اليقظة والحذر وألا نسمح لأى تعاطف مع الأمانى الوطنية المشروعة أن يخلط بين الأمور وأى منزلق إلى تأييد حركات شديدة التخلف ولا تستحق أى عطف .. إن الجامعة الإسلامية تتخفى تحت عباءة وطنية والاثنان مندمجان بحيث يصعب تمييز أحدهما عن الآخر) .

والجامعة الإسلامية فى جوهرها تعنى العنصرية والتعصب والرجوع فى القرن العشرين إلى رذائل انقرضت ولا تسود إلا فى مجتمعات فطرية متخلفة تطبق الرق والإباحية وتعدد الزوجات والعقوبات الوحشية مثل قطع الأيدى والأرجل والرجم بالحجارة وهذه هى الرذائل التى أقعدت الحكومات الإسلامية عن اللحاق بالحضارة .

وردت اللواء :

«سوف يقوم عندنا حزب وطنى يتصدره رجال درسوا وتعلموا فى مصر وأوروبا وأحاطوا بمطامع وأسرار السياسة الأوروبية وأيقنوا أن أوروبا لن تقوم بتحرير وطنهم وأن لا أمل في الخلاص الا بالاعتماد على أنفسهم وعلى شعبهم ولذلك سوف يقوم حزب وطنى طال الوقت أو قصر وسوف يكون القوة الفعالة المؤثرة . إن مصر هى حلقة الاتصال بين أوروبا وآسيا وأفريقيا وهى بفضل موقعها هذا وبفضل تراثها الحضارى هى قلب العالم الشرقى والإسلامى ولهذا سوف يمتد تأثير الحزب بطول هذا العالم وعرضه» .

وألقى الزعيم خطابا قال فيه :

«سوف نبنى حزبا وطنيا يرد لكل فرد حقوقه فى وطنه وسوف يرشد كل مواطن ، الفلاح والعامل والتاجر والمثقف .. كل فرد من أفراد الأمة إلى أن للانسان حقوقا مقدسة لايمكن المساس بها وأن الانسان خلق ليعيش حياة كريمة إنسانية وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به النفس البشرية وأن أمة ضاع استقلالها لا وزن لها أو قيمة ومن العار

ألا تبذل كل جهدها وطاقتها لاسترداده . سوف نبنى حزبا وطنيا يحقق كل هذه الأمانى» .

واهتدى فخامة اللورد إلى الحل بعد بحث وتدقيق واكتشف أن هناك إلى جانب هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم قادة ويلبسون مسوح الوطنية وكأنما يحتكرونها نخبة ممتازة ذات مكانة وسطوة ومواهب ويتكاثر عددهم يوما بعد يوم وإن لم تكن لديهم القدرة على الصخب والضجيج الذى يثيره ويجيده الحزب الوطنى المزعوم وهؤلاء حزب يتكون من تلاميذ ومريدى الشيخ محمد عبده .

«وقد أشرت فى تقارير سابقة إلى أفكارهم وأفكار الأستاذ وهى تماثل ما دعا اليه السيد أحمد خان فى الهند ويدور فكر هؤلاء حول إصلاح النظم الإسلامية بغير زعزعة الأسس والأعمدة التى يقوم عليها الدين وبذلك يصبح هؤلاء هم الوطنيين الحقيقيين بمعنى أنهم يدعون لمصالح بلادهم والمسلمين عامة ولكن بغير أن يوصموا بمقولات الجامعة الإسلامية وبرامجها بل على العكس يدعون للتعاون واقتباس المدنية العريقة والأمل الوحيد فى قيام وطنية مصرية حقيقية يعتمد فى رأيى على هؤلاء وعلينا أن نقدم لهم المساعدة والمساندة التى يستحقونها والتى لم يتلقوها من قبل لأسباب عديدة» .

وبالنسبة للبرلمان وجد فخامته البديل الأفضل :

«أمعنت التفكير طويلا وانتهيت إلى أن حق المواطنة فى مصر لابد وأن يمثل كل السكان والمقيمين بلا تفرقة أو تمييز فى الدين أو الأصل

ولهذا فإن المجلس التشريعى الأفضل فى مصر هو المجلس الدولى الذى يمثل كل المقيمين على أرض مصر وكل من يقطنون وادى النيل مهما تكن جنسيتهم ولا شك فى أن مثل هذا المجلس يحقق التناسق والتوافق بين الجميع ويحقق الخطوة الأولى لخلق روح وطنية سليمة لا تلحق أى ضرر بمصالح البلاد» .

وأعلن فخامة اللورد التعبئة بين رجاله وانتدب الرجل الثانى المستر فندلى لكى يعد لبناء حزب يضع الإمام فلسفته ويترجمها المستر فندلى إلى برنامج وتجتمع حوله النخبة العاقلة الحكيمة فى مواجهة المتطرفين. واتفق على أن يكون اسمه «حزب الأمة» .

ورد مصطفى كامل :

«إن الحزب الوطنى قائم بالفعل .. وأول برامجه وأسمى غاياته هى استقلال مصر ورد حقوقها إليها .. إن الحزب الوطنى موجود فعلا ومنذ سنوات وهو إن لم يظهر بشكل نظامى ولائحة وطنية ولجنة ادارية فقد ظهر بأعمال اتفق عليها كل أعضائه وهى خدمة البلاد بكل قوة ومقاومة الاحتلال فى مصر وأوروبا .

إنه حزب وطنى حر شريف متحد الأعضاء ناهض بالأمة إلى مرامى النجاح والفلاح» .

الفصل الحادى عشر

على الجبهة الداخلية

اجتمع الإمام والمستر فندلى ومحام شاب كان من مريدى مصطفى كامل المتحمسين ثم استقطبه الإمام خلال دورة صيفية فى جامعة سويسرية حضرها الاثنان .. وعكفا على «ابداع» فلسفة الحزب «الوفائى» ، وتبلورت فى النهاية إلى أن :

«إن سياستنا مع الانجليز لا تخلو من أحد وضعين إما سياسة عناد وعداء وإما سياسة مسالمة واستسلام ولاشك أن سياسة المعاندة عقيمة إذ كيف يقبل المعاند من معانده حسابا على أعماله بل كيف يرجو العدو من عدوه اصلاحا .

ولهذا لا يبقى الا سياسة المسالمة والمحاسنة مقرونة بالمحاسبة وأول مظاهر المحاسبة هو المجاملة .

وإن الوقت لم يحن بعد لمناقشة مسألة الاحتلال لأن الاستقلال لا ينال إلا بالتدرج لأن الطفرة محال وعوامل التشبث بها خطرة وإن استقلال الأمم ليس بضاعة حاضرة ولكن نتيجة ضرورية لعمل طويل متعب والثمرة الناضجة لكفاءات مختلفة وما أشد طيش الأحلام التى تملأ آذاننا بالطنين

والدعوة أن نلم شعثنا وندعم جامعتنا ونتحد فى وضع صيغة أطماعنا ثم نأخذ قواعد المدنية الحديثة ثم نشهر استقلالنا كل ذلك فى جيل واحد .

إذا أردنا الاستقلال حقا فإن علينا أن نتبع كل الوسائل الشريفة من كتابة ومشافهة وإيفاد وفود وتفهيم وتفاهم واقناع وكل طريق يوصلنا إلى مقاصدنا بطرق سلمية مرتبة ومسألة حصول مصر على استقلالها مسألة مصرية خالصة وما أطيش الذين يظنون أنها تتحقق بالاستعانة بمجلس نواب فرنسا أو التوكل على بعض رجال البرلمان الانجليزى وأفلح بهم الاعتماد على نفس الأمة وشخصيتها .

والأمة لا تتكون من الأفراد بل من العائلات . ورؤساء الأمة الطبيعيون هم رؤساء العائلات والمقصود بالعائلات العصبية وكل جمعية اتخذت من أفرادها دائرة المشابهة وضاقت الفروق هى عائلة ذات عصبة وتضامن وعلى هذه العائلات الكبرى التى هى الأمة تبنى العصبة العامة أى سلطة الأمة .

والأمة بزعاماتها لا بعوامها وإن العامة فى كل مكان يتبعون هؤلاء الزعماء لا تختلف فى ذلك حكومة من حكومات أوروبا الديموقراطية ملوكية كانت أو جمهورية وطبقة العامة فى كل أمة لا تعنى كثيرا بالمسائل السياسية لانشغالها بأعمالها المعاشية فلا ينتظر من عامة الأمة أن تعرف وتهتم بدستورها وعلينا ألا نهتم بنشر مبادئنا بين العامة لأننا نرمى إلى اكتساب المفكرين والمهذبين ولأننا لسنا حزب جمهور العامة .

ولهذا يقف الحزب بالأمة موقفا وسطا لا يميل بها ذات اليمين أو ذات الشمال .

وتتجاذب الأمة سلطتان سلطة الانجليز المحتلين وبيدهم القوة الفعلية وسلطة الخديوى فى الجانب الآخر مستظلا باسم السلطان العثمانى خليفة المسلمين ونقف منهما موقفا وسطا ، فإن الحزب يضم رؤساء العائلات فى هذا الشعب ونوابه وبمعنى أدق يتألف الحزب من سراة البلاد وأعيانها وطائفة غير قليلة من مفكريها وكتابها الأذكياء. ورقى الأمة يعتمد على أيدى هؤلاء ومصلحة الأمة تعنى مصلحتهم سواء كانت متعلقة برى الأطيان أو ترتيب العمد والمشايخ أو سلامة حقوق الانتخاب من العبث .

إن شعار الحزب هو الاعتدال والتدرج والسعى فى التوسع فى اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وذلك حتى نصل بالتدرج إلى المجلس النيابى الذى يوافق حالتنا السياسية وحتى يحين الوقت المناسب لمناقشة قضية الاحتلال .

إن حزبا يضم اعضاء متشابهى المقاصد متحدى المراكز الاجتماعية وأغلبه رؤساء العائلات إنما يضم الممثلين الحقيقيين للأمة المصرية .

وبالطبع تكون له وحده شرعية الحديث باسمها وعن حقوقها .

وبقى الاحتكام إلى الشعب !!

وقد تصاعدت الصراعات والمتناقضات نحو ذروتها فى سنة ١٩٠٦ ، وبدأت منذ بداية العام .

شهدت البلاد الحدث الأول من نوعه .. أضربت مدرسة الحقوق العليا احتجاجا على نظم ولوائح جديدة وضعها المستشار «دنلوب» لقمع الطلاب الذين كان يتربص بهم منذ البداية، وأعلن الطلاب أن القصد منها اهانتهم ، وقرروا الامتناع عن الدراسة وأذاعوا بيانا على كل زملائهم فى المدارس العليا .

وجاءت الاستجابة على الفور انضمت كل المدارس العليا ، ولم تلبث المدارس الثانوية أن أعلنت انضمامها ثم كانت المفاجأة أن انضمت المدارس الابتدائية .. وتحول إلى اضراب عام ، وأعلن استاذ فرنسى فى المدرسة أن المستشار يريد ان يعامل رجالا يعتمد عليهم المستقبل معاملة تلاميذ صغار .

وساند الرأى العام الطلبة ، وبارك الآباء ، مبادرة الأبناء .. وأيدت الصحف الوطنية على أوسع نطاق .

وبهت المستشار ، وكل أجهزة الاحتلال .. كان شيئا لم يسبق .. وبدا أنه منظم تنظيما محكما ومعد إعدادا دقيقا ..

ولم تلبث المظاهرات أن خرجت تخترق شوارع القاهرة ، تحمل شعارا واحدا وتهتف هتافا واحدا : سقوط المستشار .. ثم سقوط الاحتلال واتجهت الجموع إلى الميدان السياسى فى حديقة الازبكية وتوالت النداءات والخطب والهتافات .

وبدا أن حقد المستشار على مدرسة الحقوق التى انجبت مصطفى كامل ورفاقه فأصبحت هدفا رئيسيا .

وتحول الاضراب إلى قضية الساعة وقضية البلاد عامة وأعلن المستشار أن من لن يعود سوف يفصل، واعلن الطلاب تمسكهم بمطالبهم، وادركت سلطات الاحتلال أن الموقف خطير وتدخل المستشار القضائى البريطانى وأمكن الوصول إلى تسوية قبلها الطلاب والمستشار «مرعما».

كان أول استعراض قوة منظم قدمته الطليعة الجديدة .

وتعزز مركز الشباب وتوطد، وارتفعت مكانتهم بافتتاح نادى المدارس العليا فى الشهر التالى . وقام النادى ليكون مركز اشعاع وتنوير تلتقى فيه الطليعة بالاساتذة والقادة، وتلقى فيه المحاضرات وتقام الندوات وتنضج القيادات التى تحتاجها الحركة الوطنية.

وحقق نادى المدارس العليا كل ما قام لأجله وأصبح قلب العاصمة الفكرى والثقافى وألقيت فيه المحاضرات حول أهم قضايا الوطن والقيت فيه المحاضرات عن مدارس الشعب وهى مدارس بدأ الحزب الوطنى فى انشائها فى الأحياء الشعبية لمكافحة الأمية ونشر الوعى الوطنى وألقيت المحاضرات عن نقابات العمال وكانت قد تكونت ومارست دورها بل وعرفت البلاد أول اضرابات من أجل حقوق طبقة مسلوبة كل الحقوق وهدفت المحاضرات لترشيد النقابات وتدعيمها ونقل خبرة النقابات الأوروبية وألقيت أولى المحاضرات عن التعاون الزراعى وأنه طريق الخلاص الوحيد للفلاح وللارتقاء بالزراعة وتحرير الأرض من ربقة «الاقطاعين» والأجانب.

وكانت مدارس الشعب ونقابات العمال والجمعيات التعاونية.. وبالطبع الحركة الطلابية هي الأعمدة التي يعتمد عليها الحزب وأن تكون مؤسساته الرئيسية .. أن تتحول الطاقة إلى قوى منظمة فاعلة.

وقبل أن ينتصف العام انفجرت اعنف أزمة سياسية بين الدولتين العظميين «الحليفتين» بريطانيا والدولة العثمانية ووصلت إلى حافة الحرب ، وكان ميدانها مصر .

وكان جلالة السلطان عبدالحميد مؤمنا بأن السكة الحديد والتلغراف هما أقوى دعائم الحكم وحرص على أن يربط الامبراطورية ربطا وثيقا بشبكة منهما ، وفي ذلك العام بدأ مشروعا يمتد إلى المدينة المنورة وفاجأ البريطانيين باحتلال مدينة كابا في سيناء لتكون محطة رئيسية للخط الجديد .

وانتفضت بريطانيا لأن ذلك في رأيها كان اعتداء على أرض مصرية «مستقلة» ورد السلطان بأن مصر ولاية عثمانية وفق الفرمانات والاتفاقات الدولية ولاحق لبريطانيا في التدخل في الشئون الداخلية .. وتفاقم النزاع ووصل ذروته ولجأت بريطانيا إلى السلاح الحاسم وهو الأسطول وكان كافيا أن تصل إحدى بوارجه إلى مياه الدردنيل ليعود كل شئ إلى ما كان عليه .

ولم يكن الاحتلال العثماني مفاجأة البريطانيين ولكن الصدمة الأليمة كان موقف الأمة المصرية من الحادث ، فقد انحازت بأغلبيتها الساحقة إلى «دار الخلافة» وتسابقت الهيئات والجمعيات الخاصة والعامة إلى

التعبير عن التأييد كما لم يسبق من قبل ، وانهالت الصحف الوطنية بالتشهير والنقد والسخرية، وطالبت بريطانيا مادامت حريصة على السيادة المصرية أن تبدأ بنفسها وتقوم بالجلاء الذى بح صوت المصريين بالمناداة به .

وفجع فخامة اللورد وكان قد أقنع نفسه وأقنع رؤسائه فى لندن أن النخبة والصفوة وأغلب العقلاء تقف مع بريطانيا المتمدينة ضد اسطنبول الغارقة فى التخلف والاستبداد .

ولم يجد ما يفسر به الموقف ويبرره سوى الصيغة التقليدية التى ألصقها بالمصريين وأنهم شعب جاحد لا يعترف بالجميل .. وأن هذه أولى خواصه .

وضاعف من الوطأة سر كشفت عنه الوقائع .

حمل جناب الأمير حسين كامل لجناب الخديوى رسالة من جلالة الملك والامبراطور ادوارد السابع إلى الجناب الخديوى تقول : كنت أثق تماما أن الخديوى صديق لنا وكنت أتعاطف كثيرا معه ضد كرومر وأناصره ضده ولكننى صدمت حينما اطلعت على رسائل متبادلة بينه وبين السلطان خلال الأزمة وكانت معادية لنا على طول الخط ، وأنه كان وراء إثارة الرأى العام فى مصر .

(وقد حصلت أجهزة مخابراتنا فى اسطنبول على صور هذه الرسائل وأكدت صحتها وحصلت عليها أجهزة مخابراتنا فى مصر

أيضا ولا أظن أنى سوف اغفر ذلك للخديوى أبدا ، بعد أن وقفنا على حافة الحرب مع تركيا).

ولم يجد فخامة اللورد ما يردع به الشعب المصرى سوى طلب مضاعفة قوات الاحتلال ووافقته لندن على الفور وكان ذلك يعنى بالطبع مضاعفة ما تدفعه الحكومة المصرية للقوات ورسبت المرارة عميقة.

ولم يكد ينتصف العام حتى وقعت المأساة التى أصبحت تاريخا فاصلا بين ما قبلها وبعدها .

رأى فخامة اللورد أن تنزع البلاد دوريات بريطانية تذكر الناس بالوجود البريطانى .

وحدث أن قرر بعض ضباط القوات المعسكرة فى مديرية المنوفية أن يمارسوا رياضة صيد الحمام فى قرية دنشواى التى اشتهرت بابراج الحمام وخلال الصيد انطلقت رصاصة أصابت فلاحة إصابة بدا أنها مميتة ، وانطلقت رصاصة أخرى واصابت جرنا كبيرا للقمح واشعلت فيه النار .

وهرع الفلاحون لإنقاذ المرأة وإطفاء الحريق ، ومنع الضباط من مواصلة «الرياضة» واشتبك الطرفان ، وحاول بعض أعيان القرية فض الاشتباك ، ووجد الضباط الفرصة سانحة ، وفروا عائدين إلى المعسكر.

ولما كان الوقت صيفا وشديد الحرارة، وكان المعسكر يبعد كيلومترين سقط أحدهم من الإعياء ، حينما وصل إلى المعسكر كان قد اسلم الروح ، نتيجة ضربة الشمس ، كما أقر الطبيب البريطانى .

وأعلن أن الفلاحين المصريين اعتدوا على دورية بريطانية كانت تقوم بمهمتها وقتلوا أحد الضباط ..

وحينما أذنت الشمس بالمغيب كتب روائى بريطانى - معاد للاستعمار - رواية ترثى المجد الزائل .

وتفجرت براكين الغضب وتقرر تطبيق القاعدة الذهبية وهى سحق الخطر فى المهد قبل أن يستفحل واستئصاله من جذوره حتى لا يتكرر.

جاء فى أحد فصولها وفى الاجتماع الأولى لفخامة الحاكم العام مع حكام الأقاليم ألقى بيانه الأول وأسلوبه فى العمل. إذا ما تفاقمت الأمور وخفت أن يفلت الموقف .. فلا تتردد .. افتعل حادثا مروعا يخلع قلوبهم ويجمد الدم فى عروقهم .. اشعل حريقا يلتهم الأخضر واليابس ويتركهم جياعا عرايا . دبر مجاعة تحصد أرواحهم بالآلاف والملايين أشعل مذبحة كبرى تسيل فيها دماؤهم انهارا .. انشر وباء يهلك القرى والمدن ولا يترك لهم وقتا لدفن موتاهم).

أقدم ولا تتردد حتى لا تصبح الضحية وتذكر ولا تنس أن كل شئ مشروع لتحافظ على قدس الأقداس مجد امبراطوريتنا .

واستلهاما لهذه المبادئ أعلنت حالة الطوارئ القصوى فى مديرية المنوفية وتحولت إلى ساحة حرب.

وألقى القبض على مائة وخمسين من أهل القرية شيوخا وشبابا رجالا ونساء .

وتقرر أن تعقد محكمة خاصة على أعلى مستوى يرأسها وزير الحقانية وأن تتم المحاكمة فى عاصمة المديرية فى شبين الكوم ، وأن تنفذ الاحكام فى موقع الحادث ويشهده الفلاحون من كل قرى المديرية .

وتألفت المحكمة برئاسة وزير الخارجية بطرس باشا غالى لغياب وزير الحقانية فى الخارج وعضوية أحمد بك فتحى زغلول رئيس ادارة المحاكم الأهلية وثلاث قضاة انجليز وفى سابقة كانت الأولى من نوعها انتدبت الحكومة أحد أشهر المحامين إبراهيم بك الهلباوى لتمثيل الادعاء.

وانتدبت محاميا - نكرة - محمد بك يوسف ليمثل الدفاع .

أعلن وزير الخارجية البريطانى أن بريطانيا تحرص على أن تكفل محاكمة علنية نزيهة للمتهمين .

وسافرت هيئة المحكمة إلى شبين الكوم فى مظاهرة عسكرية كبرى اخترقت ارجاء المديرية يحيط بها جنود الفرسان البريطانيين وجنود الخيالة المصريين.

وفى اليوم التالى سافرت قافلة فى مظاهرة عسكرية مماثلة ، تنقل الجلادين وأدوات الشنق والجلد وقوة من رجال المطافئ والبوليس الأشداء .

وعقدت المحكمة جلسة واحدة وصدرت بعدها الأحكام بالاعدام والسجن المؤبد والجلد .

حكم بالاعدام على أربعة من المتهمين .

وبالاشغال الشاقة المؤبدة على ثلاثة .

والاشغال الشاقة ١٥ عاما على واحد

والأشغال الشاقة سبع سنوات على ستة متهمين .

والحبس لمدة عام على خمسة آخرين .

والجلد خمسين جلدة على الجميع .

وتقرر تنفيذ الحكم فى ساحة القرية ، وحشدت الجموع وبدأ التنفيذ وسط ولولة النساء وصياح الرجال، والأهالى عامة.. وأشرف على التنفيذ مستشار الداخلية المستر ميشيل ونائب القائد العام للقوات البريطانية ومعهم مدير المديرية .

وكان يوما رهيبا فى تاريخ البلاد، لم تشهد له مثيلا كتب قاسم أمين:

«رأيت كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى والأصوات .. كان الحزن على جميع الوجوه حزن ساكت مستسلم للقوة مختلط بشئ من الدهشة والذهول .. ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات منقطعة وهيئة يائسة منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ولكن هذا الاتجاه فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز واضحا حتى يراه كل إنسان .

وكان مصطفى كامل - عند وقوع الحادثة - يستشفى فى أوروبا بعد أن ثقلت عليه وطأة المرض ، وهب من سريره وكتب بيانا إلى الشعب البريطانى بعث به إلى جريدة الفيجارو الفرنسية التى نشرته ، وتلقفته عنها الصحف الأوروبية .. بل والصحف البريطانية أيضا .. وأثار موجة عارمة من التنديد .. والاشمئزاز .

وقد شهد عام ١٩٠٦ فى بريطانيا تحولا كان أهم التحولات فى حياتها السياسية قررت نقابات العمال التى تعاظم نفوذها ألا تكتفى بالمطالبة بحقوقهم بل أن تزحف نحو السلطة وتنشئ حزب العمال وتستولى على السلطة ، وتحقق حلم العمال فى النظام البديل «الاشتراكى» وتقرر أن يقوم حزب العمال الجديد على ثلاثة أعمدة رئيسية هى النقابات ثم الجمعيات التعاونية ثم الجمعية الفابية نسبة إلى القائد الرومانى فابيوس الذى كان يؤمن بالتسلل والغزو من الداخل وقد ضمت نخبة من ألمع المفكرين والكتاب والعلماء أخذوا على عاتقهم فضح الامبراطورية وكشف كل سوءاتها وجرائمها ضد الشعب البريطانى قبل شعوب الامبراطورية .

وما أن وصلت أنباء المذبحة فى مصر حتى انتفض كثير من نواب العمال والأحرار والايرلنديون فى داخل مجلس العموم وخارجه ونددوا بالجريمة التى ارتكبت فى مصر .. قال النائب روبرتسون .

هذه وحشية همجية بربرية تجاوزت كل الحدود ويندى لها الجبين خجلا . وسارع ويلفريد سكاون بليت بإصدار كتيب بعنوان فظائع

البريطانيين فى مصر أعلن فيه أن دنشواى هى استمرار لمذبحة الاسكندرية ومجزرة التل الكبير .

وانهال برناردشو بالسخرية اللاذعة خاصة على كرومر وتصريحاته والتى قال فيها .

«جرت محكمة المتهمين بكل عدالة ونزاهة وفى محكمة يتكلم كل اعضائها اللغة العربية وكانت الأحكام على صرامتها عادلة ولا مناص منها ولا أرى أن هناك ما يدعو للوم حول طريقة تنفيذها» .

وكان أشد سخرية بتصريح رئيس الوزراء الذى قال:

«إن روح التعصب فى مصر تجاوزت كل الحدود بل وامتدت إلى ما جاورها فى بلاد شمال أفريقيا وقد انتهت إلى الاعتداء على حياة الضباط الإنجليز وهو ما لم يحدث من قبل وما لا يمكن السكوت عليه بأى حال . وإذا ما تفاقمت روح التعصب فإننا لن نتردد فى اتخاذ اجراءات أشد» .

وأعلن مصطفى كامل عزمه على السفر إلى لندن . وكشف حقيقة ما حدث والاحتكام إلى الرأى العام البريطانى مباشرة وانهالت عليه برقيات الترحيب وكتب إلى جولييت آدم .

«أسافر غدا إلى لندن بدعوة من الأحرار والعمال والراديكاليين الذين طلبوا لقائى وكم أنا سعيد لأن أحارب كرومر فى عقر داره » .

واستولى مصطفى كامل على خيال البريطانيين تماما كما فعل مع الأوروبيين وتتالت الدعوات للمحاضرة والإدلاء بالأحاديث وتنوير لجان مجلس العموم . وكتب إلى جولييت آدم .

«خلف الحادث أثرا عميقا هنا ، وقد تعرفت إلى كثير من أعضاء مجلس العموم بل ومجلس اللوردات وطلبت إلى صحف كثيرة أن أدلى بأحاديث بل وأن أزودها من مصر بمقالات ووجدت الجميع متلهفين على معرفة حقيقة ما يدور فى مصر .

ورحبت به كل الجمعيات الايرلندية والهندية - والمنظمات الإسلامية وشاركت كلها فى إقامة حفلة كبرى تكريما له ألقى فيها خطابا فضح فيه سياسة الاحتلال وقوض الأسطورة التي نسجها كرومر .

وأقام مأدبة كبرى ردا على الحفاوة التى قوبل بها وكتب وهو يفيض سعادة إلى جولييت آدم .

أقمت المأدبة السياسية الكبرى التي حدثتك عنها وقد تم كل شيء على ما يرام وحضر حشد من أعضاء البرلمان ورددت على كل ما وجهوه من أسئلة واستفسارات وطلب الجميع أن أظل على صلة بهم وأن أزودهم بانتظام بالحقائق والمعلومات الصحيحة عن مصر . وإننى فى غاية السعادة وإننى استطعت أن أفند أكاذيب كرومر هنا في بريطانيا .

وعاد مصطفى كامل من رحلته البريطانية مظفرا واستقبل استقبال الأبطال مرة أخرى وتميزت هذه المرة باشتراك جموع من الفلاحين، والذين خلعوا عليه لقب «الباشا بتاعنا» وهو اللقب الذى لم ينعم به على أحد من قبل سوى عرابي باشا .

وسقطت تهمة (حزب الأفندية) كما قال كرومر وأصبح الحزب لوطني حزب كل الشعب في المدن والقرى .

وتحقق أن ساعة بناء الحزب قد دقت وأن يكون الحصن والسد المنيع الذى تحتمى به الأمة .

يروى محمد فريد :

«توسط الدكتور صادق رمضان (طبيب الخديوى) واجتمعنا أنا ومصطفى والخديوى ولطيف باشا سليم وناقشنا إعلان الحزب ، ثم تعددت الاجتماعات في مسجد التترى خلف سراى القبة واتفقنا على أنه لابد من قيام الحزب . اختلفنا هل يكون سريا أو علنيا ، وكان رأى الخديوى أن يكون سريا وأن تختار لجنته الإدارية من اعضاء نادى المدارس العليا وكان رأى مصطفى كامل أن يكون علنيا وتتم كل الاجراءات علنا وانتهينا إلى هذا الرأى وتم الاتفاق على أن يصدر الحزب جريدتين إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية لمواصلة العمل في الخارج والداخل وأن تتألف شركة لهذا السبب.

ووعد الخديوى بأنه سوف يطلب إلى عدد من الأمراء والوجهاء التبرع لهذا الهدف ، وأوفى بوعده وتبرعوا بسخاء . وعاد الصفاء والإخاء وتجددت رفقة السلاح والكفاح . وضاعف المستر فندلى من جهوده لكى يسبق ويقطع الطريق على «المتطرفين» ويقيم الجدار المتين الذى يحمى ما حققه «النظام» وكان على الطرف الآخر أن يأخذ عدته أيضا ، وتكاملت رؤيتان متضادتان . إحداهما رؤية الإمام وتلاميذه ومريديه، ورؤية مصطفى كامل ومحمد فريد والخديوى عباس وتضم «الأمة» الشرعية!

الفصل الثانى عشر

الحزب .. قام

كتب مصطفى كامل إلى حاميته وأمه الروحية يهنئها بالعام الجديد ١٩٠٧ ويقول «سوف يكون أهم عام فى حياتى» وكأنما كان يقرأ الغيب.

أثمرت النواة التى بذرت فى انقلاب إبريل ١٨٧٩ ثم فى اجتماع حلوان في نوفمبر من العام نفسه. والتى ظلت حية مضطرمة تحت التراب. وتحقق الحلم الوطنى الذى ظل كامنا، وبعثت الحزبية والنظام الحزبى الذى تقوم عليه الديمقراطية فى العالم «المتمدن» .

شهد العام قيام ثلاثة أحزاب «رئيسية» بدأ منها التطور الذى ساد ويسود حياة مصر حتى اليوم.

بدأ العام بالسباق بين الحزبين «تحت التأسيس» الأمة والوطنى، وخرجت «الجريدة» صحيفة حزب الأمة ولسان حاله فى فبراير مؤذنة ببدء المواجهة.

ولم يكن صدورها فى أنسب الأوقات ولم تقابل بأى حماس، لم يكن الرأى العام - بعد دنشواى - مهيئا لتقبل دعوى المحاسبة والمسالمة مع الاحتلال ، ولم يكن ليصدق أن الحكمة والموعظة الحسنة سوف تقنعه يوما بأن وقت الجلاء قد حان.

وكان الأب الروحى وهو الإمام قد انتقل إلى جوار ربه قبل عامين سنة ١٩٠٥ ، وانتقلت مهام التفكير والتنظيم إلى المستر فندلى،

والمحامي الشاب «الفيلسوف» أحمد لطفي السيد وكان الأب الفعلي .. والمؤسس، فخامة اللورد يعاني آثار الحملة التي شنها مصطفى كامل في لندن، والتي زعزعت هيبته وسطوته في الداخل والخارج .

ولعل «الجريدة» كانت تتوقع ذلك واتخذت لها شعارا مقولة من ابن حزم الأندلسي تقول «من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمته في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه».

ولم تعرف جريدة الأهرام يومئذ بوطنيتها ولكنها هزأت بدعاوى «الجريدة» وأن البلاد لم تتأهل بعد لكي تحكم نفسها وإن الاصلاح إنما يكون ويظل في الإطار.. الإداري فقط !.

وفي الشهر التالي - مارس - صدرت جريدتا الحزب الوطني الجديدتان وتكاملت الجرائد الثلاث اللواء وليتندارد الفرنسية والستاندارد الإنجليزية.

«وكان نجاح الجريدتين الجديدتين عظيماً جدا وفوق ما كنت آمله وأرجو أن توالي الكتابة وأن تحثي أصدقائك وأبنائك على المشاركة» كما كتب إلى جوليت آدم.

وقد أدرك مصطفى كامل بعد رحلته «الباهرة» إلى بريطانيا الحاجة الملحة إلى منبر وطني باللغة الإنجليزية يرد على الصحف الاستعمارية، ويمد المتعاطفين من الأحرار والعمال.. بالحقائق ويقاوم «سموم» الإجيبشيان جازيت لسان حال الاحتلال في مصر ، والتي لم تكن تستنكف عن شيء في الافتراء والهجوم.

وأدرك أيضا ، بعد توقيع الاتفاق الودى «الخسيس» والذى تقايضت به فرنسا وبريطانيا مصر والمغرب وتغير مواقف صحف فرنسية كثيرة وكبيرة أن لابد من منبر وطنى بالفرنسية يشرح ويؤكد شرعية المطالب الوطنية.

وفى الاحتفال الذى أقامه لصدور الجريدتين قال مصطفى كامل:[لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال مصر ولم يتنبه لشئونها بمثل تطلعه وتنبهه هذه الأيام . وقد أسسنا هاتين الجريدتين لنحيط الذين يهتمون بشئون مصر علما بمبادئنا وأهدافنا، وأن كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها وأن تسترد حقوقها ومكانتها التى تليق بتاريخها ومركزها، اننا الوارثون لحضارتين عظيمتين الفرعونية والعربية ومن حقنا وواجبنا أن نحتل مكاننا بين الأمم المتمدينة».]

[لابد لنا أن نفحم ونخرس «عصابة الكتاب الأوربيين فى هذه الديار – وخارجها – والتى تحمل علينا حملات شعواء وتوجه إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدينين، وترمينا بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا مجرمين» !]

ولم تلبث البلاد أن فوجئت وفوجىء العالم «بالزلزال» وأعلن أن فخامة اللورد كرومر قدم طلبا إلى حكومته بالاستعفاء لأسباب صحية وأرعدت السماء وأبرقت ومادت الأرض تحت الأقدام، وانشقت الجبال طولا وعرضا.

ولم يخالج أحد الشك أن «دنشواى» والحملة الوطنية الضارية فى مصر ولندن كانت وراء الحدث .

وكشفت الصحف الأوروبية والبريطانية أن «البطاركة الكبار» في لندن أدركوا أن عصره قد انتهى، وأن لا مناص أن يذهب لكي تبقى الامبراطورية !!.

ونزلت الصاعقة على «الجريدة» وعلى مشروع الحزب.

وضاعف الوطأة تعيين الدون جورست المستشار المالي خلفا لفخامة اللورد ، ثم إعلان التغيير «الجذري» في السياسة البريطانية نحو مصر تحت اسم «الوفاق بدلا من الشقاق».

وكان يعني انقلابا على السياسة الكرومرية، والتصالح مع الخديوي، وفصم «الحلف» بينه وبين الحزب الوطني ، واجتذابه إلى صف الاحتلال، وقد حققت بريطانيا هدفها الكبير، بالوقيعة بين توفيق وعرابي ولابد وأن تبعث هذه السياسة مرة أخرى .

وكان ذلك لطمة ان لم يكن خيانة للطبقة التي نظمت نفسها وأعدت صفوفها لتكون قاعدة السلطة » .

وجاءت الضربة القاصمة في خطاب الوداع الذي ألقاه فخامة اللورد.

وقد ثار جدل حاد حول الاحتفال بتوديع فخامته سواء في الصحف أو في الرأي العام، ودعا البعض أن تقام صلوات الشكر على الخلاص، وانتهى الرأي إلى احتفال رسمي في دار الأوبرا .. يرأسه مدير شركة قنال السويس ويقتصر على الصفوة «الرسمية» من المصريين والأجانب.

وخطب رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى وقال:

«إن عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها فى مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل، ولا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم عن شدة تعلقنا بكم ولنقول أننا لا نزال نعتبركم كواحد منا» .

ولم يكن فخامة اللورد عند حسن ظن ربيبه وأشد الناس ألما لرحيله ولم يستطع أن يكظم الضغينة والمرارة وجاء فى خطاب الرد : «إن الاحتلال باق إلى ما شاء الله وقد أعلنت ذلك رسميا حكومة جلالة الملك، وطالما كان الاحتلال باقيا فإن الحكومة البريطانية تظل مسئولة عن سياسة وإدارة مصر لا تفصيلا ولكن اجمالا ولا ينبغى أن يكون لدى أحد أقل شك فى هذه الحقيقة الثابتة».

وقال أيضا :

«إن هذه الحركة الكاذبة المفتعلة للمطالبة بمجالس نيابية على الفور ينبغى أن لا تعامل إلا بما تستحق، وإذا سألتمونى أيها السادة ماذا تستحق قلت لكم أنها لا تستحق شيئا وهى لا تعبر فى الحقيقة عن رأى المستنيرين من أهل مصر سواء المصريين أو الأوروبيين» .

ووجه فخامته رسالة خاصة إلى «الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين تتوقف عليهم ثروة البلاد، والذين أعد نفسى صديقهم الحقيقى أحذرهم من أن يخدعوا أو يضللوا بأقوال الذين يدعون كذبا

بأنهم ينوبون عنهم أو يمـثلونهم بلا توكـيل والذين يطالبـون بمطالب سيـاسية لو أجيبت لعادت بالضرر على مصـالح الناس عمومـا وعلى مصالح أفقر الناس خصوصا».

وقال أيضا:

«يقول كثيرون أن المصريين بوجه الاجمـال لا يعترفون بالجمـيل وبالفوائد والمنافع التى عادت عليهم ولكن فيلسوفا فرنسيا قال إذا قاسى شـعب آلام الظلم والقـهـر طويلا لم تبق له طاقــة على شكر الذين يخلصونه.

ولا يمكن أن أصدق أن المصريين أو أفضلهم على أى حال ينكرون أن المدنيـة الأوروبية التى أدخلتها بريطانيـا وطبقـتـهـا خـلال الخـمس والعشـرين سنة الماضـية هى التى انتشلتـهم من بالوعة اليـأس التى ألقاهم فيها سوء الحظ.

وإذا كان أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة فإنى لا أزال أؤمل مع ذلك أن الجيل القـادم سـوف يعتـرف ، ومن المعروف أن أولاد العميان يكونون من المبصرين» .

وفيما عدا غلاة الموالين والأتباع استفز خطاب اللورد الأغلبية، وكان فى مقـدمتهم رئيس تحرير الجريدة الذى كتب ردا لاذعا على الخطاب أثار الدهشة إذ لم يختلف كثيرا عن رد صحيفة اللواء.

«قوض فخامة اللورد قبل أن يرحل كل فلسفة ومناهج الحزب الذى قام بوحى منه وليكون «أهم ما سوف أخلفه بعدى» كما قال ذات يوم.

وما جدوى المحاسنة والمسائلة أو حتى المحاسبة إذا ما ظل الاحتلال باقيا إلى ما شاء الله ومسئولا عن سياسة مصر وإدارتها.

وإلى أين يمضى التدرج والتطور إذا كانت المجالس النيابية الصحيحة محرمة على المصريين حتى لا يقع «الجواد غير المدرب» وتتكسر عظامه كما ضرب المثل .

وماذا يفيد أن تدور مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين فى حلقات مفرغة وكيف تنمو الوطنية «المصرية» إذا كان أقصى ما تستحقه مصر مجلس تشريعى مختلط يضم الأجانب أصحاب الامتيازات والمصريين «الأهالى» على نسق مستعمرات التاج» .

ورحل اللورد. وكان رحيله نهايته وخروجه من الساحة التصق اسمه بإحدى «فظائع القرن» كما قال برناردشو. وقطع ذلك الطريق عليه لكى يحتل منصبا أخر ، ولن يتطلع أو يحلم بأن ينتهى إلى المنصب الذى تتجه إليه أنظار كل حكام الإمبراطورية البارزين، وهو نائب الملك فى الهند، وقد سبقه اليه دوفرين وكان لا شك يطمع أن يخلفه، وقد بدأ حياته سكرتيرا لنائب الملك، وإذا ما جلس على «العرش» سوف يكون اسطورة تخلد فى تراث الإمبراطورية.

انتهى اللورد إلى مستودع المتقاعدين فى مجلس اللوردات، وانكب على كتابة كتابه عن «مصر» حشده بكل الخرافات والأوهام التى اخترعها وعاش بها !؟ .

ولم يكن رجال الحزب ليستطيعوا بأى حال أن يتراجعوا أو يعدلوا .
ولهذا أعلن قيام الحزب فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ .. وباسم «حزب الامة» ، وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ أعلن حسن باشا عبدالرازق قيام حزب الأمة.

«أنشىء حزب الأمة بتشجيع من الإنجليز وتأييد عن اللورد كرومر وكان أهم الأحزاب التى ظهرت بتشجيع منهم لمواجهة التيار الوطنى الجارف.

[وقد مثل حزب الأمة تيار الاعتدال فى السياسة المصرية وقدم بديلا للتيار الذى مثله الحزب الوطنى، وأكد على الوسائل دون الغايات وغلبت نزعته التعليمية والفكرية على النزعة السياسية.. ولهذا لم يكن له ثقل سياسى كبير ولم يكن يتمتع سوى بتأييد شعبى محدود، ولم تكن الجريدة فى مثل انتشار اللواء، وكان الحزب مرتبطاً بعدد محدود من الأعيان وكبار الملاك مما أدى به إلى طريق مسدود من حيث ثقله السياسى بين الجماهير] .

ولم ترحب جريدة الأهرام أو تحتفى بالحزب الجديد ونددت بما جاء فى برنامج الحزب ، من عدم نيل المطالبة بالاستقلال لأن الأمة لم تؤهل لذلك. والعمل بترقية الأمة حتى تصبح أهلا للاستقلال وانكار طلب المجلس النيابى اكتفاء بالتوسع فى الشورى ومجالس المديريات .

ووصفت الأهرام برنامج الحزب قائلة :

«إن برنامج حزب الأمة هو برنامج جمعية أدبية وليس برنامج حزب سياسى».

وكان الأمر مختلفا حين تقرر إعلان الحزب الوطنى، فى الإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر فى مسرح زيزينيا.

استعدت البلاد كلها للحدث التاريخى، وتدفقت الوفود من كل أنحاء القطر إلى المدينة وشهدت أكبر اجتماع سياسى عرفته مصر.

احتشد الآلاف داخل المسرح وخارجه ولم يبق موضع لقدم، باشوات وبكوات وقورون محترمون ، ومشايخ أجلاء بعمائم بيضاء، وعمد وأعيان وتجار بقفاطين مختلفة الألوان ثم محيط بلا حدود من الطرابيش الحمراء، من شبان ملتهبى الحماس متقدى الذكاء يمثلون مصر التى تفتحت فيها الزهور، كان منظرا رائعا لم يسبق له مثيل وحين حضر الزعيم «وسيما أنيقا » دوى التصفيق كالرعد وتصاعدت الهتافات «يحيا مصطفى كامل يحيا الحزب الوطنى يحيا خدام الوطن» وذلك كما كتبت الريفورم الفرنسية ، وألقى مصطفى كامل خطابا صاغ كل ما نادى به ودعا اليه، وقدم ميثاقا للوطنية المصرية ودليل عمل لكل وطنى مخلص .

قال :

«يظن الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على قضية مصر طويت أوراقها ومات كل أمل وصار الشعب المصرى أثرا مثل تلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها كل عام، ولكنهم أخطأوا خطأً كبيرا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدة أرشدتنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها . وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها. وأن الشعب كالفرد لا يكون أمنا على

نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع عن الشرف والمال والحياة. وان مصر بالغة أمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وحدها.

وقال :

«يرمينا الطاعنون أننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عثمانية أى أننا نريد أن نغير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم النيابى.

وهذه التهمة مسبة للمدنية وقضاء على الأمة المصرية وأنها لا ترقى ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محتل واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع فى تقدمها وارتقائها.

إننا نطلب الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها وأننا إذا أخلصنا الود لأمة فاننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة، وها هى انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العثمانية وتغير سياستها نحوها فمن الذى يلوم المصريين على أن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا.

وقال :

أشاعوا أيضا أن الحزب الوطنى آلة فى يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لاحداث فتنة فى البلاد الشرقية الإسلامية التابعة لهما وما قصدوا بذلك إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا. وإننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء وأنه

يطلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدا على الوصول إلى الغاية . وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من انتقادنا السياسة الألمانية نحو المسلمين عامة .

وقال :

يزعمون أننا نخلط الإسلام بالوطنية ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب إدخال الدين في التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم، ولكن كيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما متمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهم بينما نتهم نحن بالتعصب ، ولماذا يكون الإنجليزى وطنيا بروتستانتيا ولا يكون المصرى وطنيا مسلما .

ونحن حين نرشد أمتنا إلى الحقيقة الدينية فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين وساد الجهل والانحطاط وكل الآفات، ولا سبيل لابادة جيش الباطل الذى تألف وانتظم باسم الدين إلا بالدين نفسه . وإن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب المؤدية للتسامح والتقرب من الشعوب إذ لا تعصب مع العلم ولا نفور مع النور والرشاد، ومن منفعة الجميع أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول الجهالات والخرافات بينهم.

وقال :

«يتهموننا بالتطرف ويقسمون الأمة فرقاً وأقساما، ولكن عليهم أن يعلموا أنه لا يصح أن يوجد في البلاد المحتلة سوى حزب واحد هو

حزب الحرية والاستقلال، وسياسة واحدة هي المطالبة بالاستقلال لا كما يطلب السائل الإحسان ولكن كما يطلب صاحب الحق حقه المغتصب.

لقد حاربوا الحركة الوطنية بدنشواى فخابوا ، وبمضاعفة جيش الاحتلال فأخفقوا وبتهمة التعصب الديني ففشلوا، وأضحكوا العالم طرا، وها هم يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا بالأمر للدخلاء فلم يبلغوا منا مأربا.

وقال :

«إننا نطلب المجلس النيابي مقرونا بطلب الاستقلال. مجلس نيابي حقيقي لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد في العيون، لقد زعمت بريطانيا عندما احتلت هذا البلد أنها تريد تأهيل المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم.. وكان ذلك مغالطة ومنافقة ، ولن يرضى المصريون أو يطمئنوا إلا إذا عادت الحكومة الوطنية بسلطتها وسطوتها وهيبتها وكانت حكومة دستورية خاضعة لمبادىء التمدن الحديث مستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره».

واستمعت مصر للخطاب وتجاوب صداه في الخارج، ونشرت الصحف الأوربية مقتطفات طويلة منه، خاصة الفرنسية والبريطانية وقالت الصحيفة البريطانية «الديلي نيوز» إن مصطفى كامل هو زعيم الاصلاح الحقيقي في العالم الإسلامي عامة .

وعكس الطالب عبدالرحمن الرافعي بمدرسة الحقوق العليا رأى الشباب حين أعلن أنه أعظم خطاب في تاريخ الشرق على مر العصور.

وكما لم يتوقع أحد، أبدت صحيفة الأهرام تعاطفا واضحا مع الحزب الوطني، وقالت : «إن الخطاب أدى إلى انتهاء الموقف الذى تمسك به مصريون عديدون من ابداء مخاوفهم من الحزبية، ومن المنتظر أن ينضم لهذا الحزب كثيرون جدا، ان مصطفى كامل لا يعرف اليأس ولن يدب لقلبه أبداً».

ووصفت مصطفى كامل «خطيب مقتنع يوحد منظره القلوب وموضوعه الأول والأخير مصر والوطنية وهو حسن الهندام ممشوق القوام طلق اللسان والوطن حديثه وهو حديث محبب من كل إنسان ولذلك لم يملك خصومه إلا التصفيق مرارا مع المصفقين».

وفى ٢٧ ديسمبر عقدت الجمعية العامة للحزب «الأعضاء المؤسسون» أول اجتماع لها بدار «جريدة اللواء» .

وتمثلت فيه الأمة بكل طبقاتها وفئاتها سراة وأعياناً ومزارعين وتجار ومحامين وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناعاً .

وألقى مصطفى كامل بيانا قال فيه :

«إننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل نحن قبل كل شيء حزب حياة للأمة ونرمى قبل كل شيء إلى أن يكون المصرى إنسانا بأسمى معانى الكلمة وأقصد بالمصرى ليس فقط الذى نراه فى المدن يجد ويعمل ، بل

أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع له، وأسمى عمل نقوم به هو انهاض ذلك الفلاح وإعلاء مكانته فهو ممثل للنشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم ولنعمل لعصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته».

وعرض برنامج العمل الذى انتهى إليه البحث ويتضمن :

١ - منح مصر استقلالها الداخلى طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والفرمانات العثمانية.

٢ - إقامة حكومة دستورية يكون فيها الحكام مسئولين أمام برلمان منتخب.

٣ - احترام المعاهدات والاتفاقات المالية التى تتعهد فيها الحكومة المصرية بدفع ديونها.

٤ - نشر التعليم فى أنحاء البلاد ونشر المبادىء الدينية وحث الأغنياء على تأسيس الجامعات وارسال البعثات إلى أوروبا وإنشاء المدارس الليلية للعمال.

٥ - تنمية الزراعة والصناعة والتجارة وجميع مرافق الحياة الاجتماعية فى سبيل حصول البلاد على استقلالها الاقتصادى.

٦ - تقارب عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين والوحدة المتينة بينهما.

٧ – تحسين الأحوال الصحية لازدياد النسل القوى.

٨ – تقوية روابط حسن التفاهم بين المصريين والأجانب المقيمين فى وادى النيل.

٩ – تقوية العلاقات الودية بين تركيا ومصر من جهة وبين مصر والدول الأوربية من جهة أخرى.

وتم اقرار النظام العام للحزب ، وأن تجتمع الجمعية العمومية مرة كل سنة فى ديسمبر باسم «المؤتمر الوطنى» لبحث قضايا البلاد الأساسية، كما تقرر أن تؤلف اللجنة الإدارية «المركزية» من ثلاثين عضوا وتنتخب كل ثلاث سنوات وتجتمع مرة كل شهر وتنتخب وكيلين للحزب وأميناً للصندوق، وتقرر أن ينشأ نادٍ عام للحزب ثم فروع فى الأقاليم.

وانتخب مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة، وانتخب محمد بك فريد وأحمد باشا فائق وكيلين للحزب وفؤاد باشا سليم سكرتيرا عاما ، وعمر بك سلطان أمينا للصندوق.

وكان أول عمل «جماهيرى» قام به الحزب بعد اكتمال تأسيسه هو حملة عرائض شعبية تطالب بالافراج عن مسجونى دنشواى وتكللت بالنجاح وصدر الأمر بالافراج فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ عيد ميلاد الخديوى .

وفى ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٧ أعلن عن قيام الحزب الثالث باسم حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية، وكان المؤسس هو الشيخ على يوسف

صاحب جريدة المؤيد وأحد أشهر شخصيات العصر الصحفية والسياسية والمثيرة .

وأعلن الحزب مبادئه وبرنامجه ويقوم على تأييد السلطة الخديوية فيما منحته الفرمانات لاستقلال مصر الإداري، والاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ومطالبتها بتحقيقها الوفاء بها، ثم المطالبة بمجلس نيابى مصرى يمثل السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية، وفوق كل ذلك تأييد جلالة السلطان العثمانى ودولة الخلافة.

وكان الشيخ قد فرض نفسه علي الساحة العامة عن طريق جريدته وأصبح مؤسسة قائمة بذاتها ثم رأى أن لا يسبقه الزمن بعدما انتقلت البلاد من عصر الصحف إلى عصر الأحزاب أن يكون حزبا.

وكان الشيخ كما وصفه جورست «رجل ذو مبادىء متحركة» وقد أيد وصادق وعارض وهاجم كل الأطراف ، واحتفظ بنفوذه لدى الجميع ! .

وقد تعرف عليه الخديوى خلال اكتشافه لبلده وشعبه بعد عودته واستطاع بجانبيته ان يصبح من جلسائه وخلصائه .

كان مصطفى كامل الشباب والكلية والمستقبل وكان الشيخ يتمتع بالنفوذ لدى اصحاب النفوذ . كما قال .

ووجد الخديوى فى حزب الاصلاح الاداة السياسية التى يحتاجها فى ممارسة اللعبة السياسية المزدوجة التى أصبح عليه أن يجيدها فى ظل تغير السياسة البريطانية نحوه .

وقد وجد فيها انتصارا له واعترافا بفشل وعقم سياسة كرومر نحوه، ولكنه كان يدرك ايضا ما وراءها ، وأن هدفها أن ينشق عن الصف الوطني وأن يعيد سيرة أبيه ، وهو ما لم يكن ليقبله ، وقد ظل بقلبه وروحه مع مصطفى كامل منذ انطلقت الشرارة التي جمعت بينهما في أول لقاء ..

وكما كتب في مذكراته :

« ان مهمة الحكم ليست دائما بالسهلة وفي الوقت الذي يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه يجد نفسه مضطرا للاذعان لحق الدولة ، ولقد كان مصطفى كامل حرا وكنت أمنحه تأييدي المطلق ، كان يقول بدلا مني ما يجب قوله وما لم يكن في الوسع قوله باسمي » .

وأصبح حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ناديا وربما مطبخاً سياسياً للعبة الخديوية المزدوجة ، ولم يحفل به الرأى العام وأفل نجمه بعد فشل سياسة الوفاق واندثر بعد موت مؤسسه .

ومهما يكن الأمر فقد قامت التعددية الحزبية المصرية سلبا وايجابا، وظل الحزب الوطني عمودها الفقري .. ورسخت في تاريخ مصر الحديث.

الرحيل

شاءت إرادة الله أن يختار الى جواره مصطفى كامل ، وهو فى أوج شبابه ومجده ، لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وبدا كما لو كان الله قد استرد وديعته بعد أن أتم رسالته ، وآمن بها قومه وشعبه .

وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل ويا لها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعي ونحن فى مدرسة الحقوق فقابلناه بالذهول والوجوم وفاضت دموعنا حزنا وأسى على الفقيد . الذى كان لنا إماما وطنيا وأبا روحيا وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر فكان له فى كل نفس مناحة وفى كل قلب مأتم كما قال طالب الحقوق عبد الرحمن الرافعى .

وخرجت مصر لتشيع جنازته اكبر جنازة فى تاريخ مصر حتى ذلك الحين كتب قاسم أمين :

«١١ فبراير يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر - هذا الاحساس الجديد،

هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة من دمها وأعصابها هو الامل الذى يبتسم فى وجوهنا اليائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة هو المستقبل» .

وكتب رئيس تحرير الجريدة احمد لطفى السيد :

«ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ووسيلته الوطنية وغرضه الوطنية وكلماته الوطنية وكتابته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى، واذا ذكرت مصطفى كامل بخير فانما تطرى الوطنية واذا قلت الوطنية فإن أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل كأنما هو والوطنية شيء واحد .

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم نعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد على رأى واحد بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه .

كل هذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية بل هو أعلى من ذلك هو التضامن القومى والجامعة الوطنية .

إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية ولقد دعوت فى اليوم التالى على وفاته على صفحات الجريدة الى اقامة تمثال له ، يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله وتخليدا لذكره واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها وتجسيدا لهذه الروح الطاهرة .

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات وفتحنا الاكتتاب على صفحات الجريدة وتكفلنا بالقيام بهذا العمل ولو أننا لم نكن من حزبه السياسى لأن مصطفى كان مصريا لجميع المصريين .

وكتب مرة أخرى :

«قابلت قاسم أمين بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل فقال : «ما أنت وهذه الحركة القائمة » قلت على ما قرأت قال : «انهم يقولون أنك بالغت فى وصف الروح الوطنية وانك تعلق عليها آمالا، وقد لا تكون صادقة قلت والله ما اخترعت ولا بالغت فيما كتبت، ولكنى رأيت رأى العين شعور التضامن يتجلى أمامى على رؤوس الناس فى الشوارع والطرقات فما فعلت شيئا اكثر من انى ارسلت الالفاظ لتلبس هذا المعنى الطاهر وسطرتها على صفحات الجريدة وها أنت تقول انى بالغت مع القائلين

فانبرى يقول :

انى اتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحالة الشريفة ولو كنت أخفف عليك فى الحكم لقلت انك فى نظرى أميل الى التقصير فى هذا الموضوع منك إلى الغلو والإغراق، إن هذا الشعور الوطنى الشريف هذا المولود الحديث الولادة الذى خرج من دم الأمة واعصابها هذا هو الرجاء فى المستقبل هذا هو الذى يجب عليكم جميعا ان تباركوا عليه وتتعهدوه حتى يصير شابا .. هنالك تنالون الاستقلال .

وكتبت جريدة الجورنال الفرنسية :

انتقلت مصر بفضل هذا الشاب الملهم الذى استجاب لطاقات الوطنية الكامنة فى احشاء الشعب ، وكان التجسيد الحى لها ان مصر قد انتقلت على يديه الى عصر جديد عصر مواصلة النضال التاريخى الذى يمارسه الشعب على مر العصور ضد كل الغزاة وكل الطغاة .

وكان سعد زغلول وزير المعارف فى جولة فى مدارس الريف وفاجأه النبأ وكتب :

«أعارنى وكيل البوستة بعض الجرائد وقرأتها فى الطريق الى مصر ورأيتها تبكى بكاء مرا على وفاة مصطفى كامل حتى المؤيد حتى الجريدة حتى الوطن، وماوصلت مصر حتى علمت فوق ما قرأت لا حديث للناس إلا هذه الوفاة وما أصاب الناس من الفزع الاكبر من هولها . وكان التفاف الناس حوله وبكاء الكثير منهم عليه علامة على تنبيه الشعور الوطنى ودليلا على نمو الاحساس فى الناس، وذهبوا الى انه أوجد هذا الشعور ونماه . واختتمت الجريدة وهى من الجرائد المخالفة له والتى كان بينها وبين جرائده خلافات شديدة اكتتابا لرفع تمثال له تذكارا لشأنه واكتتب الكثير منه اول مرة بمبلغ أزيد من خمسمائة جنيه وقد سار تلامذة جميع المدارس الثانوية والعالية والخصوصية فى الجنازة، كل مدرسة وراء علم مخصوص مجلل بالسواء ومكتوب عليه اسمها وساروا سكوتا كأنما على رؤوسهم الطير وعلت أصوات الكثير بالبكاء والنحيب، وأقام الكثير من النوادى

والجمعيات والمساجد فى مصر والأرياف صلوات على روحه وتواردت الرسائل البريدية والبرقية ، على الجرائد المعادية له تنعيه وتصف حزن الناس عليه ، وكثير من الأفراد أقاموا مآتم فى بيوتهم واستقبلوا المعزين فيها ولبس بعض السيدات علامات الحداد عليه ولم يشذ عن ذلك تلميذات المدارس النسائية . وتوقفت معلمات المدرسة السنية عن مشاهدة الألعاب السحرية فى اليوم التالى لتشييع الجنازة لأن الحزن أثر فى نفوسهن تأثيرا افقدها الرغبة فى مشاهدة هذه الألعاب .

وبالجملة فانك لا تجلس فى مجلس ولا تجتمع مع صاحب ولا تأوى الى بيت ولا تطالع جريدة ولا تسير فى الأسواق ولا تركب الترام إلا وتسمع أو تقرأ شيئا عن مصطفى كامل . ويخيل لك أن كل ما أنت فيه شعور بهذا الرجل وحزن عليه وقد حضر الى قاسم أمين فى اليوم الرابع من الوفاة وكان أول ما بدأنا به .

ماذا نقول فى وفاة مصطفى كامل ان اهتمام الناس به لدليل على تنبه عام وحياة فى الناس جديدة وهذه قيمة تستحق الاعجاب ، وقال انه معجب ايضا بلطفى بك السيد الذى اقترح اقامة التمثال ولم يقض عذره الآن شك فى حياة الأمة ونهضتها .

واستغربت أشد الاستغراب وذكرته بآرائه السابقة فقال كذلك ولكن النتيجة التى ترتبت عليه تستحق الاعجاب وقلت ان هذا الشعور عظيم ولكن لم أفهم أن يكون لطفى هو أول مقترح لهذا التذكار فقال : انه خيرا فعل وان وجود مثل هذا الأمر يقوى هذا الشعور ويزيده .. ان مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية فى مصر .

وكان المرض قد بدأ ينتقل على مصطفى كامل ببداية عام ١٩٠٦ واشار عليه الاطباء بالراحة وكان يستشفى فى النمسا حينما فوجىء بدنشواى ، ولم يملك سوى ان يهب ويقيم الدنيا ويقعدها فى أوربا ثم فى بريطانيا نفسها ، وكانت المهمة مضنية ، ولكن نشوة النجاح والانتصارات التى حققها كانت تمنحه قوة وحيوية . تخفف من وطأة المرض وتخفيه .

ولم يلبث ان انهمك فى اصدار الجريدتين ثم فى الاعداد لاعلان الحزب ، واحتاج ذلك الى جهد فوق الطاقة يقوم به .. كانت «روحه» المشتعلة هى التى تلهم الجميع .

واشتد المرض عليه بعد اعلان الحزب وكتب الى جولييت آدم :

«انى مريض جدا منذ السابع والعشرين من نوفمبر . وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى وان نجاحى السياسى ونجاح القضية المقدسة التى أناضل عنها يفوقان كل ما تصورته . أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء والاطباء مطمئنون الآن، ولكن انتكست بعد الخطبة والسبب يرجع الى مفاجأة أليمة . فقد فوجئت بوفاة أحد أقرب الناس وأحبهم اليّ وهو لطيف سليم باشا الذى توفى فى اليوم التالى للاجتماع » .

واعتكف مصطفى كامل وطلب الأطباء أن يخلد تماما إلى الراحة ولا يشغل نفسه بأى جهد ، ولكن لم يستطع الا أن يعد ردا من سرير المرض على السير ادوار جراى حينما اعلن فى مجلس العموم ان مصر لم تؤهل بعد ولا يمكن أن تحمل مسئولية حياة نيابية كاملة .

وكانت آخر ما قدمه :

كتب أخوه على فهمى كامل الى جولييت آدم عن اللحظات الأخيرة :

«صعدت الى غرفته ووجدته معافى وسألته كيف قضى ليلته وكان جوابه مرضيا ، غير أنى لاحظت اثناء الحديث أن لونه أخذ يتغير وعينه تحدق فىّ وملئت رعبا وسألته مما يتألم ورد بهذه الكلمة :

«تشجع واستمر فى عملك بحكمة وترو ليسهل علينا بلوغ الأمل » .

وصمت .. وكانت النهاية وفقدت صوابى .. ولم أملك حياتى لأنى فوق الأخوة كنت أجد فيه كل شيء» .

وكان قد أعلن فى اجتماع الجمعية العمومية أنه يشعر أنه لن يعيش طويلا ، وأنه يتمنى أن يمن الله علينا بخمس سنوات أخرى ليتحقق كل آماله وأحلامه .

رحل مصطفى كامل بعد ما ألقى خطبة الوداع ، وودعه الى مقره الاخير ربع مليون مصرى ساروا وراء نعشه وهم يبكون »! .

كتب الخديوى عباس :

«مصطفى كامل هو الذى بعث الروح الوطنية فى شباب مصر وهو الذى ايقظ الروح المصرية من غفوتها» .

كان بسيطا مستقيما ولطيفا ، ولكن يضطرم بروح منفتحة لكل المشاعر وقلب رقيق حساس يفيض انسانية وحنانا ، ووهبه الله مع ذلك الحكمة . ومنحه موهبة الاقناع وسحر الاشعاع الذى يؤتيه الله الحواريين والرسل والأنبياء . وقد فتنت به الجماهير ولا يسعنى سوى

أن أحنى رأسى الى ذكرى مصرى وطنى عشت معه أجمل الايام والساعات فى حياتى .

ورغم انه كان يضايقنى فى بعض الامور الا اننا كنا متفقين دائما وتماما فى الهدف وإن لم يكن فى الوسائل .. ولكن كان سوء التفاهم معه يزول سريعا بفضل الصدق والولاء الذى تفيض به أقواله وأفعاله . إن فضل مصطفى كامل العظيم انه حدد المثل الاعلى للأمة ودفع الجماهير وشجعها للمضى نحو ذلك المثل الأعلى .

وقد مات الزعيم الشاب للاستقلال المصرى دون ان يحقق أحلامه وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة ولكنه أحيا الروح الوطنية التى سوف تتكفل بذلك .

وكانت جنازته رائعة ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه وأقبل من القرى النائية ألوف من تلاميذه وأنصاره لكى يشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم الى مثواه اولئك الذين أصبحوا بعد موت الزعيم الأمناء على تراثه الوطنى .

ستظل روح مصطفى كامل تلهم شعبا باكمله ، أصبح الوريث لكل مثله العليا وانى لفخور ان الروح الوطنية تجددت فى عهدى على يد زعيم كان أخلص الزعماء وأشدهم صلابة وصدقا » .

رحل مصطفى كامل بعدما رد لمصر عافيتها وروحها واستأنفت فصلا جديدا من كفاحها الذى لا ينتهى .. من أجل الحرية والديمقراطية والاستقلال والدستور . وهما الهدفان اللذان لا مساومة عليهما .

انتهى الجزء الاول

رقم الايداع ٥٣٨٥ / ٩٩

I. S. B . N

977 - 07 -0650- 7

الفهـــرس

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع.	البلاد العربية	آسيا - أوربا أفريقيا	أمريكا الهند - كندا	باقى دول العالم
	جنيه	دولار	دولار	دولار	دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N



أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٥ مدينة محلية وعالمية
EGYPTAIR
مصر للطيران

هذا الكتاب

ليست هذه دراسة تاريخية تقليدية، ولكنها صفحات من تاريخ وتراث الديمقراطية والحزبية فى مصر . وهو سجل ثمين عريق لابد وأن نذكره دائما وأن نستعيده وأن نعرضه لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة لكى يستكملوه .

والديمقراطية هى قضية العصر والمستقبل بالطبع، وسوف تتصدر قضايا القرن القادم .

وقد تطور تعريفها وأصبح شاملا ويعنى توزيع السلطة والثروة والمعرفة بالعدل وعلى كل مواطن وحتى آخر مواطن . ولن تكل الانسانية أو تمل حتى يتحقق هذا الحلم.

وبهذا المعنى وفى إطاره تأخذ الديمقراطية طرقا وأشكالا متعددة تتفق مع خصائص كل شعب وواقعه .

وقد كانت مصر رائدة متقدمة وخاضت من أجل الديمقراطية معركة باسلة بطولية ، وتكالبت قوى غير متكافئة لاجهاضها وسحقها، وضربت مثلا ونموذجا لشعوب الشرق فى المقاومة والابداع، ولم تزل المعركة قائمة وعلى أشدها ، ومازال الطريق طويلا وعسيرا. ويصبح واجباً علينا أن نستقصى التاريخ والتراث وأن نتبين الانجازات والعثرات وأن نرسى البناء على أسس راسخة وأن نبدع ونضيف ونكتشف طريقا مصريا عربيا الى الديمقراطية الشاملة .. ولعل هذا الجزء الأول من هذه الصفحات يقدم مساهمة متواضعة ولكن مفيدة فى هذا الصدد !.